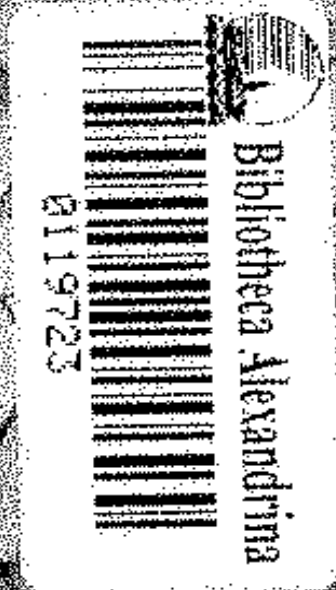




أحمد سليمان معروف

قراءة جديدة

في مواقف الخواج وفكرهم وأدبهم





دمشق - أوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ - ٢٤٣٩٥١ - ٢١٣٨٢١

تلكس : ٤١٢٠٥٠

ص.ب : ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

مع الدار مخصص

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

قراءة جديدة
في مواقف الخوارج
وفكرهم وأدبهم

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى

١٩٨٨

أحمد سليمان معروف

قراءة جديدة
في مواقف الخوارج
وفكرهم وأدبهم

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

v

مقدمة

الحديثُ عن الخوارج — بالنسبة إلى — حديث ذو شجون، فلقد أقدمتُ على دراستهم، والبحث في أحوالهم، في ستينيات هذا القرن، حيث الشباب في أوج تألقه، والتطلع إلى المستقبل الأدبي والعطاء الفكري في عنفوانه، وكنت آنذاك في بعثة تعليمية إلى القطر الجزائري، وتراءى لي أن فرصة بلوغ المجد الأدبي قد سنحت، وأن الظروف قد واثني لأحقق في مغرب الوطن العربي حلماً لم يُتاح لي تحقيقه في مشرقه. فسجلت موضوعاً عن (الطُّرْمَاح) في جامعة الجزائر العاصمة، للحصول على ما يسمونه هناك (دكتوراه

الدرجة الثالثة) ، وهي تساوي في سلم الدراسات
الماجستير ، سجلت الموضوع لدى الدكتور طا
(من القطر المصري) ، وكان أستاذاً معاراً لـ
الجزائر ، وكان الموضوع الثاني الذي توعدنا به
لنيل الدكتوراه عن (الخوارج وأدبهم) جرى كل
الدكتور شكري فيصل ومباركته ، وقد استدع
مكي إلى مصر قبل نهاية إعارته ، فنقلت تسجيل
إلى الدكتور شكري فيصل الذي كان معاراً
الجزائر أيضاً ، وقطعت معه شوطاً غير قصير
العمل الأكاديمي ، والتعرف على أوليائه من تبوي
ومعرفة طرق استعمال المراجع والأنخذ عنها وغير

وكان الدكتور فيصل يزور وهران ممثلاً لـ
الجزائري ، ليرسي قواعد جامعتها الناشئة ، و
التقاليد الجامعية العريقة ، وكنت أطلعه في زيارات
ماقت به من عمل ، فيثني عليه ، ويشجعني
الله — بعبارات تدعو للفخر والاعتزاز ، وتحفز
الطريق .

لكنّ الرياح جرت بما لا تشتهي السفن ، فاستدعي
الدكتور شكري فيصل إلى دمشق كذلك قبل إنهاء إعارته ،
ثم استدعيْتُ قبل إنهاء إعارتي ، وتهاوى صرح الأحلام هذا
دفعة واحدة ، وحيل بيني وبين ما بدا لي ذات يوم ممكناً بل
ميسراً ، وقفلت عائداً لأحمل درجةً علمية معينة ، ولا لقباً
أدبياً ، وبقي ما فعلته في هذا الموضوع طيّ الإهمال والنسيان
بضع عشرة سنة .

حتى إذا استيقظت الفكرة من جديد ، وأرادت أن
تري طريقها إلى النور ، رأيت بعثها وتقديمها إلى القراء
الكرام ، بعيداً عن التسجيل الجامعي والمناقشات واللجان
الفاحصة ، ورأيت أن ذلك لا ينقص من قيمتها وجديتها
ومنهجيتها ، وإذا كان سيتغير شيء (ممّا كان سيحصل)
فبعضُ شكليّات التسويب والتوثيق . وقد قسمت هذه
الدراسة إلى قسمين منفصلين : قسم عن الخوارج يتناول
مختلف جوانب حياتهم السياسية والفكرية والاجتماعية
والأدبية ، مشفوعة بشيء من التحليل والتعليق ، وقسم
تناولت فيه الشاعر الطرمّاح الذي تعارف الناس على تسميته

(وتنصبيه) شاعراً للخوارج . وستصدر الدراستان تبعاً
بمشيئة الله وعونه : الخوارج أولاً ثم الطرماع ، والموضوعان
مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، حتى إنني هممت بإصدارهما معاً في
كتاب واحد . وترتيبُ قراءة الكتابين سيكون كترتيب
صدورهما ، لأن في قراءة الخوارج أولاً إلقاء ضوء كاشف على
الكثير من جوانب الطرماع ، إذ يتحدد موقعه من الخوارج
وموقعهم منه . ولهذا فإني أحيل القارئ الكريم إلى قراءة
الخوارج أولاً ، لا من أجل الدعوة للكتابين معاً — كما يبدو
للوهلة الأولى — بل لما في ذلك من نفع أكبر . لقد وجدت
أن من أصعب الأشياء ، التعرض لموضوع بت الأقدمون في
أمره ، وأصدروا الحكم فيه ، ورسموا ملامحه ، فرسخت صورته
في أذهان الأجيال ، وتعارفت عليه ، واعتبرته من المسلّمات
التي لا تناقش ، ولا يصح تناولها إلا من الزاوية التي أقرتها
هذه الأجيال وسلّمت بها .

قالت كتب التاريخ : إن الخوارج كفرة فجرة ،
مارقون من الدين ، رفضوا كل شيء ، وخرجوا على كل قانون
ونظام ، دون أن تناقش تلك الكتب ذلك القانون أو النظام ،

وجرى ذلك على ألسنة الناس فتناقلوه وقبلوه على أنه من الحقائق التاريخية الثابتة .

وقال بعض المشتغلين بالتأليف الأدبي : إن الطَّرْمَاح شاعرُ الخوارج فتناقل الناسُ هذا القول وتوارثوه ، ولم يناقشوه كما لم يناقشوا : أن الكميت شاعر الشيعة ، وأن عبيد الله بن قيس الرقيّات شاعر الزبيريين ، وأصبح ذلك جزءاً من ثقافة الأجيال الأدبية .

كما وجدت أن من يندب نفسه لدراسة أحد هذين الموضوعين أو كليهما ، بغير التوجه السالف الذكر ، أو يتحرك بغير ذلك المنحى ، أو يحاول رسم صورة تغاير الصورة المعروفة ، فإنه لاشك سيجد عناءً كبيراً ، إذ ستعوزه القدرة على الإقناع ، وإن قدّم بين يديّ دراسته الحجة والدليل المنطقي أو العلمي .

والإقناع والاقتناع بأمور كهذه — كما هو معروف — لا يأتیان دفعةً واحدة ، بل تتجرعهما الأجيال دفعاتٍ كثيرة ، وعلى فتراتٍ متباعدة أو متقاربة ، حتى يتاح لتلك الأجيال إحلال الجديد محل القديم ، وتقبّل اللافتة الأخيرة

بدلاً من الأولى . فالتاريخ القديم رسم ملامح الخوارج ،
ومنحهم بطاقتهم الشخصية ، وألصق في أعلى تلك البطاقة
صورةً غير صورتهم ، ونكّرهم بوجوه مستعارة ، فتعرضوا
بذلك لحملة تشويه وتزوير بلغت حدّ الاعتداء على
شخصيتهم وتاريخهم ، فلا يستطيع كتاب واحد أن يمحو
ذلك التراكم الموروث ، بل لابد من تضافر جهود كثيرة عبر
أجيال متعاقبة .

ولم يفتني أن الخوض في أمر مسلم به ، ومحاولة تغيير
الصورة المعروفة عنه ، سيلاقي استغراباً وربما استنكاراً ، وقد
يطيب للكثيرين ممن لا يريدون التعمق وإعمال الفكر ، أن
يتهموا من يكتب بهذا التوجه ، أو يحاول قلب مفهوم راسخ ،
أنه ينطلق من مبدأ (خالف تُعرف) وأنه جاء بهذا الرأي
الخلافي كي يلفت النظر إليه .

وما دفعني — بعد ما ذكرت من صعوبات —
للخوض في هذا الموضوع بعينه ، ما رأيت من قلّة
الدراسات فيه ، وعدم جدوى ما كتب عنه ، في إضاءة
المظلم من جوانبه ، كما أني لم أجد فيما كتب رأياً جريماً ، أو

ببحثاً جدياً أتى بمناقشة حرة، أو تعليق صريح، إنما هي آراء
منقولة كما وردت في كتب الأقدمين، لم تنفض عن
الموضوع غباراً ولم تأت فيه بجديد..

ولا أعتقد أن مؤلفاً — بالغاً ما بلغ شأنه — يستطيع
أن يقلب مفاهيم أجيال تعاقبت على الاعتقاد بفكرة، ولو
كانت خاطئة.

ولا أطمح أن أحقق هذه المعجزة، فأغسل ما علق
بأذهان الناس عبر الأجيال السالفة، كما لا أدعي أنني
استطعت أن أفعل كل ما لم يفعله غيري، أو أنني أضأت
جوانب الموضوع إضاءة كاملة، أو أنني أنجزت كل ما يجب
إنجازه في هذا المجال..

ولكن الذي فعلته، هو أنني أدليت بدلوي في هذا
المضمار، ووضعت شمعة على الطريق، عسى أن يأتي من
بعدي من يجد الباب أوسع، والطريق أسهل، فتتوضح له
أمور لم تتوضح لي، ويقع تحت يده ما لم يقع تحت يدي
وعلمي، فيكون إسهامه أكبر وأنفع.

وعلى أني لا أستطيع التنبؤ بمدى فاعلية هذه

الدراسة ، ولا بجدوى الدور الذي ستلعبه (بواقعها وجملة
ظروفها) في ردم الهوة السحيقة التي فصلت حقيقة الخوارج
عن أعين الناس وأذهانهم ، فأني أرجو أن تقيم جسراً من
نوع ما بينهم وبين القارئ الكريم ..

مصيف في / ١٥ / أيار / ١٩٨٨

أحمد سليمان معروف

(١)

من هم الخوارج؟

المعروف لدى عامة الناس ، أن الخوارج فئة خرجت على الحاكم وشقت عصا الطاعة ، فاستحقت هذه التسمية المهينة ، واستحقت أكثر من ذلك ، لعنة دائمة تلاحقهم عبر الأجيال .

فقد كان الخروج على الحاكم — وما يزال — في نظر الحاكم على الأقل ، وعند العرب بخاصة ، سبّةً وعاراً أقل ما يجب أن ينال مرتكبه الملاحقة والسجن ، والموت في بعض الأحيان . فتاريخنا القديم تاريخ حكام ، لا دور للشعوب فيه إلا في القليل النادر ، ولا مكان للحركات التي كانت تعبّر بطريقة أو بأخرى عن مطلب

شعبي، أو تجاهر برأي جماهيري حر، يتعرض للسلطان من قريب أو بعيد.

والخوارج عند الخاصة، والذين قرؤوا التاريخ: حزبٌ سياسيٌّ نشأ في صدر الإسلام، وفي زحمة الصراع على الخلافة، وعلى وجه التحديد هم الفئة التي خرجت على الخليفة الراشدي الرابع علي ابن أبي طالب (كرم الله وجهه) في معركة صفين، لأنه قبل التحكيم. وقد عرّفهم كتب التاريخ فقالت: الخارجيّ هو كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه، «سواء أكان ذلك الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان في كل زمان»^(١) ويظلون في نظر الخاصة كالشيعة والأمويين والزييريين، همهم الوصول إلى الحكم.

لكنّ واقع الخوارج — في حقيقة الأمر — ليس كما ذكر، فهم ليسوا بالخارجين على القانون لمجرد الخروج والتمرد على الحكام، كما فهمهم العامة. وليسوا حزباً سياسياً يزاحم للوصول إلى الحكم

(١) الملل والنحل للشهرستاني / ١١٤ / والكامل في التاريخ لابن الأثير ج / ٣ / ص ٣١٦ والكامل للميرد (باب الخوارج) ص / ٧ / .

والظفر بالخلافة، كما قرأهم الخاصة . إنهم ظاهرة فريدة وفذة في تاريخ العرب البكر .

سأعرض بالدراسة لنشاطهم ولشيء من تاريخهم — إذ لا سبيل لشرح كل ذلك التاريخ الطويل في دراسة موجزة أو محاضرة تلقى في زمن محدد . كما سأعرض لآرائهم السياسية والدينية ، ولأخلاقهم وصفاتهم وحالتهم الاجتماعية وأدبهم بمثل الإيجاز الذي ذكرت عن تاريخهم .

(٢)

نشأتهم الأولى

قد يفاجأ القارئ الكريم عندما يسمع لأول مرة أن جذور الخوارج ترجع إلى ما قبل الإسلام، وأن الصعاليك صعاليك الجاهلية هم أجداد الخوارج. فكلنا يعرف ذلك النفر من الصعاليك الذين خرجوا على أعراف قبائلهم وتقاليدها، وتمردوا على قيم البادية وأخلاق النظام القبلي الذي هو النظام الشرعي، وشهروا سيوفهم في وجوه الأغنياء، وسلبوا ونهبوا، ولكن بأخلاقية الفروسية العربية. إذ كانوا يوزعون القسط الأكبر من مغانمهم على الفقراء والمحتاجين، فخروجهم نوع من الثورة على النظام الاجتماعي الفاسد

في الجاهلية ، واحتجاج مسلح على سوء توزيع الثروات في المجتمع القبلي ، وإشارة قوية إلى الوعي الذي تميّز به أولئك الصعاليك .

وكلنا يعرف كم كان الخروج عن وعلى القبيلة يكلف من ثمن باهظ ، فالذي يتحمل ذلك الخروج وتبعاته وجرائره ليس بالشخص العادي قطعاً .

وإذا كان المعاصرون قد حكموا على ثورة الصعاليك بأنها خروج على نظام اجتماعي فاسد ، هو نظام القبيلة — وهو النظام الشرعي آنذاك — فإن الأمر يختلف بالنسبة للحكم على ثورة الخوارج ، لأن من الصعب بل من الممنوع أن تقيم ثورتهم على أنها خروج على نظام اجتماعي فاسد ، وقد حكم عليها الأقدمون أحكاماً لا تقبل النقض ، على أنها خروج على الشرعية ، وتمرد على النظام والقانون ، فالنظام إسلامي والخليفة ظل الله وخليفة رسوله .

وربما كُفِّتُ القارىء عناءً كبيراً إذا طلبت إليه أن يتبع معي أنساب هؤلاء الصعاليك وقبائلهم ، ثم أولادهم وأحفادهم الذين أصبحوا خوارج يوم الخروج الأكبر في صفين ، وحسبي الآن أن أنبه إلى طبيعة العلاقة بين خروج الأجداد في الجاهلية وخروج أحفادهم في الإسلام ، وإلى أن هذه النوعية من البشر

جاهزة للخروج على النظام القائم والحاكم كائناً من كان، بما تحمل من مزايا: التمرد وحب النقد وعدم السكوت على ما تراه خطأ.. ويمكن القول باختصار: إن هؤلاء هم صعاليك الإسلام، ورثوا الخلق الصعلوكي وأضافوا إليه ما جاء به الإسلام من قيم السماء، فعملت على صقله وتهذيبه وتنقيته من شوائب الجاهلية.

ربما كان أول صوت سُمع من الخوارج — في الإسلام — وفي وجه نبي الإسلام نفسه، صوت من سمته كتب التاريخ والأدب (المُخَدِّج) ^(٢) أو (ذا الخويصرة) ^(٣) أو (ذا الشدية) ^(٤) وقالت عنه تلك الكتب: إنه رجل من تميم، وروت الحادثة التالية على اختلاف بسيط في الرواية، ولكنها (أي تلك الكتب) أجمعت على مضمون القصة: وهي أن النبي (ﷺ) كان يقسم غنائم غزوة خيبر، فبادره ذلك المخدج بلهجة جافية قاسية: إنك تقسم بغير ما أمر الله! ويتجاوزها النبي الكريم بما عرف عنه من حلم وسعة صدر، ويتجاهل استنكار الصحابة لهذا الصوت المستهجن،

(٢) المُخَدِّج: الناقص الخلق.

(٣، ٤) أطلقت هذه التسمية على المخدج لأن يده كانت كتدي المرأة لاصقة على خاصرته — وهذا هو النقص الذي كان فيه..

ولكن الصوت يعود ليقول : لم تعدل يا محمد . ويقول أيضاً : هذه
 قسمة ما أريد بها وجهُ الله ، ويتولى محمد (ﷺ) الرد عليه برفق
 ولين : ويحك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ ويفضّب كبار الصحابة
 لهذه الرقاحة التي يُخاطب بها الرسول على مسمع من الناس ،
 والرسول قائد ديني ودنيوي لا يُناقش في شيء ولا يُخطأ في شيء ،
 ولا يقال له : لا ، فهو بأمر الله يصدع وعن لسانه يتكلم ، لا ينطق
 عن الهوى ولا يحيد عن الحق ! فما بال هذا الخارجي يُخطئه بمثل
 هذه الجرأة ؟ ويستأذن بعض الصحابة النبي (ﷺ) في قتله حتى
 لا تكون فتنة ، ويأذن لهم بذلك . ولكن الخدج لم يقتل إلا مع قتلى
 الخوارج في النهروان ، على يد علي بن أبي طالب . وتروي كتب التاريخ
 وبعض كتب الأدب كالكمال للمبرد ، أن فرحة علي بمقتل الخدج
 كانت كبيرة ، وأنه ألح على تفقد جثته ، فلما عثر عليها خرّ ساجداً
 شكراً لله ! (٥) .

ولا نكاد نسمع شيئاً ذا بال عن الخوارج في خلافة أبي بكر
 وخلافة عمر ، وأنه إلى أن الردة في خلافة أبي بكر هي أبعد
 ما تكون عن الخوارج ، فهي حركة ارتداد عن الإسلام وانسلاخ عن

(٥) الكامل للمبرد ٣٠ - ٥٨/٣١ - والكامل في التاريخ ج ٣/٣٤٧ وشرح نهج
 البلاغة ج ١/٢٤٩ .

الدين ، والخوارج مسلمون صحيحو الإسلام ، وتمردهم كان دائماً
انتصاراً للدين ، بل وانتقاماً للخروج عليه .

حتى إذا كانت خلافة عثمان ، وكانت الفتنة الكبرى — كما
أسماها الدكتور طه حسين — واشربت الأعناق من كل الأمصار ،
وكررت التساؤلات حول سياسة الخليفة الثالث ... ولا يعيننا
— هنا — أمر تلك الفتنة ولا هذه السياسة ، إلا ما كان من ذلك
الدور الذي لعبه من أصبحوا خوارج فيما بعد ، فلقد كان هؤلاء
على رأس المتجمهرين للفتك بعثمان والناقمين على سياسته . لقد
رفعوا أصواتهم بالاحتجاج في بادئ الأمر ، ثم رفعوا سيوفهم . وكان
أن قتل الخوارج عثمان ، كما اعترفوا هم أنفسهم بذلك فيما بعد ،
يوم خرجوا على عليّ في صفين ، إذ قالوا له يوم أمرهم بمتابعة القتال
على الرغم من رفع المصاحف ، واعتبار ذلك خدعة : يا عليّ أجب
إلى كتاب الله عزّ وجلّ إذ دُعيت إليه وإلا دفنناك برمتك إلى القوم
أو نفعل بك ما فعلناه بابن عفان^(٦) . وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة
وتحديداً ذكرنا بعض الأسماء التي شاركت في مقتل عثمان ، ثم

(٦) الكامل في التاريخ ج ٣ / ٣١٦-٣١٧ ، والملل والنحل للشهرستاني
ج ١ / ١١٤ .

شاركت في الخروج على عليّ وحريه ، من هذه الأسماء : زهير بن حرقوص السعدي ، كان أمير الخارجين من أهل البصرة لحصار عثمان وقتله (وقد قتل جميع الذين خرجوا من البصرة لقتل عثمان في حرب الجمل عدا حرقوصاً هذا إذ منعته عشيرته بنو سعد) (٧) .
ومن بين الذين شاركوا في قتل عثمان ثم شاركوا في الخروج على علي : زيد بن صوحان العبدي وزباد بن السنزر الحارثي وغير هؤلاء كثير . (٨)

منهم من كان مع علي في حرب الجمل ، ومنهم من كان مع عائشة ؛ ومن كان في جيشها من الخارجين لمقتل عثمان ، وكان أول من أنشب القتال في حرب الجمل : حكيم بن جبلة العبدي (٩) . وقد أوردت هذه الأسماء لأدلل بها على صحة ما ذهبت إليه من استمرارية روح الخروج وأن الخروج في صفين لم يكن في واقع الأمر إلا ساعة الصفر — كما يقول المحدثون — .

وتصير الخلافة إلى عليّ بن أبي طالب وقبل أن تقفز إلى

(٧) الكامل في التاريخ ج ٣ / ٢١٩ .

(٨) مروج الذهب / ج ٢ / ٣٤٣ وابن الأثير ج ٣ / ١٥٨ وعلي وبنوه لطفه حسين . / ٣٧ /

(٩) الكامل في التاريخ ج ٣ / ٢١٤ .

صفيين حيث كان الخروج — تاريخياً — نرصد شيئاً من حركة هؤلاء المهيعين للخروج الذين يحملون بذور الثورة بدمائهم ، والذين كانوا يشكلون (مشروع الخوارج) لقد رضي هؤلاء أشد الرضى عن خلافة علي وأعجبهم فيه : زهده وفصاحته وشجاعته وصراحته وصدقه وعدله ، وهذه صفات ظلوا ينشدونها ، وودّوا لو تحلّى بها الحاكم والمحكوم ، ومع ذلك فقد كانوا يتململون ويبدون نوعاً من الخروج قبل صفيين ، وذلك لشعورهم بتهاون علي في ضرب الثائرين على شرعية خلافته في حرب الجمل التي كانت تقودها عائشة أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير ، وهما من أكابر الصحابة وأصحاب الشورى . وقد كان رأي الخوارج يتلخص فيما يلي :

ما بال هذا الرجل (يعنون علياً) لا يعمل السيف في رقاب هؤلاء الناكثين بيعته ، المرتدين على شرعية خلافته ، حتى لكأنه شك في صدق موقفه ؟ ألم يبایعه طلحة والزبير في أول المبايعين ؟ لقد حلّت له دماؤهما ودماء من معهما في كتاب الله وسنة رسوله ، فإن أي تأخر عن أخذهم بالسيف هو تهاون لا مسوغ له .

لكن الأمر بالنسبة لعلي لم يكن بالبساطة التي رآها خوارج المستقبل ، فهو يقف وجهاً لوجه أمام أجلاء الصحابة وزوج ابن

عمه رسول الله (ﷺ) وجيش كبير كبير من المسلمين ، وكان من عاداته ألا يبدأ بقتال ، بل كان ينتظر البدء من العدو حتى يقيم عليه الحججة .

وتحاجز العسكران الكبيران قرب البصرة ، ولجأ عليّ إلى المحاوراة والمفاوضة ، فطلب الزبير وحاوره وعاتبه عتاباً مرّاً ، انسحب بعده الزبير من المعركة ، وحاور طلحة كذلك ، وللإنصاف أذكر بما قاله التاريخ من أن الرجلين لم يقتلا في حرب مع علي ، بل كان مقتلهما خارج معركة الجمل ، قتل الزبير غيلةً بعيداً عن ساحة المعركة ، وقتل طلحة بسهم انطلق من معسكر عائشة — وكان مُتَّهماً بدم عثمان — . (١٠)

كان الخوارج إذا يضيقون بهذه المفاوضات ، ويتململون ضجراً وربما من صبر علي وتمهله في قمع هذه الفتنة ، وكانوا يتفوهون ببعض الكلمات ، ويطلقون السهام نحو معسكر عائشة ،

(١٠) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ / ١١٦ = قاتل الزبير عمرو بن حرموز ، حمل رأسه وسيفه لينال الجائزة من علي فغضب وبشره بالنار ، وأصبح ابن حرموز هذا خارجياً قتل في النهروان . أما خير مقتل طلحة فجاء في الطبري ج ٤ ص ٥٢٧ ومروج الذهب للمسعودي ج ٢ / ٣٦٤ / وعلي وبنوه لعله حسين ص / ٩٥ .

(٣)

صفين والخروج الأكبر

لم يكد علي يفرغ من حرب الجمل ويتجرع ماخلفته من فواجع وويلات ودماء وجراح نازفة— إذ كانت أول حرب طاحنة بين جيشين من المسلمين— لم يكد يفرغ من تلك الحرب، حتى وجد نفسه يلبي نداء حرب جديدة، فزحف بجيشه نحو الشام لملاقاة جيش معاوية الذي شق عصا الطاعة أيضاً، وأعلن نفسه خليفةً في دمشق وأعد العدة للحرب..

والتقى الجيشان في صفين على الفرات قرب الرقة سنة سبع وثلاثين للهجرة. ولا يعنينا من أمر هذه الحرب ولا من وقائعها إلا ما يتعلق بموضوعنا:

يتألف جيش علي من كبار الصحابة، المهاجرين والأنصار، العباد الزهاد القراء، وكلهم يؤمن بخلافة علي وشرعيتها إيمانه بالدين نفسه، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم، ولا يتسرب إلى قلوبهم شك في صحة موقفهم وصدقه، وهم لا يرجون على ذلك الموقف مطمعاً دنيوياً ولا يدفعهم إلى الأخذ به مطلب مادي.

ومن جهة أخرى فإنهم يعتقدون بنفس الثقة واليقين بمروق معاوية من الدين وبغيه، وأنه هو وقومه الفئة الباغية التي يجب قتلها حتى تفيء إلى أمر الله، وكانوا يرددون— وهم حفظة القرآن وفقهاء الدين— آية الفئة الباغية ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتَلَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (١٢).

ويشتد القتال ويطول أمدُه شهراً، وتظهر الغلبة لجيش علي ويكاد يتحقق له النصر، لولا خدعة رفع المصاحف التي أشار بها داهية العرب عمرو بن العاص (١٣).

ما كاد أولئك العباد الزهاد حفظة القرآن من جيش علي

(١٢) سورة الحجرات الآية /١٠/.

(١٣) ابن الأثير ج ٣ /٣١٦/ وغيره..

يرون كتاب الله على الرماح يصيح رافعوه : يا قوم .. هذا كتاب الله
 بيننا وبينكم .. لا حكم إلا لله ، ما كادوا يرون ويسمعون حتى
 استرخت أكفهم عن مقابض السيوف ، وأصاب تلك السواعد
 القوية المؤمنة — وقد رأت النصر وشيكاً — شلل لا تقوى معه على
 الحراك — وعلي يصيح بهم : إنها خدعة ، ويحذرهم من النتائج
 ويؤكد لهم أنه يقاتل معاوية وأصحابه لمخالفتهم كتاب الله ، وأما
 قوتهم : لا حكم إلا لله ، فإنها كلمة حق يراد بها باطل^(١٤) . أو كما
 جاء في النصوص التاريخية : قالوا لعلي حين رأوا المصاحف على
 الرماح : القوم يدعوننا إلى كتاب الله ، وأنت تدعوننا إلى السيف ،
 قال علي : أنا أعلم بما في كتاب الله ، انفروا إلى بقية الأحزاب ،
 انفروا إلى من يقول : كذب الله ورسوله ، وأنتم تقولون : صدق الله
 ورسوله ، قالوا : لَنُرجعنَّ الأشر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك
 مثلما فعلنا بعثمان^(١٥) . وأستطرد قليلاً لأشير إلى أن هؤلاء
 الخوارج هم الذين ثاروا على عثمان ، وهم قتلته الحقيقيون .

ومن الذين قالوا لعلي مثل هذا القول — وكانوا قد شاركوا في

(١٤) شرح النهج ج ١ / ٢٦٢ والكامل لابن الأثير ٣ / ٣٢٤ .

(١٥) ابن الأثير ج ٣ / ٣١٦ — ١٧ — والملل والنحل ج ١ / ١١٤ .

فتنة عثمان — مسعر بن فلذكي التميمي ، وزيد بن حسين الطائي في عصابة من القراء مما قالوه له : يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل — إذ دُعيت إليه — وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان^(١٦) .

ويتوقف القتال في صفين بعد أن استدعى عليّ الأشتر وأمثاله ممن كانوا يرون النصر قاب قوسين أو أدنى ، ويصار إلى (التحكيم) الذي هو أساس قضية الخوارج ، وتكتب صحيفة التحكيم ، وهي الصيغة التي اعتمدها الطرفان المتحاربان أساساً لحل الخلاف ، ويُسمّى الحكمان : أبو موسى الأشعري عن علي وعمرو ابن العاص عن معاوية . ويبدأ الأشعث^(١٧) بالطواف في معسكر علي يتلو كتاب التحكيم فرحاً مستبشراً ، وكان أول صوت سمع بالتحكيم ورفض الصحيفة هو صوت عروة بن أدية ، إذ سل سيفه وقال للأشعث : ما هذه الدنية يا أشعث ؟ وما هذا التحكيم ؟ أشرط أوثق من شرط الله عز وجل !^(١٨)

(١٦) ابن الأثير ج ٣١٦٣ — ١٧ — والملل والنحل ج ١/١١٤ .

(١٧) هو الأشعث بن قيس الكندي من جند علي المقربين وقد لعب دوراً كبيراً في أمر الخلاف وتشكك كتب التاريخ في صدق موقفه من علي .

(١٨) الكامل للمبرد ٢٢/ وابن الأثير ج ٣/ ٣٢١ .

كُتِبَ كتاب التحكيم يوم الأربعاء ١٣ صفر/ ٣٧ هـ
وحدد موعد اللقاء من أجل التحكيم في رمضان من العام
نفسه^(١٩) وبين هذين التاريخين تسارعت الأحداث تسارعاً مذهلاً ،
فقد انتبه الخوارج إلى أن ما فعلوه من إرغام علي على وقف القتال
وقبول التحكيم كان خطأً ، بل كان كفراً يجب الاستغفار منه ؛
وطلبوا من علي أن يرفض ذلك التحكيم ويلغي تلك الصحيفة
فلا يجوز التحكيم في الأمور الواضحة من دين الله ، لكن طلبهم
ذاك جاء متأخراً وبعد فوات الأوان ، فعلى أوقف القتال ووقع على
صحيفة التحكيم ، وشهد على ذلك نخبة من المسلمين ، وقد أصبح
التراجع خيانة وغدراً لا يقبل بهما .

وأصر كل على موقفه فكان الخروج التاريخي المعروف ، وولد
الخوارج فئة مميّزة مستقلة عن غيرها بُعيد رفع المصاحف وكتابة
صحيفة التحكيم ، سنة سبع وثلاثين للهجرة .^(٢٠)

واعتزل معسكر علي اثنا عشر ألفاً من أشد مقاتليه
ليعسكروا في مكان بالعراق اسمه حروراء ، لذا كانت الحرورية من

(١٩) نفس المرجع السابق / ٣٢١ .

(٢٠) ابن الأثير ج ٣ ٣٢٢/٣٢٧ والكامل للميرد / ٢٣ .

أسمائهم ، وهم نواة الخوارج وأول من أطلقت عليهم هذه التسمية بشكل تاريخي^(٢١) .. وقد حاول بعض المؤلفين^(٢٢) أن يقيموا علاقة بين الخوارج وبين السبئية ، فاعتبروا أنهم جزء منهم ، وأن نشأتهم مرتبطة بهم ، وقد بالغوا في ذلك حتى زعموا أن عبد الله بن وهب الراسبي — أول أمير للخوارج — هو عبد الله بن سبأ نفسه ، لولا أنهم استدرکوا واعترفوا أن الراسبي قتل في النهروان ، وقد قصد هؤلاء المؤلفون من وراء ذلك إلى تشويه أصل الخوارج ، والإساءة إليهم والتشنيع عليهم مجارةً لقدماء المؤلفين وسيراً على طريقهم ، لكن التوفيق لم يحالفهم فيما سعوا إليه ، لافتقاره إلى الدليل العلمي ، وبعده عن طبيعة الخوارج وأخلاقهم كما سنرى .

ومهما يكن من أمر ، فقد أوقف القتال ، ووقع عليّ صكّ التحكيم ، واختير الحكمان ، وحُدد مكان الاجتماع في دومة الجندل ببادية الشام ، وزمائه في رمضان من السنة السابعة والثلاثين للهجرة ... والأمر الذي يدعو للتوقف وإطالة التأمل هو أن كل كتب التاريخ تُجمع على أن عليّاً حُمل على وقف القتال ، وقبول

(٢١) ابن الأثير ج ٣ / ٣٢٢ / ٣٢٧ والكامل للمبرد / ٢٣ .

(٢٢) الخوارج في العصر الأموي / ٥٨ / .

التحكيم وقبول الحَكَم أيضاً، فقد رشَّح ابن عمه عبد الله بن عباس والأشتر النخعي ليكونا مفاوضين عنه، ولكنَّ جماعةً منهم الخوارج أصروا على اختيار أبي موسى لا يقبلون له بديلاً، ما القوة التي استطاعت أن توقف القتال وتهدد علياً بالقتل، وتفرض عليه التحكيم كأسلوب لحل هذا الخلاف المستحکم؟ ثم من هم الذين لم يتركوا له حرية اختيار الحَكَم، فأَيُّ دور بقي له في هذه اللعبة؟.

إني أرجح أن الأمر لم يكن بالشكل الذي أورده جماعة المؤرخين! (من أن الخوارج شهروا سيوفهم في وجه علي وأرغموه على وقف القتال وقبول مبدأ التحكيم وفرضوا عليه أبا موسى الأشعري حَكَمًا لا شريك له).

فهم لم يكونوا بعد قد شكّلوا قوة جماعية ضاغطة لها رأي موحد، بل ما زالوا أفراداً لهم آراء شتى لا ينظم بينهم ناظم، إلا بعض الخواطر المشتركة، والتي لم تصل بعد إلى حد الإجماع، بل أميل إلى الاعتقاد— ومن خلال المعطيات التاريخية المحيطة بجو الخلاف والمعركة التي طال أمدها، وتسرب جند المعسكرين بعضهم إلى بعض— أميل إلى القول: إن الذين لعبوا ذلك الدور الكبير، هم نفر من جند علي كانوا مدسوسين عليه موعودين من معاوية وعمرو

ابن العاص ، ضربوا على وتر حساس ، وأصابوا نقطة ضعف :
كتاب الله بين المعسكرين وأصوات تصيح : هذا كتاب الله فهو
الحكم بيننا وبينكم ، والتعب قد بلغ مبلغاً كبيراً من الجند ، وحقن
الدماء واجب ديني ، والتحكيم وارد في كتاب الله ، ثم إن نتيجة
التحكيم ستكون لصالح الخليفة الشرعي الذي يحاربون تحت لوائه ،
فلماذا لا يكون وقف القتال ؟. يرى صاحب اليمين واليسار في
الإسلام^(٢٣) أن علياً أوقف القتال في صفين نزولاً عند رغبة الأكثرية
من جنده ، وتمشياً مع أسلوبه الديمقراطي في تغليب رأي الأكثرية ،
وترسيخ هذا المبدأ لدى جماعته ، ويرى أيضاً أن وقف القتال كان
مؤامرة استطاع معاوية أن ينفذ بها لدى اليمين في جند علي ، إذ
اشترى كل القابليين للخيانة بحكم وضعهم الطبقي ومصالحهم
الطبقية^(٢٤) .

هل يمكن أن يكون الخوارج قد فعلوا كل مانسب إليهم
بذلك التصميم والإصرار ، حتى هددوا أصحابهم بالقتل ثم تراجعوا عنه
بمثل ذلك التصميم والإصرار ؟ واعتبروه كفراً يستغفرون الله منه ؟ .

(٢٣) اليمين واليسار في الإسلام : أحمد عباس صالح / ١٢٦ .

(٢٤) نفس المرجع / ١٤٩ .

الأمر الذي لاشك فيه أن قسماً من الخوارج قد قبل التحكيم في وقت من الأوقات وشارك في بعض مراحلها ، ولكن ليس بالفاعلية التي ذكرتها كتب التاريخ ، ثم إنهم سرعان ما تراجعوا عما قبلوه واعتبروه كفراً صريحاً . وبذلك تكون عامة الخوارج بريئة من أسوأ تهمة وجهها لهم التاريخ وفيها مقتل الشرعية .. وهي دفع علي وإرغامه على وقف القتال ، وقد ثبت فيما بعد أنهم غير مستفيدين مما نسب إليهم ، فلماذا لا يحتمل التاريخ مسؤولية ما حصل للمستفيد الحقيقي منه ؟ وقد أشارت كتب التاريخ إلى الأشعث بن قيس وأمثاله من جند علي أنهم لم يكونوا على ولائ صادق له .

وأرجح مع طه حسين والعقاد أن فرض التحكيم واختيار الحكيم (كان مؤامرة استغلّت بساطة وإيمان الذين صاروا خوارج) قام بإحكامها مدسوسون على عليّ والخوارج معاً ، كان على رأسهم الأشعث بن قيس الكندي^(٢٥) وإذا سلّمنا بأن الخوارج قبلوا وقف القتال حيناً رأوا كتاب الله على الرماح ، فما الذي يجعلهم يصرون على اختيار أبي موسى الأشعري ممثلاً لعلي ؟ ورئيساً لوفده المفاوض وزادّه في تلك المهمة الصعبة وأمام

(٢٥) علي وبنوه لطله حسين / ٨١ وعبقريّة الإمام علي للعقاد / ١٣٥ .

خصمه الداهية عمرو بن العاص ، أنه ميال للسلام ، وأنه شيخ وقذته
العبادة وأنه عثماني الهوى ، وقد كانت به غفلة نفذ منها خصمه
الذكي — (٢٦) وهناك من يتهم أبا موسى نفسه ، إذ كيف يمكن أن
يُفسر خلعهُ لموكله قبل أن يتأكد من صدق نوايا خصمه ، في
الخلع المتفق عليه ؛ وقد كان عبد الله بن عباس ظهيراً لأبي موسى
وعضواً في الوفد المفاوض ، وقد أشار عليه وأكد وألح ألا يكون أول
من يصعد المنبر وأول المتكلمين ، وألا يعلن خلع صاحبه قبل أن
يسمع الخلع من عمرو أولاً ، ولكنه خالف النصيحة ، وصعد المنبر
أولاً وخلع علياً من الخلافة ، (٢٧) ولإنصاف ابن عباس نقول : إنه
لم يوافق على الخلع أساساً ، وربما يكون أبو موسى قد أخفى نيته
حتى صعد المنبر ، ففاجأ بها الناس بعامة ، ومستشاريه بخاصة .. هل
كان الخوارج ينوون تسليم الخلافة إلى معاوية فيختارون أبا موسى
حكماً لهم ؟ ما أظنهم كانوا كذلك ولا إنحاهم فعلوا ذلك — إن
كانوا قد فعلوه — إلا ضحايا لمؤامرة قد استهدفتهم جميعاً .

وأرى مع الأستاذ عباس محمود العقاد (٢٨) أن فرض أبي

(٢٦) شرح النهج ج ١ / ٢٣٥ - ٢٤٠ وتاريخ الفكر العربي لفروخ / ١٨٥ وغيرهما .

(٢٧) شرح النهج ج ١ / ٢٤٠ وعلى بن أبي طالب ، عبد الفتاح عبد المقصود ج ٥

٩٣ - ٩٤ .

(٢٨) عقيدة الإمام علي / ١٣٥ - ١٣٦ .

موسى الأشعري ممثلاً مفاوضاً عن عليّ — على الرغم من أنه كان من حلقات المؤامرة — فإنه لم يؤثر على جوهر القضية في شيء، فالحكم كائناً من يكون لا يستطيع أن يعطي علياً شيئاً، حتى ولو كان ذلك الحكم عبد الله بن عباس مرشح علي وابن عمه، أو الأشتر النخعي الذي كان أشد المتطرفين والمتحمسين لعلي، من المؤكد أن ابن عباس والأشتر ما كانا ليوافقا عليّ نخلع علي، ولكن من المؤكد أيضاً أنهما لم يكونا ليحصلوا له على موافقة الفريق الثاني بتبشيره في الخلافة، ولأن ينتصفا من عمرو بن العاص، فقد كان يحمل في جعبته أوراقاً كثيرة يريد أن يلعبها في الوقت المناسب وأمام الحكم المرسل من عليّ مهتماً كان نوعه ..

الهدف الذي رمى إليه عمرو ومعاوية من رفع المصاحف قد تحقق، وهو وقف القتال، وإشاعة الفرقة والجدل والخصام في جند عليّ، فقد حصلوا على هدنة رسمية تمكنهما من المراوغة وكسب الوقت، والتدبير لكسب المعركة النهائية — وهذا ما حصل بالفعل — .

أما اختيار الحكم، وانعقاد مؤتمر دومة الجندل، وما أحاط به من أمور فلا قيمة له على النتيجة النهائية، وما تحمّل أبي موسى

لاشعري مسؤولية خذلان علي إلا إبراز للجانب السطحي
الإعلامي للموقف.. وعلى الرغم من الاعتقاد بأن أبا موسى لم
يكن مخلصاً لعلي وقضيته، فإن عمرو بن العاص لم يكن مخلصاً
لمعاوية وقضيته أيضاً بل كان طامعاً بالخلافة، يدبر الخلع علي
ومعاوية معاً، وكان نصحه لمعاوية مدخولاً وغير خالص لوجه الله
(٢٩) وأستطيع أن أقول: إن أبا موسى على الرغم من أنه أعلن خلع
علي، وأن عمراً أعلن تثبيت معاوية، كان (أعني أبا موسى)
أنخلص لعلي من عمرو لمعاوية ولقضية الخلافة كلها.

لكن الأحداث أخذت مجراها، فاجتمع الحكمان في دومة
الجنديل، وتحلّع أبو موسى علياً من الخلافة، وأثبت عمرو معاوية
وتسابّ الرجلان وتشاتما على مرأى ومسمع من الناس، وانتهت
المهزلة بأن عاد كل فريق يدعم موقفه تحسباً لاحتتمالات
المستقبل. (٣٠) ورأى الخوارج بأعينهم أنهم تُخدعوا أيضاً، وأن
صاحبهم الذي خرجوا عليه وكفروه كان أبعد نظراً وأصوب رأياً
وأعرف بخضمه، لكنهم تسرعوا إذ رأوا كتاب الله يرفع فاستجابوا

(٢٩) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد / ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٣٠) ابن أبي الحديد ج ١ / ٢٤٠ وابن الأثير والمسعودي في أحداث سنة ٣٧ هـ .

وعبقرية علي للعقاد ص ١٠٨ .

لداعيه ، وعليهم الآن أن يوجدوا مخرجاً من تخبطهم هذا ويتخذوا موقفاً يعتمدونه في طريقهم الذي اختاروه ..

كان موقفهم على الشكل التالي : نحن في قبولنا التحكيم ووقف القتال قد أذنبنا وكفرنا ونستغفر الله ، فالمطلوب من علي أن يقول مثل مقالتهم فيعترف بالكفر ويستغفر الله ، وهم مستعدون بعد ذلك للعودة معه إلى حرب أهل الشام^(٣١) .

لكن علياً يرفض المساومة على موقفه الذي صار إليه ويتمسك بعقد التحكيم الذي أبرمه مع أهل الشام ، وينظر الخوارج مناظرة مقنعة جاءت نصوصها في الكامل للمبرد^(٣٢) والكامل في التاريخ^(٣٣) وشرح نهج البلاغة^(٣٤) وغيرها من كتب السير^(٣٥) — من أبرز مضامينها أنه شرح لهم أن التحكيم وارد في كتاب الله — وذلك عندما قالوا له : كيف تحكّم الرجال في دين الله ؟ ثم أوضح لهم أنه مرتبط بصك موقع لا يجوز الرجوع عنه

(٣١) الكامل للمبرد / ٢٤ .

(٣٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣٣) ج ٣ / ٣٢٧ .

(٣٤) ج ١ / ٢٥٠ .

(٣٥) علي وبنوه طه حسين / ٩٦ / .

وأعاد إلى ذاكرتهم أنه أرغم على هذه المواقف ، فكان جوابهم :
لا يجوز للإمام الاجتهاد فيما ورد فيه نص وحريك مع معاوية فيها
نص قرآني : ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ (٣٦) ..
فلا يحق لك إلا القتال ، أما التحكيم وانتظار نتائج فشيء مرفوض
حتى لو كانت تلك النتائج في جانب الشرعية ..

ويأتي خبر التحكيم وما صار إليه مؤتمر دومة الجندل ، من
خلع أبي موسى لعلي — خدعة أو غير خدعة — وتمسك عمرو بن
العاص بمعاوية في موقف درامي مثير .

ويطلب علي من الخوارج العودة معه للحرب معاوية مادام
الحكمان لم يحكما بما في كتاب الله ، فقبوله التحكيم كان مشروطاً
بأن يصدر حكم من صميم كتاب الله وروح الإسلام ؛ وإذا كان
الأمر كذلك فإن يعدوه والخلافة صائرة إليه لا محالة . (٣٧)

رفض الخوارج طلب علي بالعودة للقتال ، وكانت حججهم
هذه المرة : أنه لو حارب قبل ظهور نتيجة التحكيم ، وقبل معرفته
بأن أبا موسى قد خلعه من الخلافة ، لكان ذلك في سبيل الله والحق

(٣٦) الحجرات / ١٠ .

(٣٧) الكامل للمبرد / ٢٣ ، والفتنة الكبرى / ٩٥ .

والشرعية ، ولكن انتصاراً لمضمون آية (الفئة الباغية) التي مر ذكرها. (٣٨)

أما الآن فهو يحارب لمصلحته الشخصية ، ولاسترجاع حق فرط فيه ، وقبل المساومة عليه ، وحكم الرجال في موضع لا حكم فيه إلا لله .

أصبح الوضع السياسي — بعد التحكيم — وفي نظر الخوارج على الأقل — كالآتي :

المسلمون ثلاث فئات متميزة أو ثلاث دول : دولة في الشام يرأسها معاوية ، ودولة يرأسها علي بعد فشل التحكيم وعدم اعترافه بخلع أبي موسى له ، ودولة ثالثة هي دولة الخوارج التي تعتبر أن الأمر عاد شورى يرأسها : عبد الله بن وهب الراسبي ، وقد بايعه جمع كبير من الذين انفصلوا عن علي عند قبول التحكيم وإعلان الحكم بعزله من الخلافة .

لقد ناظر علي الخوارج مرة بلسانه ، ومرة بلسان عبد الله بن عباس ، واستنفدا ما لديهما من وسائل الحجة والمنطق والإقناع ، فعاد

(٣٨) علي وبنوه طه حسين / ١٠٤ .

بضعة آلاف منهم معه ، وأصرَّ الباقر على موقفهم ، وشرطهم للعودة وهو : نحن أذنبنا وكفرنا وإنا نستغفر الله ، فليقل علي مثل مقالتنا نعد معه إلى حرب معاوية^(٣٩) .

ولم يعترف علي بالكفر وتصلب المواقف ، وتنشب حرب النهروان ويُقتل الذين شهدوها من الخوارج عن آخرهم تقريباً^(٤٠) وقد تراوح عدد الذين قتلوا في النهروان بين أربعة آلاف وثلاثة آلاف ، إذ لم تتفق المصادر على عدد بعينه .. وكان بين قتلى النهروان المخدج الذي مر ذكره في أول هذا البحث....^(٤١) وبين الناجين عروة بن أديّة^(٤٢)

لقد اتخذ الخروج بعد النهروان شكلاً منظماً : نظرية في الحكم — موقف محدد من علي — موقف محدد من الخلفاء الراشدين — من معاوية ، قيادات يناط بها أمر الدين والدنيا — موقف من الحكام بعامة عبر التاريخ .. وسنعرض لبعض المواقف فيما يأتي من أجزاء هذه الدراسة .

(٣٩) المبرد / ٤٨ - ٤٩ وابن الأثير ج ٣ / ٣٢٨ .

(٤٠) أقلت منهم ثمانية ، الكامل للمبرد / ٢٩ / .

(٤١) ابن الأثير ٣٤٧ .

(٤٢) المبرد / ٢٣ وشرح النهج / ١ / ٢٤٩ .

وأستاذن القارىء بالوقوف قليلاً عند بعض النقاط التي مرّ
الحديث عنها كنوع من القراءة الثانية لها :

١ — استطاع علي بمناظرته الشهيرة للخوارج ، وما جاء في تلك
المناظرة من حجج بالغة ومنطق مقنع ، أن يستعيد إلى صفه قرابة
سنة آلاف خارجي ..

٢ — كانت مناظرة عبد الله بن عباس لهم — على بلاغتها — أقل
تأثيراً بل على العكس كان موقفهم أقوى وحجتهم أبين ، فقد اتخذ
ابن عباس موقف الدفاع بينما استعمل الخوارج مالدسهم من أدوات
الهجوم .

عندما أراد أن يسوِّغ التحكيم من الكتاب والسنة أجاوبه :
« أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمرهم بالنظر فيه فهو لهم ،
وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني مئة
جلدة وفي السارق القطع ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا ، وقد
أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يُقتلوا أو يرجعوا ، وقد
كتبتم بينكم وبينهم كتاباً وجعلتم بينكم المودعة ، وقد قطع الله
المودعة بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلت براءة إلا من أقرّ

بالجزية، قال لهم ابن عباس: (يحكمم به ذوا عدل منكم^(٤٣)) فقالوا: أفتجعل الحكم في الصيد والحرب وبين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟ أعدل عندك عمرو بن العاص وهو بالأمس يقاتلنا؟ فإن كان عدلاً فلسنا بعدول، وقد حكمتم في أمر الله الرجال^(٤٤).

٣ — موقفهم من صحيفة التحكيم كان صريحاً واضحاً قوياً (آية الفئة الباغية)^(٤٥)

٤ — كذلك كان ردهم على عليّ إذ طالبهم بالعودة إلى حرب معاوية: لو حاربت قبل التحكيم لكان ذلك في سبيل الله، وأما بعده فمن أجل مصلحة شخصية^(٤٦).

٥ — إن اعترافهم بالخطأ الذي بلغ حد الكفر، ثم عودتهم واستغفارهم إنما هو تجاوز للذات وتغلب على الكبرياء، وليس هذا بالقليل ولا السهل على الأعرابي الذي لم تغب بعد كل ملامح الجاهلية من عينيه — فالخوارج جيل الإسلام الأول —.

(٤٣) المائة / ٩٥ .

(٤٤) ابن الأثير ج ٣ / ٣٢٧ وعلى وبنوه / ٩٥ .

(٤٥) علي وبنوه / ٨٧ .

(٤٦) علي وبنوه / ١٠٤ .

٦ — إن تكفيرهم لعلي كان مشروطاً وموقتاً ، وإن خروجهم عليه وبراءتهم منه كانت أموراً معلقة قابلة للتغيير ، فلو أنه قبل شروطهم واعترف بالكفر واستغفر الله ، أو لو حكم الحكمان له بالخلافة لانتهى كل خلاف ، ولكن حين لم يتوفر فعل الشرط كان الجواب تكفيراً مؤبداً عبر التاريخ ..

(٤)

بعد التَّهْرَوان

كانت فتكة النهروان كبيرة وكانت دماؤها غزيرة، وكانت فجيعة علي بقتلى النهروان أكبر من أي فجيعة، فهم خاصته وأصحابه المقربون، وصفوة جنده الذين نصره في حرب الجمل وصفين، ولكن على القائد ألا يعدم وسيلة تكون المخرج مما قد يقع فيه من مآزق.

تفرق الخوارج بعد النهروان، فالذين شهدوا الموقعة قُتلوا جميعاً، والذين لم يشهدوها كانوا منبئين بين المصريين (الكوفة والبصرة) موتورين حريصين على طلب الثأر^(٤٧).

(٤٧) علي وبنوه / ١١٣.

ويمكن تصوير وضعهم في هذه المرحلة بثلاث صور :

١ — كانوا يتعايشون مع علي ، يشهدون الصلاة معه ويسمعون خطبه وأحاديثه مطمئنين إلى عدله ، وكانوا أحياناً يشغبون عليه في المسجد فيقطع حديثه أو خطبته ليرد عليهم ، ولكنه لم يكن ليأخذهم بالقول أو الظنة ، وكانوا يتقوون عليه بما يعطيهم من فيئتهم ..

وقد استقر في نفسه أنهم قاتلوه ، ولكنه لم يكن يرى أن له الحق أن يأخذهم إلا عن بينة أو عمل يقوهون به ، وكان يردّد : لتخضبنّ هذه من هذا (مشيراً إلى لحيته وقرنه) وقد كان ألقى إليه من رسول الله (ﷺ) أنه سيموت مقتولاً وأن قاتله أشقى هذه الأمة ، فكان يقول : ما يؤنخر أشقاها؟ (٤٨) وقد جاهره بعضهم بالشغب والعصيان كالخزّيت بن راشد السامي فلما أراد مناظرته ذهب ولم يعد (٤٩) ..

٢ — كان يبلغ بهم الأمر — وعندما يأنسون من أنفسهم قوة — حدّ الخروج المسلّح يعتصمون في مكان ما من العراق ، وقد تتابع

(٤٨) الكامل للمبرد ٧٦ / الكامل في التاريخ ج ٣ / ٣٨٨ .

(٤٩) علي وبنوه ١١٤ / الكامل للمبرد / ٧٦ .

خروجهم وكثير، وكان عليّ في كل مرة يرسل إليهم من يغلبهم علي أمرهم أو يشنت شملهم، وقد اتسمت الفترة التي سبقت مقتل علي بكثرة الخرجات وبأعداد متفاوتة، وكانت أكبر تلك الخرجات من حيث الأهمية والعدد والمدلول: خرجة أبي مریم السعدي - من تميم - فقد كان معظم أصحابه من الموالي، وبلغ من أهمية تلك الخرجة أن قائدها اقترب من الكوفة مما اضطر علياً أن يقاتله بنفسه ويقتله^(٥٠).

٣ - إن مرحلة ما بعد النهروان كانت مرحلة تریص وإعادة حسابات، بل كانت مرحلة حضانة لما تمخضوا عنه فيما بعد من آراء في السياسة والشريعة ومنهج المستقبل..

لقد خسروا في النهروان عدداً كبيراً من القتلى، ولكنهم ربحوا غير ذلك كثيراً: ربحوا إعجاب الناس بهم وعطفهم عليهم مقاتلين مستميتين في سبيل عقيدتهم، يسارعون إلى الموت والاستشهاد.

ربحوا إعجاب علي نفسه باستبسالهم وتقبلهم الموت صامدين صابرين فقال: « لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من

(٥٠) ابن الأثير ج ٣ / ٣٧٢ / وعلي وبنوه / ١٤٠ .

طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»^(٥١) وكذلك فقد امتنع ابنه الحسن — فيما بعد — عن قتالهم لما دعاه معاوية إليه قائلاً « لا أقاتل قوماً أنت أولى بالقتال منهم ».^(٥٢) وليس هذا الموقف من الحسن — إضافة إلى قناعته الشخصية — إلا امتثالاً منه لأمر أبيه، وعملاً بوصيته .

أصبحت النهروان عند الخوارج نقطة انطلاق هامة، فقد غدت الدماء وحركتهم، وصاروا يذكرون شهداءهم بالأسى والحب والإعجاب، ويتعرقون للثأر لهم، فكانت هذه الموقعة كربلاء الخوارج، ونتج عنها أن الذين لم يشهدوا منهم هذه الموقعة أحسوا بالتقصير وعقدة الذنب، وكان عليهم أن يكفروا عن تقصيرهم ونخللانهم لإخوانهم، فتجمعوا وتآلبوا وشدوا على أيدي بعضهم بعضاً شأن التوايين الذين ندموا على تفریطهم في حق الحسين بن علي .

وكان أن قامت حركة أهل النخيلة^(٥٣) التي ناظر أصحابها ابن عباس، وقاتلهم علي وكان عليهم المستورد بن علفة .

(٥١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ / ٥٩٣ .

(٥٢) الكامل للمبرد / ٧٥ وأدب الخوارج لسهر قلماوي / ٣٣ .

(٥٣) الكامل للمبرد / ٧١ — ٧٢ — ٧٣ .

ولعل أعظم ربح أصابه الجوارح من حرب النهروان ، كان
تنقية عقيدتهم وتطهير صفوفهم ، فقد صهرتهم الحرب . وكثرت
المجادلات والخطب والأقوال في صفوفهم ، فكان الباقون هم الصفوة
الأقوى إيماناً والأصلب عوداً ، وابتعد عنهم المنافقون والمندسبون
وأصحاب الأغراض ، وبذلك تكون حرب النهروان قد أعطت
القضية الخارجية مدداً قوياً في كل المجالات ..

(٥)

مقتل الإمام علي

إن التطرف والقلق والحركية كانت أميز ميزات الخوارج، وقد رأينا ما كان من موقفهم في حرب الجمل ومحاولتهم تسريعها بإطلاق السهام نحو معسكر عائشة، وإنكارهم مفاوضة علي لكبار الصحابة كطلحة والزبير وغيرهما، واعتبارهم هذا التفاوض نوعاً من التهاون والتفريط في الحق، فهم خارجون على الإمام، ناكثون للبيعة التي أعطوها أمس، فهي لازمة أعناقهم وليس لهم إلا السيف، كذلك رأينا موقفهم في صفين — حتى رفع المصاحف — فقد حاربوا بإيمان وشجاعة وشرف، وتوقفوا عن

القتال بمثل الإيمان والقناعة التي حاربوا بها ، ومثل ذلك تماماً كان خروجهم على علي فهم مقتنعون تمام الاقتناع أن ما فعلوه هو الحق ، وأن هذا الرجل — أعني علياً — قد فرط بحقه وحكم الرجال في دين الله، فعليهم أن يحاربوا الانحراف واللاشرعية التي كان يمثلها معاوية ، فأصبح الآن يمثلها علي ومعاوية .. واعتبروا أن الخليفة الحق الذي تقلد الخلافة بالشورى هو خليفتهم الشهيد : عبد الله بن وهب الراسبي^(٥٤) واعتبروه الخليفة الراشدي الخامس ..

وفيما كان علي يحضّر للعودة إلى الشام مثقلاً بتبعات حرب الجمل وحرب صفين وحرب النهروان ، وحين اقترب من إنجاز هذه المهمة الصعبة ، قُتل بسيف خارجي في مسجد الكوفة وهو يوقظ الناس للصلاة ، صلاة صبح الجمعة لسبع عشرة خلون من رمضان من سنة أربعين للهجرة ، وقيل بل ليلة إحدى وعشرين من رمضان^(٥٥) من تلك السنة ..

والحقيقة التاريخية الثابتة الوحيدة لدينا هي : أن رجلاً من الخوارج اسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادي قتل علياً في مسجد

(٥٤) ابن الأثير ج ٣ / ٣٣٥ والكامل للمبرد / ٧ والبيان والتبيين للجاحظ / ٢٠٥ .

(٥٥) الكامل للمبرد / ٣٨ والكامل في التاريخ / ٣٨٧ وغيرهما .

الكوفة سنة أربعين هجرية .. أما الدوافع والملابسات والظروف المحيطة بهذا الاغتيال ، فكلها غامضة ..

هل كان السيف الذي قتل علياً سيفاً خارجياً حقاً ؟ أم هل كان خنجر ثأر شخصي لبعض قتلى النهروان ؟ لا يد لعامة الخوارج فيه ، أم كان رسول غرام لامرأة خارجية جميلة اسمها قطام ؟ أم هل كان طعنة اغتيال سياسي نفذتها — عبر الخوارج — يد داهية الشام ومستشاره النابغة عمرو بن العاص ؟.

كل هذه الاحتمالات يخطر على البال ، وكلها أشار التاريخ إليه تلميحاً أو تصريحاً ، ولكننا لانستطيع أن نجزم بتغليب أحد هذه الاحتمالات على غيره إلا بمقدار ما يملك من المرجحات ، وكل ما يعنيني من أمر في تمحيص هذه الآراء معرفة دور الخوارج — كجماعة — في مقتل علي ..

فكتب التاريخ وكتب الأدب وبالإجماع^(٥٦) تقول : إن رجلاً من الخوارج اسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادي قتل علياً بسيف

(٥٦) الكامل للمبرد باب الخوارج / ٣٨ / ابن الأثير ج ٣٨٧٣ وعلي وبنوه / ١٦٦ وغيرهما .

مسموم دفعته إلى ذلك امرأة خارجية اسمها قطام بنت علقمة (٥٧) من تيم الرباب ، طلبت منه مقابل حبها عبداً وجارية وثلاثة آلاف درهم ، وأن يقتل علياً ، نفذ الرجل وظفر بالجائزة الثانية أي (الجنة ونعيم لا يزول) كما وعدته قطام (٥٨) وانتهى الأمر...

ولا يسعني أن أنفي هذه الرواية ، ولكنني سأثير بعض التساؤلات وأسجل بعض المعلومات التي تعين الدارس في التماس الحقيقة . قاتل علي رجل حامل الذكر ، ما كان يُعرف أو يُشهر لو لم يقترن اسمه بتلك الحادثة التي أودت بحياة واحد من أعظم رجال التاريخ . كل ما عرفناه عنه : أنه أدرك الجاهلية وهاجر في خلافة عمر ، وشهد فتح مصر ، وسكنها مدة — شهد صفين مع علي ، ثم خرج عليه مع الخارجين (٥٩) .

أما كيف استقر في ذهنه أن يقتل علياً فأمرٌ مُختلفٌ

(٥٧) شرح النهج: ج ٢ / ٦٦ (قال إنها: قطام بنت الأخضر) وفي الخوارج والشيعة / ٤٢ قطام بنت الشحنة وأعلام الزركلي ٤ / ١١٤ وأعيان الشيعة قسم ٢ / ٢٥١ — ٢٥٣

(٥٨) المراد / ٣٧

(٥٩) ديوان السيد الحميري / ٤٢١ — ٤٢٦ .

عليه . فقطام نفسها لم تقرر كتب التاريخ أنها كانت زوجته أم عشيقته ، والروايات مختلفة في ذلك .

— فإن كانت زوجته فبأي سلطان تدفعه إلى هذه المخاطرة ، ثم تطلب منه ثلاثة آلاف درهم وعبدًا وجارية؟؟ كان جديراً بها أن تعطيه بدلاً من أن تأخذ منه ، إن ما طلبته منه وما كلفته به أبعد ما يكون عن منطوق ما يقع بين زوجين ، ولا بد — والحالة هذه — أن يكون لدى عبد الرحمن دوافع أخرى غير إرضاء زوجته والثأر لقتلاها .

— وإن كانت عشيقته أو حبيبة لابن ملجم — وهذا أقرب للواقع — فقد طلبت منه غالباً ودفعت به إلى المهالك ، وكان يكفيها منه أن يقتل لها علياً ليظفر بحبها ، أما أن تطلب منه أموراً مادية أخرى كالمال والعبد والجارية فهذا ليس شأن المحبين ..

وقد استكثر ابن ملجم ما طلبت منه قطام ، وقال ابن أبي مياس المرادي^(٦٠)

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحةٍ

كمهر قطام من فصيح وأعجم

(٦٠) الكامل للمبرد / ٣٧ ينسب الأبيات لابن ملجم نفسه ، أما شعر الخوارج / ٧ . وشرح التهج / ٧١/٢ وغيرهما فالأبيات فيها لابن أبي مياس المرادي .

ثلاثة آلاف وعبدٌ وقينسةٌ
وضربُ عليٍّ بالحسام المصمّم
فلا مهرَ أغلى من عليٍّ وإن غلا
ولا فتكٌ إلا دونَ فتكِ ابنِ ملجم

هل توقع عبد الرحمن أن يقدم رأس علي جزءاً من مهر طلبته منه قطام ويكمل الجزء الباقي ثم ينعم معها بعيش هاليء وحياة زوجية سعيدة، أم أن هناك ضغوطاً أخرى كانت أقوى من حب قطام وتحريضها؟

— شيء آخر يجب ألا يفوت المتأمل في هذه القضية، وهو أن عبد الرحمن لم يكن شاباً صغيراً تستهوية امرأة بجماها فتدفع به إلى هذه المخاطرة، وهو الذي عاش شطراً من حياته في الجاهلية وأكثر من أربعين عاماً في الإسلام بعد الهجرة وثلاث عشرة سنة قبل الهجرة (فترة الدعوة في مكة)، وبهذا يكون هذا العاشق المغامر في الستين أو ما يزيد.

— وما هو متواتر في هذه القضية أن ابن ملجم كان يتهيأ لقتل علي بشكل علني يحمل سيفه ولات حين حرب، يتفوه بكلمات تنم عن نيته، كأن يقول وهو تلقاء المنبر وعلي يؤدّب أصحابه «والله

لأرئيتهم منك» (٦١) وهو مطمئن إلى ما عرف من سيرة علي بأنه لا يأخذ إلا عن بينة ، فإذا قيل له « احترز من ابن ملجم فإنه قاتلك » أجاب متبسماً : ولكنه لم يقتلني بعد ، أقتل قاتلي ؟ وكان يكثر من القول : ما يؤخر أشقاها ؟ أشقاها خاضب هذه من هذه (مشيراً إلى لحيته وجبهته) (٦٢) .. وكان يردد :

أشدُّ حيازيَمَك للموتِ فإنَّ الموتَ لا يَكُـ
ولا تجزَعُ من الموتِ إذا حلُّ بنا ديكُ

وكان إذا رأى عبد الرحمن — وهو يعطيه عطاءه — تمثل ببيت عمرو بن معد يكرب في قيس بن مكشوح المرادي (٦٣) :

أريد حياءه ويريسد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

إذا صحَّ ما جاء في هذه الرواية من أن الدافع لقتل علي كان تعريض امرأة موتورة قُتل معظم أهلها في النهروان ، وأن القاتل رجل خامل لا شأن له طمع بالأجر فالمسألة مسألة اغتيال شخصي لا يد

(٦١) الكامل للمبرد / ٣٨ .

(٦٢) روت الرواية في الكامل للمبرد على غير هذا الشكل (أشقاها خاضب هذه

من هذا) وأمسك بلحيته ووضع يده على قرنه . / الكامل ٧٦ / .

(٦٣) البيت وارد في الكامل للمبرد (حياءه) وفي غيره (حياته) ص ٣٨ ونهج

البلاغة ج ٢ / ٦٥ ومروج الذهب للمسعودي ٤١٧/٢ .

لجماعة الخوارج فيها — ويؤكد ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لم يذكر أن أحداً من الخوارج عامتهم أو خاصتهم طلب منه ذلك، فيكون ما فعله عملاً فردياً بقي محصوراً به وبقطام التي دفعته إليه ..

وهناك رواية أخرى عن مقتل علي أوجزها فيما يلي :
تعاهد ثلاثة من الخوارج في موسم الحج من سنة أربعين هجرية ، علي قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، فهم في نظرهم أس الداء وأصل البلاء ، وليترك أمر المسلمين شورى ، واتفقوا أن تكون ليلة السابع عشر أو التاسع عشر أو الواحد والعشرين من رمضان من السنة المذكورة موعداً لذلك . وأخذ كل طريقه إلى صاحبه الموكل بقتله : في مصر والشام والعراق ، فأما صاحب عمرو بن العاص فدخل المسجد مع المصلين وطعن الإمام طعنة أردته قتيلاً ، ولكن ذلك القتييل لم يكن عمرو بن العاص ، بل كان — كما سمته كتب التاريخ — خارجة قائد شرطته^(٦٤) أنابه عنه في الصلاة تلك الليلة !!

وأما صاحب معاوية فقد ضربه بالسيف على أليته وكان معاوية عظيم الأليتين — وقيل : كان دارعاً فلم يصب منه مقتلاً واتخذ

(٦٤) هو خارجة بن حذافة من بني عامر (الكامل / ٤١) ونهج البلاغة ج ٢ / ٦٥ .

المقصورة بعدها في الصلاة محتجباً عن باقي المصلين (٦٥) .. وظفر
 عبد الرحمن بن ملجم بعلي بضربة سيف مسموم على رأسه ..
 ومن تمام الرواية أن نذكر أن الذي وكل بقتل معاوية كان
 اسمه الحجاج بن عبد الله الصرمي المعروف بالبُرْك، وأن الموكل
 بقتل عمرو بن العاص كان اسمه عمرو بن بكر التميمي — وقيل:
 كان اسمه زادويه مولى لبني العنبر — وقيل: إن الثلاثة كانوا من بني
 ملجم، فكان القاصد إلى معاوية اسمه: يزيد بن ملجم والقاصد
 إلى عمرو آخر من بني ملجم وأن أباهم قد نهاهم، وأن أمهم قد
 حضتهم على ذلك (٦٦) الخ....

لقد أنهى عبد الرحمن بن ملجم — بضربته هذه — مرحلة
 من مراحل التاريخ، وألغى نمطاً فريداً من أنماط الحكم، هو الحكم
 الراشدي، وبدأت مرحلة أخرى لها ميزات وصفاتها ... لقد سلم
 الخلافة إلى معاوية، وقدمها له سهلة ميسورة، هل فعل ذلك عن
 قصد منه أم عن غير قصد؟ هل كان ابن ملجم وضحيته (أعني
 علياً) ضحيتين لمؤامرة كبرى استهدفت خلافة الراشدين

(٦٥) المراد ٤١/ وشرح النهج وغيرها ومروج الذهب للمسعودي ٤١٧/٢ .

(٦٦) الكامل للمبرد ٣٧/ وشرح النهج ج ٢ / ٤٥ .

برمتها؟ هذا ما يلوح في أفق التاريخ إذا قرىء بغير الطريقة المكتوبة، هل كان ابن ملجم مدفوعاً بحب قطام وهو شيخ بربري على الستين؟ أم بالاتفاق الذي أبرمه مع رفيقيه الخارجيين؟. ولم يصيبا هدفيهما؟. لماذا لم يخرج عمرو بن العاص للعبادة تلك الليلة؟ وأن الموكل بقتله لم يعرفه، فعندما أُحمل إليه وسمع الناس تخاطبه بالإمارة قال: أوما قتلتُ عمراً؟ قيل: لا^(٦٧)، لماذا كان معاوية دارعاً تلك الليلة، وكانت الضربة على ما كتمته لا على رأسه؟

الأمر الذي لاشك فيه أن القضية الخارجية لم تستفد شيئاً من مقتل علي، بل على العكس تماماً فقد كان لعنةً عليهم وخزياً لهم، فقد خسروا الرجل الذي كانوا يتعايشون معه ولا يخافون منه ظلماً ولا غدرًا، بل كان يعاملهم بمنتهى العدل^(٦٨) ويتفهم عقدهم ودوافعهم، حتى لقد أوصى ألا يجازب الخوارج بعده، فهم طلاب حق لكنهم أخطؤوه، قال: «لاتقاتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»^(٦٩).

(٦٧) الكامل للمرد / ٤١ ..

(٦٨) علي وبنوه / ١٥٣ .

(٦٩) شرح ابن أبي الحديد للصح ح ١ / ٥٩٣ .

فإذا فتشنا عن المستفيد الحقيقي من إزاحة علي عن ساحة الحكم والتخلص من طريقته وأسلوبه في سياسة المسلمين ، وعلى من يقع خطر هذه السياسة ، سجلنا الملاحظات التالية :

١ — لم تكن عداوة الخوارج لعلي عداوة إيديولوجية صميمية ، بل كانت عداوة طارئة سببها حادثة واحدة (هي التحكيم) وماتلاه من مضاعفات ودسائس أذكت الخلاف وسعرت ناره ، بل إن علياً والخوارج يصعدون عن مشارب واحدة ونزعات يسارية متشابهة ، وهم أقرب إلى أسلوبه في الحكم والسياسة من أسلوب معاوية ، والصراع الحقيقي كان بين اليمين واليسار ، والخوارج يسارٌ ثوريٌّ ، وبذلك لا يمكن أن ينصروا معاوية على عليٍّ — وهم يعلمون — .

٢ — لم يذكر التاريخ حادثة اغتيال واحدة مارسها الخوارج عبر تاريخهم الطويل ، والمتتبع لمسيرة صراعهم مع الأنظمة القائمة يتأكد من أنهم لم يعتمدوا الاغتيال أسلوباً في التغلب على الخصوم ، بل كان من أخلاقهم المجابهة والمواجهة والقتال حتى الموت ، ولو فعلوا ذلك لكانوا وفرّوا كثيراً من قتلاهم وحققوا غزيراً من دمائهم .

٣ — كانت بوادر المؤامرة منذ بداية صفين تخبّلا واستعلالا

لبعض التركيب القبلي للجيشين وإفساداً للرسل وإغراءهم بالمال
والمناصب، ثم إن مقتل علي وقع ساعة إنجازه الاستعداد للعودة إلى
حرب الشام.

٤ — كان لعبد الرحمن بن ملجم مساعدان يعينانه في إنجاز مهمته،
هما شبيب بن بجران (أو بحيرة) ووردان بن مجالد، وذلك لتكون
الخطبة محكمة، وفعلاً فقد كانت الضربة الأولى لشبيب لكنه أخطأ
الهدف وأصاب الباب^(٧٠) حتى جاء ابن ملجم فأصاب الهدف.

٥ — وهناك دور الأشعث بن قيس الكندي: لقد كان دوراً بارزاً
للغاية، سأشير إلى النقاط البارزة في هذا الدور:

قال المبرد صاحب الكامل^(٧١) إن عبد الرحمن بن ملجم
بات تلك الليلة عند الأشعث بن قيس، وأن حجر بن عدي سمع
الأشعث يقول له: فَضَحَكَ الصَّبْحُ، فلما قالوا: قُتِلَ أمير
المؤمنين، قال حجر للأشعث: أنت قتلته يا أعور!

ووردت هذه الرواية باختلاف طفيف في شرح النهج لابن

(٧٠) الكامل للمبرد ٣٨/ ونهج البلاغة وابن الأثير وغيرها.

(٧١) باب الخوارج ٧٨/ وشرح النهج ابن أبي الحديد ج ٢ / ٦٦ - ٦٧.

أبي الحديد^(٧٢) قال : خلا عبد الرحمن بالأشعث في بعض نواحي المسجد وهو يقول له : النجاء النجاء بحاجة إليك فقد فضحك الصبح ، ومرَّ بهما حجر بن عدي فأسرع إلى علي ليخبره ، فوجد عبد الرحمن قد سبقه إليه ... كذلك فقد جاء في شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة^(٧٣) . أن الأشعث هدد علياً بالقتل ، فأجابه علي بالحرف الواحد : « أبالموت تخوِّفني أو تهذِّدني ، فوالله ما أبالي وقعتُ على الموت أو وقع الموت علي » وفي خطبة لعلي في نهج البلاغة الجزء الأول ص / ١١٣/ ، اعترضه الأشعث وهو يخطب على منبر الكوفة . فقال له : « يا أمير المؤمنين هذه عليك لالك ، فخفض عليه السلام بصره إليه ثم قال : ما يدريك ما علي مما لي ، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ، حائك ابن حائك منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرةً والإسلام أخرى » إلى آخر الخطبة وماتلاها من شرح مستفيض أوضح من مواقف الأشعث في الجاهلية والإسلام ، والكثير منها يدل على أن لدى الأشعث دوافع للفتك بعلي ، كان من أقوى هذه الدوافع أن علياً عزله عن ولاية أذربيجان وكان قد وليها أيام عثمان .

(٧٢) شرح النهج ٦٧/٢ .

(٧٣) شرح النهج ٦٧/ .

وجاء في كتاب العزل «إنما غرّك من نفسك إملأ الله لك .
فما زلت تأكل رزقه وتستمتع بنعمه ، وتذهب طيباتك في حياتك .
فأقبل واحمل ما قبلك من الفيء ولا تجعل على نفسك سبيلاً» (٧٤) .

وبذلك يكون الأشعث قد بدأ حياته مع علي بداية غير
وديّة ولا مخلصّة، فكان يترصد به الدوائر ويتحين الفرص لينتقم
منه — وقد فعل — أكد ذلك عدد كبير من قدماء المؤلفين ،
فاتهموا الأشعث وأبا موسى معاً ، مع تحميل الأول مسؤولية التآمر
والاتصال الدائم بمعسكر الشام وقيادته ، وقد ذكر فلهوزن أسماء
بعض أولئك المؤلفين (٧٥) منهم العرب ، كاليعقوبي وأبي مخنف
والدينوري ، ومنهم الأجانب مثل : فيل ، ودوزي ، وبرتوف ، وملر .

ويبدو أن شخصية الأشعث لم تكن مستقرة على شيء وأن
الأهواء كانت تتنازعه فهو من جند علي ومن خاصته ، وهو متآمر
عليه حاسد له ، وقد استغرب كثير من المؤلفين ألا يكون
خارجياً^(٧٦) فقد كان من أشد المخدلين عن علي وعن الحرب يوم

(٧٤) الفتنة الكبرى ص ١٥٠ .

(٧٥) الخوارج والشيعة ٦ — ٩ .

(٧٦) فلهوزن الخوارج والشيعة / ٢٦ — ٢٩ .

صفيين ويبدو أن ماضيه لم يكن مشرفاً، فقد أسلم وارتد عن الإسلام^(٧٧) ثم أتى أبا بكر مستغفراً فغفر له وزوجه أخته ولقد ندم على عدم قتله إذ قال: «ثلاث تركتهن وددت أني لم أفعل. وددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس ضربت عنقه، فإنه يخيل إلى أنه لا يرى شراً إلا سعى فيه وأعان عليه.. الخ»^(٧٨) وكان قبل صفيين والياً على أذربيجان، واستولى على خراجها ولما استخلف عليّ فكر في الهرب إلى معاوية لولا قومه، وعزله عليّ عن الولاية وكانت له يد قتله، وكان عليّ يشك في أمره وينسب إليه كل شر^(٧٩)... ولكنه لم يسمح لنفسه أن يأخذه بغير ذنب واضح، ومن ذكاء الأشعث ودهائه أنه كان يحذر علياً من ابن ملجم، فقد روى المبرد في كتاب الكامل^(٨٠) أن الأشعث نظر عبد الرحمن متقلداً سيفاً حديداً وليس بأوان حرب، فركب بنلته وأتى علياً فخبه وقال له: عرفت بسالة ابن ملجم وفتكه، فقال عليّ: ماقتلني بعد..

(٧٧) أدب الخوارج / قلماري / ١٧.

(٧٨) فتوح البلدان للبلاذري / ١١٠.

(٧٩) أدب الخوارج / ١٧ وعبقريّة الإمام عليّ للعقاد / ١٠٠ - ١١٢ وعليّ بن أبي

طالب: ٩٢/٥.

(٨٠) باب الخوارج / ٣٧ - ٣٨ (الكامل).

ومن هذا القبيل ، ما نقله فلهوزن في كتابه (تاريخ السدول العربية) أن مؤامرة قتل علي تمت بين معاوية وابن ملجم وعمرو بن العاص والأشعث بن قيس ، وروى أن الأشعث قد تابعها في العراق — وكان صبيحة مقتل علي مع ابن ملجم يقول له محرضاً : النجاء النجاء فقد فضحك الصبح ، وسمع حجر بن عدي فقال للأشعث : قتلته يا أعور ! وأسرع إلى علي ليخبره فوجد ابن ملجم قد سبقه إليه وضربه بالسيف ..

وأخبار الأشعث كثيرة مستفيضة مع علي وحول مقتله ..
ويبدو أن مقتل علي (بندير من معاوية) كان معروفاً في تلك الأيام تتناقله الألسن والروايات ويتحدث به الشعراء بصوت مرتفع ، وبقي الأمر كذلك إلى أن استطاعت أنظمة الحكم أن تطمس هذه الحقيقة وتلقن المؤرخين ما كتبوه عن هذا الموضوع ، وحتى مؤرخو الشيعة فقد راقهم أن يُنسب قتل علي لرجل خارجي — أليس الخوارج أعداء علي ؟ — فادونوا ذلك دون تمحيص أو تدققة ..

قال أبو الأسود الدؤلي مخاطباً معاوية : (٨١)

(٨١) مروج الذهب للمسعودي ٤٤/٢ ٤٤/٢ ونُسبت هذه الأبيات لامرأة اسمها أم العريان /المبرد/ ٧٨ .

ألا أبلغ معاويةَ بن حرب فلاقرتُ عيونُ الشامتينسا
أبي شهر الصيام فجعثمونا بخير الناس طراً أجمعينسا؟
قتلتم خيرَ من ركب المطايا وذللها ومن ركب السفينسا
ومن لبس النعالَ ومن حذاها ومن قرأ المثناسيَ والميينسا

٦ - الملاحظة السادسة، لماذا لم يحقق أحدٌ مع هؤلاء الثلاثة الذين أرادوا قتل علي وعمرو ومعاوية؟ ولم ينشر شيء من اعترافاتهم وأقوالهم على الناس؟ فإذا كان ابن ملجم قد قُتل في لحظة غضب شفاءً لنفوس أهل علي وتنفيساً لأحزانهم، فما بال البرك الصريمي يبشر معاوية بمقتل علي هذه الليلة وبمهله معاوية حتى يتيقن من صحة زعمه، ثم يقتله شر قتلة إذ قطع يديه ورجليه^(٨٢)، كذلك فقد نُحنق سر صاحب عمرو بن العاص^(٨٣) وبذلك طويت هذه القضية وطمست معالمها ومات الذين يحملون سرها الحقيقي، وكان من الممكن أن يدلوا بمعلومات تقلب وجه ما كتب وما توارثته كتب التاريخ. وفي هذا شبه بمقتل الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، إذ كان من الممكن أن تعرف دوافع قاتله أبي لؤلؤة لو قُدِّر له أن يعيش. وأرجح مع صاحب اليمين واليسار في

(٨٢) المدد/٤١.

(٨٣) قتل وصل مروح الذهب/٤١٧.

الإسلام^(٨٤) أن مقتل علي كان من تخطيط اليمين الذي استعمل الاغتيال وسيلة بارزة في إزاحة الخصوم، فإذا كان قد قتل الأشر ومحمد بن أبي بكر والحسن بن علي (بالسم وغير السم)، وهؤلاء أنصار لعلي وعمّال له، فمن الأولى به أن يخطط ويسعى جهده لقتله وهو المنافس الأكبر والأوحد من هذا (المستوى)، لذا يمكن تصديق القول: إن التخطيط لاغتيال علي بدأ قبل أن يتحرك الجيشان نحو صفين^(٨٥).

وكان ذلك اليمين هو الذي قتل عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي الثاني، عندما جنح نحو اليسار، وبدأت إجراءاته اليسارية تهدد هذا اليمين ومصالحه، إذ بدأ بالحجر على كبار الصحابة وحدد إقامتهم، وكان ينوي تحديد أموالهم وممتلكاتهم ومصادرة ثرواتهم وتوزيعها، ولكن اليمين قتله قبل أن ينفذ ما أراد، وقتل قاتله وطمس الجريمة^(٨٦)، وهذا ما جرى لعلي بالضبط، وبذلك يكون الخوارج أبرياء من دم علي وأيديهم نظيفة من اغتياله، وعبد الرحمن

(٨٤) اليمين واليسار في الإسلام: ١٣٠ - ١٣١.

(٨٥) اليمين واليسار: ١٣٠ - ١٣١.

(٨٦) اليمين واليسار: ٦٣ - ٦٤ - ٧١.

ابن ملجم الذي كان أداة الاغتيال ، لم يكن ذلك الخارجي المرموق المتشبع بأخلاق الخوارج (وليس في أخلاقهم غدر ولا اغتيال) وكان عمر الخوارج قصيراً ، لم تتبلور صفاتهم وترسخ قيمهم وأخلاقهم بعد ، لم يعرف التاريخ شيئاً كافياً عن بطل هذا الاغتيال ، لقد اشتراه اليمين لينفذ به ما أراد ، فيلحق به وبجماعته (الخوارج) تبعة هذه الجريمة فيضرب (عصفورين بحجر واحد) ، ومن المؤكد أن ابن ملجم لو لم يقتل على أيدي آل علي تشفياً وانتقاماً ، لقتل بأيدي مدبري المؤامرة طمساً وتعتيماً ، كما جرى لأبي لؤلؤة قاتل عمر بن الخطاب .

لم أقصد من هذه الإطالة في هذا الموضوع ، توجيه التهمة (تهمة اغتيال علي) إلى أحد بقدر ما أقصد إزاحة هذه التهمة عن الذين حملهم التاريخ وزرها ، وألصقها بهم وحاسبهم عليها ، وهم الخوارج ، فعبد الرحمن بن ملجم لم يكن إلا أداة لتنفيذ الاغتيال ، وقطام لم تكن إلا دافعاً شكلياً أو إعلامياً له ، وإذا كان عبد الرحمن مأجوراً فليس لقطام ، بل للمستفيد الحقيقي من إزاحة علي عن ساحة الأحداث سواء أكان ذلك معاوية — الذي جنى الثمار مباشرة — أم عمرو بن العاص الذي كان ينوي جنيتها والذي ذكرت

بعض الروايات أنه كان صاحب التدبير للتخلص من علي ومعاوية معاً لأنه كان طامعاً بالخلافة^(٨٧) .

والشيء الذي أريد أن أخلص إليه : إن الخوارج بريئون من دم علي وإن كان قتله قد نفذ بيد خارجية ، وهي التهمة الثانية الفاتلة التي وجهت إليهم ، بعد تهمة وقف القتال في صفين واختيار الحكم .. فاللعنة التي لحقت بهم وتابعتهم كانت لعنة الخروج والتمرد على الحكام عبر التاريخ ..

وتأكيداً لما ذكرت سابقاً من أن الخلاف بين عليّ والخوارج لم يكن إيديولوجياً ولا أديبياً — شأن خلافهم مع معاوية — فقد كانوا معجبين بعلي على الرغم من تكفيرهم له ، معجبين به خطيباً وتقياً وعادلاً وشجاعاً ، حتى إنهم كانوا يتسللون قبل النهروان وبعدها إلى مسجد الكوفة وينصتون إليه وهو يؤدّب أصحابه^(٨٨) ويشهدون معه الصلاة ، فإذا سُئلوا عنه قالوا : قاتله الله كافراً ما أفقهه^(٨٩) .

(٨٧) عبقرية الإمام علي : ٢٣٣ .

(٨٨) علي وبنوه طه حسين / ١١٣ .

(٨٩) علي بن أبي طالب — عبد المقصود ٥ / ٢١١ .

ولاشك أن علياً كان معجباً بالخوارج أيضاً شجاعةً وزهداً، وإن كان يأخذ عليهم تعنتهم وسطحيتهم وغرورهم، وقد توقع لهم مستقبلاً مظلماً على أيدي حكام يسومونهم الظلم والعداب، قال يخاطبهم^(٩٠): «أما أنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً وسيافاً قاطعاً، وأثرةً يتخذها الظالمون فيكم سنة».

كان تكفير الخوارج لعلي موقفاً واحداً وحادثة واحدة وتهمة واحدة (قبيل التحكيم) أما قبل ذلك وبعده فلا مأخذ لهم عليه، بل كانوا متسعدين لتجاوز قبوله التحكيم، والرجوع عن تكفيره والعودة معه، لو قبل ما ساوموه عليه من اعتراف بالخطأ الذي بلغ حد الكفر.. وخلافهم مع عليّ — على عنفه ودمويته — لم يتجاوز شخصه، فلم يكونوا أعداءً لأبنائه ولا لشيعته بل عاشوا معهم في قطر واحد دون أي احتكاك^(٩١)، وقد أسلفنا أن الحسن بن علي امتنع عن قتالهم لما دعاه معاوية إليه قائلاً: «لا أقاتل قوماً أنت أولى بالقتال منهم»^(٩٢).

(٩٠) شرح ابن أبي الحديد ٤٩٨/١.

(٩١) الكامل للمبرد / ٧٥ / وأدب الخوارج / ٣٣ /

(٩٢) الكامل للمبرد / ٧٥.

وتأكيداً لهذا الرأي نذكر موقف عبد الله بن وهب الراسبي ،
أول خليفة خارجي ، من نتيجة التحكيم ورأيه في ذلك قال : (٩٣)

ندمنا على ما كان منا ومن يرد
سوى الحق لا يدرك هواه ويندم
خرجنا على أمر فلم يك بيننا
وبين عليٍّ غير غابٍ مقوم
فجاء عليٌّ بالتسي ليس بعدها
مقالٌ لدي حليم ولا متحلّم

وقد أوضحت كتب التاريخ والأدب أن علياً كان يتحاشى
حربهم (٩٤) وأنه كان يتجه بتفكيره واستعداده للعودة إلى الشام
متجاهلاً أمر الخوارج ، ولكن الحرب معهم سبقت بتأثير بعض
الذين لم يخلصوا له كالأشعث الذي ألح عليه أن يحاربهم قبل العودة
إلى الشام .

كان علي بموقفه هذا (أي بتحاشي حرب الخوارج) يأمل
أن يشربوا إلى رشدهم فقال لقومه : « اتقوا الله وقاتلوا من حاد الله

(٩٣) الإمام علي بن أبي طالب: ٦ / ٣٨ - ٣٩ .

(٩٤) الكامل لابن الأثير ج ٣ / ٣٣٩ وأدب الخوارج / ٣٤ .

ورسوله وحاول أن يطفىء نور الله، قاتلوا الخاطئين الضالين
القاسطين الذين ليسوا بقرّاء القرآن ولا فقهاء في الدين ولا علماء في
التأويل، والله لو وُلّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل،
تيسروا لعدوكم من أهل المغرب» (٩٥)

ومن مواقفه في محاولة تجنب حرب الخوارج، لما طلب منه
جماعة حرب الحرورية أولاً، قال لهم: «بلغني أنكم قلتُم كيت وكيت
وإن غير هؤلاء الخارجين أهمّ إلينا، فدعوا ذكرهم وسيروا إلى قوم
يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكاً، ويتخذون عباد الله
خولاً» (٩٦) ووضح من كلام علي في النصين:

- ١ — أنه كان يتحاشى حرب الخوارج.
- ٢ — أنه كان ينفي عنهم مجموعة من الصفات الذميمة التي
وصف بها أهل الشام؛ والخوارج بدورهم كانوا ينظرون
إلى علي نظرة مبينة تماماً لنظرتهم إلى معاوية وأسلوبه في
الحكم، فهو ليس موضوع مقايسة أو مفاضلة مع
علي، وهو مرفوض أصلاً بحكم النصوص القرآنية (آية

(٩٥) الكامل في التاريخ ٣/٣٣٩.

(٩٦) الكامل لابن الأثير ٣/٣٤١.

الفئة الباغية) التي تسقطه من حسابات الخوارج ، وهم يطلقون عليه وعلى آله ألقبى الشتائم وأقذع السباب .

(٦)

بعد عليّ

لم يعرف الخوارج أي نوع من أنواع الاستقرار في حياتهم بعد عليّ، فهم في تكوينهم النفسي والأخلاقي والديني، يرفضون النظام الجديد، ولا يرون غير الحرب سبيلاً، فإذا كانوا قد خرجوا على عليّ وكفّروه لموقف واحد اعتقدوا بأنه أخطأ فيه، فهل يُعقل أن يقبلوا نظاماً كل ما فيه يناقض قناعاتهم؟ فخليفته لا تجوز له الخلافة لما سبق أن ذكرنا، وهو رأس الفئة الباغية التي يجب أن تُحارب حتى تفيء إلى أمر الله، ثم إنه قد حوّل الخلافة إلى ملكية وراثية، وأطلق يده في بيت مال المسلمين بيدد مال الله في غير أوجه الحق التي أمر بها الله وسنّها الإسلام..

فأوجه الخلاف ودوافع الخروج على النظام الجديد كثيرة كثيرة لدى الخوارج، فلو سكت عنهم الأمويون اتقاءً لشرهم، فهم لا يسكتون وذلك لما ذكرنا من نقاط الخلاف وأنه خلاف إيديولوجي عميق، ففي صميم عقيدتهم أنه لا يجوز القعود عن حرب الإمام الجائر ولا تجوز موادة أهل الحرب، إلا من أقر بالجزية^(٩٧).. لذلك فقد شهر الخوارج سيوفهم في وجه الأمويين، ووطنوا أنفسهم على الموت في سبيل الحق الذي اعتقدوه، وكان من حسن حظ الأمويين أن عبد الله بن الزبير حارب الخوارج طيلة حكمه في الحجاز، وكف سيوفهم عنهم تسع سنوات هي مدة استقلاله في الحجاز، واستعمل في حربه معهم أعظم قادة الجيوش من آل المهلب، وألجأهم إلى أطراف الدولة ومناطقها الجبلية النائية، ككرمان والري وجرجان وغيرها..

وكان أول أمرهم مع ابن الزبير أن أعانوه على الأمويين لحماية الكعبة، فراراً من ظلم زياد وللقوف على رأيه «رأي ابن الزبير»، فإن كان على رأيهم جاهدوا معه، وإلا دافعوا عن البيت، فتظاهر

(٩٧) ابن الأثير ٣/٣٢٧.

أنه على رأيهم فقاتلوا معه أهل الشام، ثم ناظروه فلم يظفروا منه بما رغبوا ففترقوا عنه^(٩٨) ..

ولمّا تفرق الخوارج عن ابن الزبير وناصره العداة، أعدّ لهم الجيوش وعلى رأسها قادة مشهورون، كان من أولهم المهلب بن أبي صفرة نفسه، فحارمهم حرباً مريرة طويلة^(٩٩) أخبارها طويلة (تجدها في كتب التاريخ وبخاصة الكامل لابن الأثير).

ومن القادة الذين استعملهم مصعب بن الزبير في حرب الخوارج، وكان له أثر بالغ في السياسة والحرب، عمر بن عبد الله بن معمر، إذ ولّاه فارس وأوكل إليه حرب الخوارج، وعندما علم قطري ابن الفجاءة، زعيم الخوارج وفارسهم وشاعرهم بتولية هذا القائد حسب له أكبر حساب، وحذر قومه منه وأن حربه تختلف عن حرب المهلب، فقال لهم: «قد جاءكم شجاع بطل يقاتل لدينه ومملكه بطبيعة لم أر مثلها لأحد، ما حضر حرباً إلا كان أول فارس يقتل قرنه»^(١٠٠).

(٩٨) ابن الأثير ٤/١٦٥.

(٩٩) ابن الأثير ٤/١٩٥.

(١٠٠) ابن الأثير ٤/٢٨٢.

وليس من شأن هذه الدراسة الإطالة في شرح وقائع التاريخ إلا بمقدار ما تضيء هذه الوقائع النقاط التي يسعى بحثنا لإضاءتها .

لما قضي على ابن الزبير ، ودخل العراق قادة الأمويين المعروفون ، كالحجاج بن يوسف الثقفي ، وخالد بن عبد الله القسري وغيرهما ممن ثبتوا أركان الدولة بالبطش والإرهاب ، وإخماد المعارضات ، مهما كان نوعها وبأي أسلوب ممكن ، بدءاً من ثورة ابن الزبير في الحجاز والحسين بن علي في العراق ، وانتهاءً بشوريات الخوارج ، ومن المفيد والمهم الإشارة في هذا المكان إلى أن عبد الله بن الزبير - قبل أن يلقي ذلك المصير المشؤوم - قد خدم الأمويين خدمة جليلة فيما يتعلق بالخوارج فقد كانت جيوشه أنهكتهم وقتت عزائمهم وكسرت شوكتهم .

أقول : لما قضي على ابن الزبير ورث عنه ولاية بني أمية أولئك القادة الذين كان يستعملهم في حرب الخوارج ، فحاربوهم بسيوف آل المهلب ، وبذلك تكون هذه الأسرة التي أنجبت نخبة من المحاربين قد أجزت سيوفها للحاكم القائم دون النظر إلى هويته .

أما الخوارج فقد استمرت ثوراتهم تقض مضاجع الدولة الأموية ، وتنتقص من أطرافها طيلة عمر هذه الدولة ، وهو قرن من

الزمن تقريباً ، وقد أسهموا في إضعافها والقضاء عليها ، كما أسهموا في القضاء على دولة الراشدين بقتل آخر خلفائهم .

استعمل معهم الأمويون كل أنواع السياسات بدءاً من المهادنة والموادعة ، وانتهاءً بالغدر والاعتقال ، فقد سار فيهم المغيرة ابن شعبة واليهيم (والي الأمويين) على العراق ، وعبد الله بن عامر سيرةً حسنة ، تشبه سيرة علي فيهم^(١٠١) فلم يهيجاهم إلا إذا أعلنوا العصيان والثورة . وقد كان خروجهم تضحية بالنفس يُقدمون عليها وهم عالمون بنتائجها ، مطمئنون راغبون بها^(١٠٢) .

كما عاملوهم بالملاحقة والسجن وقتل السجناء والأبرياء ، دونما ذنب اقترفوه ، أو خروج أعلنوه ، أو إفساد في الأرض — كما كان يسميه الحاكمون — بل لمجرد الاشتباه بأنهم يدينون بالمذهب الخارجي ، وكان من أشهر حوادث قتل السجناء حادثة مقتل عروة ابن أدية الذي قتل في سجن زياد بطريقة مثيرة ، وكان تقياً شجاعاً فقيهاً ، حتى لقد تجاذبته الفرق الإسلامية الأخرى ، وادعته لصلاحته وحسن سيرته ، قطع زياد يديه ورجليه وسأله بعد ذلك : كيف

(١٠١) الفتنة الكبرى لطفه حسين / ٢٢٨ .

(١٠٢) نفس المرجع (علي وبنوه) ٢٢٩ .

ترى ؟ فأجابه : أفسدت عليّ دنيائي ، وأفسدتُ عليك آخرتك ،
ثم أمر به فقتل وصلب (١٠٣) .

ويبلغ من تهديد الخوارج لدولة بني أمية ، أن بعض قادتهم
استطاعوا أن يدخلوا الكوفة والبصرة ومكة والمدينة ويملكوا على أمرها
ويتغلبوا على ولايتها ، ويقيموا فيها ويسيروا أمورها فتراتٍ من الزمن
تطول أو تقصر تبعاً لما كانت تقتضيه الأحوال .

من ذلك ما أثبتته كتب التاريخ ، وتواترت رواياته ، وهو
دخول القائد الخارجي شبيب بن يزيد الشيباني الكوفة على
الحجاج ، وتحصُّنه منه ومن زوجته غزاة الخارجية بقصر الإمارة ،
حتى لقد ضرب شبيب باب القصر بعمود من حديد فترك فيه
أثراً ، والحجاج محاصر في داخله . وصلت زوجته غزاة ركعتين في
مسجد الكوفة ، قرأت بهما سورتي البقرة وآل عمران — وهو نذر
كانت قد نذرته على نفسها — وقال الشاعر في ذلك :

وفيت الغزاة نذرهما يارب لا تغفر لها

وكتب عمران بن حطان الشاعر الخارجي المشهور إلى

(١٠٣) الكامل للمبرد / ٩١ .

الحجاج شامتاً ومعرضاً — وكان الحجاج قد لَجَّ في طلبه — (١٠٤) :

أسدٌ عليٌّ وفي الحروب نعامة
رُداءٌ تجفل من صفير الصَّافر
هلاً برزت إلي غزالة في الوغى
بل كان قلبك في جناحسي طائر

وكان الحجاج قد أرسل إلى شبيب هذا خمسة قواد قتلهم
واحداً بعد واحد، وفي إحدى حروبه غرق في نهر دجيل (الأهواز)
لادجيل بغداد سنة سبع وسبعين للهجرة^(١٠٥) وقيل: إن صوته
كان كالرعد حتى قال شاعر منهم في صبيحته^(١٠٦)

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدرأ
والريح عاصفة، والموج يلتطم

(١٠٤) البيان والتبيين للمجاهد بن سفيان تحقيق هارون/ ١٢٨/ مروج الذهب للمسعودي

١٣٩/٢ والكامل للمبرد/ ٩٠-٩١ والكامل في التاريخ ٤/٤٠٦.

(١٠٥) البيان والتبيين حاشية/ ١٢٨.

(١٠٦) البيان والتبيين حاشية المحقق/ ١٢٨ وشرح النهج ١/٥٤١-٥٥٧ وشعر

الخوارج: ١٠٩.

وقيل كذلك : إنه لما غرق شق الحجاج بطنه واستخرج قلبه فكان كالحجر إذا ضربت به الأرض نبا عنها^(١٠٧) .

وكان تهديد الخوارج للحكم الأموي على أشده في السنوات الأخيرة من عمره — فقد استطاع أبو حمزة الخارجي (المختار بن عوف الأزدي) احتلال مكة والمدينة وأقام بهما طويلاً وسار في الناس سيرة حسنة ، كما دخل اليمن القائد الخارجي بلخ بن عقبة الأزدي أو (المسعودي) وأقام فيها طويلاً أيضاً ، كان ذلك بالتنسيق مع بعضهما البعض على محورين . وهذان القائدان الخارجيان كانا يدعوان إلى عبد الله بن يحيى الكندي الذي سمي (طالب الحق) وخوطف بأمر المؤمنين ، كان ذلك سنة تسع وعشرين ومئة للهجرة في خلافة مروان بن محمد^(١٠٨) .

وكان أخطر ما هدد الدولة الأموية في سنها الأخيرة خروج الضحاك بن قيس الشيباني ، الذي قيل إن جيشه بلغ مئة وعشرين

(١٠٧) مروج الذهب للمسعودي ١٤٠/٢ وشرح ابن أبي الحديد للنهج ٥٥٧/١ وابن الأثير ٤٣٣/٤ .

(١٠٨) مروج الذهب ٢٤٢/٣ والكامل في التاريخ ٣٥١/٥ — ٣٨٢ وشرح النهج ٦٠٦/١ .

ألفاً ، واحتل العراق وواسط ونزل دار الحجاج ، وبايعه عامل العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن هشام بن عبد الملك ، وهما من أعيان بني أمية وصلّيا خلفه ، فقال في ذلك أحد شعراء الخوارج وهو شبيل بن عذرة الضبعي : (١٠٩)

ألم تر أن الله أظهر دينه

وصلت قريش خلف بكر بن وائل

وقد وُصف الضحّاك هذا بأنه كان من علماء الخوارج (١١٠) : ومن مشاهير زعماء الخوارج الذين لعبوا أدواراً متفاوتة الأهمية في مناهضة الدولة الأموية بين حين وحين ، كما أسهموا في ترسيخ أقدام العقيدة الخارجية وقيم الخوارج وأخلاقهم : قطري بن الفجاءة ، ونافع بن الأزرق ، ومرداس بن أدية ، ونجدة بن عامر وغيرهم ممن سنمّر على ذكر أكثرهم بين أسماء شعراء وخطباء الخوارج ..

وقبل الخروج من هذه اللوحة التاريخية أريد أن أذكر

(١٠٩) شعر الخوارج / ٧٤ .

(١١٠) البيان والتبيين / ٣٤٢ وابن الأثير ٣٣٤/٥ - ٣٣٧ والعصية القلبية للنص

٣٨٨/ - ٣٩٤ والدولة العربية وسقوطها (وهاورن) / ٣٠٩ - ٣١١ .

موقفهم من الخليفة الأموي الصالح عمر بن عبد العزيز ، وموقفه منهم ، كانت العلاقة علاقة أمل بالتقارب وكانت في بدايتها علاقة إعجاب متبادل ، لكنهم ناظروه مناظرة طويلة وهامة أوردها ابن الأثير (١١١) ، مما قالوا له في آخرها : « بيننا وبينك أمر واحد ، خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، فإن كنت على هدى وهم على الضلالة ، فالعنهم وتبرأ منهم » فقال عمر : « لقد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ، ولكنكم طلبتم الآخرة فأخطأتم طريقها » ..

وكان طبيعياً ألا يلتقي الطرفان في كل شيء ، وافترقوا عنه ولكن كلاً منهما اعترف للآخر ببعض الفضائل ، وكان رأي عمر ابن عبد العزيز فيهم مشبهاً لرأي علي من قبل ، وهو أنهم : طلبوا الحق فأخطأوه ..

ولم يختلف شأنهم في العصر العباسي عما كان عليه في العصر الأموي ، كانوا أعداء حقيقيين لبني العباس ، وكانت ثوراتهم عليهم متتابعة وخروجهم مستمراً ، لم تفتر لهم عزيمة ، ولم تلن لهم قناة ..

(١١١) الكامل في التاريخ ٤٦/٥ - ٤٧ - ٤٨ والبيان والتبيين / ١٩٠ - ١٩١ .

فإضافة إلى ما ذكرنا من ثوراتهم على بني أمية ، بزعامة قادتهم الكبار كنافع بن الأزرق ، وقطري بن الفجاءة ، وأبي حمزة ، والضحاك بن قيس الكندي وغيرهم ، ممن أنهكوا الدولة الأموية ، وشغلوا جيوشها طيلة قرن من الزمن .. إضافة إلى ذلك فقد ثاروا على العباسيين وأقضوا مضاجعهم في تاريخ طويل فصلته وشرحت أجزاءه كتب التاريخ ..

ثار خوارج عمان على السَّقاح بزعامة الجُنْدِي (من الإباضية) ^(١١٢) وثاروا على المنصور في الجزيرة (جزيرة الشام) بزعامة مُلَبَّد بن حرملة الشيباني سنة ١٣٧ هـ وقيل إن الجيش الذي هزمهم به بلغ ثمانمائة ألف ^(١١٣) .

وثار الإباضيون والصفريون في تونس وما حولها ، حوالي خمس عشرة سنة ^(١١٤) وخرجوا على المهدي بخراسان بزعامة يوسف بن ابراهيم (البرم) ^(١١٥) وخرجوا على الرشيد بجزيرة الشام ، وكانت ثورة الوليد ابن طريف سنة ١٧٨ هـ من أعظم ثوراتهم ، ولما قتل الوليد رثته

(١١٢) ابن الأثير ١٨٣/٥ .

(١١٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين / ٣٣٨ .

(١١٤) نفس المصدر والصفحة .

(١١٥) ضحى الإسلام / ٣٣٩ .

أخته (الفارعة) بقصائد أروع من قصائد الخنساء بأخوبها من ذلك قولها: (١١٦)

أيا شجر الخابور مالك موقباً
كأنك لم تجزع على ابن طريف
فنى لا يحبُّ الزاد إلا من التقى
ولا المال إلا من قنى وسيوف

أما انتقال المذهب الخارجي إلى مصر وشمال أفريقيا فكان في العهد الأموي الأخير في أكثر الروايات، وكان هرباً من الظلم والاضطهاد اللذين لحقا بهم من بني أمية وولاتهم (١١٧).

وقد انتقل إلى هناك المعتدلون منهم (الإباضيون والصفريون) وقد تم ذلك الانتقال على أيدي دعاة مهرة، مثل عكرمة (مولى ابن عباس) وسلمة بن سعد (١١٨) الأول عن الصفريين، والثاني عن الإباضيين، وكان ذلك أوائل القرن الهجري

(١١٦) ضحى الإسلام / ٣٣٩ والبيان والتبوير ٣٤٢/١.

(١١٧) ابن الأثير ٢١٣/٥ والمغرب الإسلامي لقنال موسى / ٢٤٦ والإباضية في موكب التاريخ ٢١/٢.

(١١٨) ورد اسمه مسلمة بن سعيد في كتاب. المغرب الإسلامي لقنال موسى.

الثاني وكانت حركتهم في بدايتها عربية قمة وقاعدة، وسكنوا في جبل نفوسة وورقلة، ثم انضم إليهم البربر ولاقت مبادئهم رواجاً لامثيل له في أوساطهم، وذلك أن عمال بني أمية أساءوا معاملتهم، فوجدوا عند البربر مرتعاً خصباً لآرائهم^(١١٩).

على أن وضعهم في شمالي إفريقيا، كان مختلفاً كل الاختلاف عما كان عليه في المشرق، إذ استطاعوا بعد ثورات متعددة ومستفيضة الأخبار في كتب التاريخ، ضد الأمويين والعباسيين من بعدهم^(١٢٠) أن يعرفوا أشكالاً من الاستقرار والازدهار وتشكيل الدول، مما كان في المشرق حلماً مستحيل التحقيق. فقد أسسوا الدولة الرستمية (الإباضية) في تاهرت أو تيهرت كما ورد اسمها في بعض الكتب، تأسست سنة ١٦٠ هـ، وقال عنها مؤلف كتاب الجزائر: أحمد توفيق المدني^(١٢١) إنها أول دولة إسلامية وطنية أسست في الجزائر وهي بربرية، بسطت سلطانها العادل على كل الجزائر عدا ناحية الزاب الأغلبية، وناحية

(١١٩) الدولة العربية وهاوزن / ٢٧٤ - ٢٧٥ والمغرب الإسلامي / ٢٠١ - ٢٤٦

والإباضية في موكب التاريخ ج ٢ / ٢٦ - ٢٧.

(١٢٠) ابن الأثير ٥ / ١٤٠ - ١٤٤.

(١٢١) كتاب الجزائر / ٢٣ - ٢٤.

تلمسان الإدريسية ، وكان مذهب البربر بعامة هو الإباضي ، كما قال المؤلف نفسه : إن تيهرت أصبحت أعظم مدن المغرب مدنيّةً وعمراناً ، وأسس أئمتها الدولة على التقوى ونشر الرفاهية ، فعبدت الطرق ، ووسعت نطاق التجارة وأقبل المسلمون البربر على خدمة الأرض ، فأصبحت مملكة تيهرت حديقة غناء^(١٢٢) .

وقال أيضاً : إن الدولة الرستميّة أسست على سنة الجمهورية الإسلامية ، أيام الخلفاء الراشدين ، رئيسها أمير المؤمنين يُنتخب انتخاباً حرّاً ، وهو يستشير كبار (الشراة) أي عظماء المذهب وعلماءه ، وقد استمرت هذه الدولة من سنة ١٦٠ هـ إلى سنة ٢٩٦ هـ وتولى أمرها أئمة عادلون أولهم عبد الرحمن بن رستم وآخرهم اليقظان^(١٢٣) ، كما وصفها المؤلف بالازدهار الفكري والاقتصادي والأدبي^(١٢٤) ومن المفيد في هذا المكان أن أسجل هاتين الملاحظتين :

(١٢٢) نفس المرجع السابق / ٢٣ - ٢٤ والإباضية في موكب التصريح
١٣٧/١ - ١٣٨ .

(١٢٣) نفس المرجع / ٢٤

(١٢٤) نفس المرجع / ٧٦ - ٧٧ .

الملاحظة الأولى :

إن خوارج المغرب — باستعمالهم الدعاة والمبشرين — يختلفون اختلافاً جوهرياً عن خوارج المشرق، الذين اعتمدوا أسلوب المجاهرة والمواجهة والسيف في تحديهم لخصومهم، ويدخل ذلك في صميم ما بين الفريقين من تباين في المواقف والعقائد، فيما يتعلق بالتطرف والاعتدال، فعوارج المغرب — وكما أسلفنا — يعدّون من المعتدلين فهم الإباضيون والصفريون، الذين يدعون لرأيهم بالدعاة والمبشرين، وربما بشيء من السرية والمرونة، ومنهم القعدة الذين لا يرون المواجهة المسلحة هي أفضل الطرق لتحقيق الأهداف،.. لذلك فقد أسس هؤلاء الدول، وذاقوا طعم الاستقرار، وأسهموا في صنع الحضارات .

الملاحظة الثانية

الإشارة إلى أن مؤلف كتاب (الإباضة في موكب التاريخ) — علي يحيى معمر — يصرّ ويقدم ما وسعه من أدلة على أن يخرج الإباضيين من حظيرة الخوارج، ويهتم أشد الاهتمام بتأييد هذا الرأي، ويلح على تأكيد أن الإباضيين ليسوا كالأزقة والنجيدات

وغيرهم شعبة من شعب الخوارج الذين خرجوا على علي في صفين ،
وإنما هم فرقة إسلامية قديمة النشأة ، تتمسك بصفاء الإسلام
ونقاؤه ، ويبنى كتابه الضخم السالف الذكر على هذا الأساس .

ولكن ذلك المؤلف عندما يشير في لمحة تاريخية إلى صفين
ويوم الخروج ، يقف إلى جانب الخوارج في موقفهم من علي ، ويجد لهم
المسوِّغات ، ويشاركهم رأيهم الذي واجهوا به علياً ، وهو أنه (أي علي)
قد فرط بحقه ، إذ قبل المساواة عليه ، وتحكيم الرجال فيه ، وهذا هو
تماماً رأي عامة الخوارج قبل أن ينقسموا إلى فرق ... (١٢٥)
وأخلص إلى القول : إن الخوارج — بعد علي — وبخاصة في الفترة
التي تلت غيابه ، أصبحوا قوماً غرباء يعيشون في زمانٍ غير زمانهم ،
ملاحقين مضطهدين ، وقد كان هدفهم الوحيد وشغلهم
الشاغل ، إحقاق الحق ، وإقامة نظام إسلامي شرعي ، يقوم على
الأسس التي اعتمدها الإسلام الأول في إقامة الدولة ، واختيار
الخليفة ، واعتماد الشورى وسيلةً في كل ذلك .

وأيّن هم مما يحاولون ؟ إنهم يحاولون قسر الأشياء وتحميلها
مالا تستطيع حمله ، فقد حلّت القيم المادية محل كل القيم

(١٢٥) راجع (الإباضية في موكب التاريخ) في مواضع كثيرة ..

الأخرى، وسادت أنظمة الحكم الدكتاتورية والقمع والإرهاب
وشراء الضمائر والأعوان بأموال المسلمين، وباختصار فقد انتصر
اليمن على اليسار في الإسلام، فأين موقع الخوارج — وهم يسار
الإسلام المتطرف — من هذه الظروف الجديدة؟ أين ذلك مما
يريدونه من تطبيق حرفية النصوص الإسلامية، والسير على أسنى
المبادئ الأخلاقية؟ كانوا يسمعون... دون شك... وراء
المستحيل...

(٧)

صفات الخوارج

لقد اعترف أعداء الخوارج لهم بمجموعة من الصفات تميزهم عن غيرهم — وعندما نقول: أعداء الخوارج، فإننا نعني كل الذين كتبوا عنهم، فليس للخوارج أصدقاء — هذه الصفات التي ذكرتها كتب التاريخ للخوارج تحملهم في المحل الأول بين الفئات الإسلامية التي كان لهم بها صلة من أي نوع كانت تلك الصلة، فهم يقفون على قمة الهرم الإسلامي تحلياً بجملة من الصفات الفذة التي هي أمهات الفضائل العربية والإسلامية، كالصدق والشجاعة والوفاء والتقوى والصراحة والتضحية والفداء،

وغيرها من الصفات التي فخر بها العربي وتوارثها الآباء عن الأجداد .

إن هذه الأخلاق التي تغنى بها العربي ، واعتزَّ بها ، واعتبرها إرثاً خالداً ، ليست مطلقة عند الخوارج ، أو بمعنى آخر ، إنها مرتبطة بالعقيدة الخارجية ، مقيدة بها ، تمشي في ركبها فالكرم والشجاعة والنجدة والشهامة ، وغيرها من القيم العربية ، ليست شيئاً إن لم تكن موظفة لنصرة المذهب الخارجي .

فليس فيهم ذلك الأمير الكريم ، الذي رفع عماده ، وأوقد ناره ، ورفع صوته بدعوة الضيفان والمعتفين ، فحرق الذبائح وأطعم وسقى ، وأجزل الهبات والأعطيات ، كحاتم الطائي ، ومعن بن زائدة وغيرهما من أجواد العرب ، ممن تناقلت الركبان أخبارهم ، وضرب بهم المثل . إن هذا الكرم — عند الخوارج — نوع من التبذل والتفريط ، والكريم من هذا النوع لا بد أن ينفق من جهده غيره ، ويتصرف بأموال المسلمين تبعاً لرغباته ونزواته ومصالحه ، وسعيماً وراء المجد الفردي والشهرة التي لا تخدم قضية ، ولا تنصر مبدأ .

وليس فيهم ذلك الشجاع الفاتك ، الذي أتقن فنون الرماية والفروسية وبارز الأقران ، مباهاةً وبطراً .

وهم لا يغيثون ملهوفاً ، ولا ينجدون مستنجداً ، ما لم تنطبق عليه شروطهم (الخارجية) ، بل ربما قتلوه إن لم يكن أهلاً للنجدة ، ولا يكون كذلك إن لم يكن مسلماً مؤمناً صحيح الإسلام والإيمان ، أي أن يكون خارجياً .

إن كرمهم وشجاعتهم ونجدتهم وغيرها من الصفات ، هي في خدمة مذهبهم الديني والسياسي ، تتمحور كلها حوله ، فهم شجعان حتى الموت ، لكن في سبيل المبدأ ، وهم كرماء بالغالي والرخيص ، لكن لنصرة مذهبهم الخارجي .. لذا فإنهم ملتزمون التزاماً صارماً : كل شيء من أجل المذهب ، كل شيء من أجل القضية ..

إنهم ينطوون على مجموعة من الصفات الفذة التي لا يحملها إلا أفاذاذ الرجال ، وأعظم ما في الأمر ، أنهم يتحلون بها بشكل جماعي ، ويلزمون بعضهم على حملها والتحلي بها فهم مجموعات متجانسة الأخلاق والصفات كأنهم صبوا في قالب واحد ، أو كأنهم تخرجوا من مدرسة واحدة صارمة النظام ، يقوم عليها أساتذة أولو بأس وشدة ، يلقنون فيها مناهج واحدة ..

ولا أريد أن أحكم على أخلاقهم أو دينهم من خلال

موقفهم ممن عارضوا أو ناصبوا العداء كائناً من كان ، فقد عارضوا علياً ، كما عارضوا كل من عاصروا من خلفاء بني أمية ، وخلفاء بني العباس ، والمتتبع لهذه المعارضة سيجد لها ما يسوغها ..

وإذا كان موقفهم من علي هو البداية ، وهو الذي أثار الجدل حولهم ، وأعطى خصومهم الآخرين أوراقاً يلعبون بها ضدهم ، ويشوهون ملامحهم عبر التاريخ ، فإن علياً كان أرحم بهم وأعرف وقد أكد أنهم طلاب حق أخطأوا الطريق إليه .

كذلك فلسنا مطالبين بتخطئة واحد من خصمين اختصاصاً في أمر ما من الأمور ، ولنا ملزمين بالوقوف إلى جانب فريق من فريقين تنازعا في قضية من القضايا ، فقد يكون الطرفان المتنازعان على خطأ ، وقد يكونان على صواب ، كما هو الأمر في الخلاف بين علي والخوارج ، فنحن أمام خصمين شريفيين ، كل منهما معتقد بصحة وصدق موقفه ، يريد وجه الله في كل ما يقول ويفعل ، لا مساومة ولا مهادنة ولا تراجع من فريق أمام فريق : فلو قبل عليّ مقاتلتهم واعترف بمثل ما اعترفوا به ، لعادوا إليه ، ونصروه على خصمه وحصل على الخلافة ، ولكنه لم يقبل بموقف رآه خطأً مهما كان مردوده عليه .

ولو قبل الخوارج حجة عليّ في العودة إلى صفوفه، دون قيد أو شرط، لانتهى الأمر، ولألغيت الخوارجُ من التاريخ، ولتجنبوا هذه اللعنة الأبدية التي لحقت بهم عبر الأجيال، ولكنهم رفضوا التراجع عن موقف اعتقدوا صحته مهما كان الثمن: خصمان يتقاتلان دون هوادة وكل منهما معجب بالآخر ومفجوع فيه، لكنه يحس أنه مدفوع إلى هذا الموقف بما يحمل من مبادئ يريد لها الظفر.

وعلى الرغم من الغمامة السوداء التي ظللت تاريخ الخوارج، منذ ولادتهم في صفين، وحتى هذه الأيام: إذ كل المؤلفين ضدهم، كلهم يسبّونهم، ويكتبون عنهم كفتة نجسة ملوثة خارجة على سلطان الدولة وأعراف المجتمع، إنهم مذمومون ملعونون بكلّ لسان، فكلّ الذين كتبوا التاريخ وألفوا السير أعداء لهم، سواء أكانوا من السنة أو الشيعة أو المعتزلة، أقول: على الرغم من كل ذلك فإنهم ينتزعون إعجاب كل من يعرفهم ولو من خلال السطور السوداء الظالمة التي كتبت عنهم في تاريخهم المرير.

لذا لا أرى عجباً أن يقف المرء من خصمين متحارين وقفة المعجب بهما معاً، وعلى الرغم مما يبدو من لا منطقيتهم في جدالهم

مع علي في مسألة التحكيم ، فإنهم هكذا اجتهدوا ، وهكذا فهموا ، ثم انسجموا مع ما اجتهدوا وفهموا وحملوا السيف لتأييده ، (وليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه) ، كما قال علي عنهم .

لم يخرجوا طمعاً في دنيا ، ولم يرهبهم عدو قوي ، وكان أروع ما في خروجهم على مخالفيهم ، علمهم أنهم مهزومون أمامهم ، وأنهم يدافعون عن قضية ميثوس من انتصارها على الأرض قال عنهم فلهوزن^(١٢٦) «إنهم يسعون وراء أهداف لا يمكن تحقيقها — لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها — وهو أمر لم يكونوا يجهلونه إذ لم يكونوا يعتقدون بانتصار مبادئهم على الأرض» .

وهذا ما يؤكد أنهم خرجوا ابتغاء مرضاة الله ، لا يبغون غير ذلك ، سمو أنفسهم (الشراة) من قول الله تعالى : ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾^(١٢٧) . كفروا علياً زعيمهم وقائدهم ومثلهم الأعلى في الدنيا والآخرة ، عندما اعتقدوا بخطئه ، خرجوا عليه وكلهم مرارة وأسى على التفريط بالزعيم والقائد ، ولكن

(١٢٦) الخوارج والشيعة / ٦٢ / والطبري ١٨٦/٢ وما يليها . وابن الأثير ٥١٩/٣ .

وشرح النهج وغيره :

(١٢٧) سورة البقرة ٢٠٨ .

يجب ألا تأخذهم في قول الحق والدفاع عنه لومة لائم، مهما كان الثمن باهظاً، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. إن أهم ما عرف به الخوارج:

— الصدق مع النفس، والانسجام التام بين القول والعمل، وبين ما يخفون وما يعلنون. وفي سيرتهم وتاريخهم أمثلة وشواهد كثيرة على ربط القول بالعمل، والشعار بالتطبيق، وقد سمعنا أعداءهم قبل أصدقائهم يجمعون على أنهم يحاولون تقويم المنكر بأيديهم، لا بالسنتهم وأيديهم.

من ذلك ما تواتر في كتب التاريخ عن سجن مرادس بن أدية في سجن عبيد الله بن زياد^(١٢٨)، فقد استطاع ذلك الخارجي السجين — بما له من صفات — أن ينال ثقة السَّجَّان، فكان يأذن له بمغادرة السجن ليلاً ليعود إليه نهاراً، وظل الأمر كذلك إلى أن عزم عبيد الله أن يقتل سجناءه من الخوارج وفيهم — بالطبع — مرادس هذا، وكان لمرادس صديق في خدمة عبيد الله، أوصل إليه الخبر بعزم الأمير على قتله وقتل رفاقه السجناء، فما كان من مرادس إلى أن عاد إلى السجن ليواجه القتل — وهو يعلم — كيلا يؤدي ذلك

(١٢٨) الكامل للمبرد ٨٢.

السجان الذي أحسن إليه، ولما جاء دوره ونودي عليه ليقتل، استوهبه السجان من الأمير فوهبه له. (١٢٩)

... شجاعة القلب واللسان: لقد كانت تلك الشجاعة أساس سلوكهم وطابع حياتهم الخاصة والعامة، عرفوا بها في علاقاتهم الاجتماعية والسياسية وفي حوارهم مع الأصدقاء والأعداء.

لقد كانوا في الحروب مقاتلين أشداء لم تلتن لهم قناة، ولم يذكر التاريخ هارباً واحداً من مقاتليهم، كما لم يذكر أن أسيراً منهم ساوم على رأيه أو حاول أن يبيع قضيته بأي ثمن، أو غير قوله خوفاً أو طمعاً أمام عدوه، أميراً كان أم خليفة أو كائناً من يكون. يستقبل أحدهم الرمح وقد أنفذه فيسعى فيه إلى قاتله وهو يقول: (١٣٠) «وعجلت إليك رب لترضى» (١٣١).

وإن جادلوا أو حاوروا قالوا ما يعتقدون صحته وصدقه دون مواربة أو انحراف أو تزييف لا ييغون إلا وجه الحق في ذلك.

خطب زياد بن أبيه في البصرة والياً عليها من قبل معاوية

(١٢٩) الكامل للمبرد ٨٢، وشرح النهج ٥٩٥/١ وابن الأثير ٥١٩/٣.

(١٣٠) الكامل للمبرد ٥٧، وشرح النهج ٦٠١/١.

(١٣١) سورة طه: ٨٤.

خطبته المشهورة، فقام إليه الخارجي المشهور مرداس بن أدية
وقال: أنبأنا الله بغير ما قلت إذ قال: «ألا تزر وازرة وزر أخرى.
وأن ليس للإنسان إلا ما سعى»^(١٣٢) وأنت تزعم أنك تأخذ
الحاضر بالغائب والمقبل بالمدبر والصحيح بالسقيم والمطيع
بالعاصي^(١٣٣)

وجيء برجل منهم إلى عبد الملك لتضرب عنقه، فدخل
على عبد الملك ابن له صغير يبكي لأن المعلم ضربه، فيهمّ عبد
الملك بالمعلم فيقول الخارجي: دعوه يبك فإنه أفتح لجرمه، وأصح
لبصره، وأذهب لصوته، وأدعى لعبته إذا دعيت يوم القيامة،
فيدهش عبد الملك ويقول له: ويحك! أما يشغلك ما أنت فيه عن
هذا؟ ويجيب الخارجي: ما ينبغي لمسلم أن يشغله عن قول الحق
شيء.^(١٣٤)

وقال الحجاج لرجل من الخوارج: أجمعت القرآن؟ قال:
أمتزقاً كان فأجمعه؟ قال: أتقرؤه ظاهراً؟ قال: بل أقرؤه وأنا أنظر
إليه، قال: ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: لعنه الله

(١٣٢) سورة النجم: ٣٨ - ٣٩.

(١٣٣) الكامل ٥٢ وشرح النهج ٦٠٢/١ والبيان والتميز للجاحظ / ٦٠ / .

(١٣٤) شرح النهج ٥٩٤/١ والبيان والتميز: ٢٥٩/٢.

ولعنك معه ، قال : فإنك مقتول فكيف تلقى الله؟ قال : ألقى الله بعملتي وتلقاه أنت بدمي (١٣٥) .

ومن أمثلة الحوار المكتوب ما دار بين الحجاج وبين قطري بن الفجاءة . كتب الحجاج لقطري : سلام عليك ، أما بعد فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية ، وقد علمت حيث تجرثمت ذاك أنك عاصي لله ولولاة أمره ، غير أنك أعرابي جلف أمي تستطعم الكسرة ، وتستشفي بالتمرة ، والأمور عليك حسرة ، خرجت لتنال شبة فلاحق بك طعام صلوا بمثل ما صليت به من العيش ، فهم يهزون الرماح . ويستشعون الرياح على خوف وجهيد من أمورهم . وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته ، ثم أهلكهم الله بترحتين ، والسلام (١٣٦) .

فأجابه قطري : من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف . سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حریم الله ، ويرهبون نقمه ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه ، وأطلع به أهل السفال ، وهدى به من الضلال ، ونصر به عند استخفافك بحقه .

(١٣٥) البيان والتبيين ١٤٨ — ١٤٩ .

(١٣٦) البيان والتبيين ٣١٠/٢ .

كتبت إليّ تذكر أني أعرابي جلفٌ أميُّ أستطعم الكسرة
واستشفى بالتمر. ولعمري يا بن أم الحجاج إنك لمُتَيِّةٌ في جبلتكَ
مُطَّلَخِمٌ^(١٣٧) في طريقتك وإي في وثيقتك لا تعرف الله ولا تجزع من
خطيئتك، يثست واستيأست من ربك، فالشيطان قرينك
لا تجاذبه وثاقلك ولا تنازعه خناقك، فالحمد لله الذي لو شاء لأبرز
لي صفحتك وأوضح لي صلعتك، فوالذي نفس قطري بيده
لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال، مع أني أرجو أن
يدحض الله حججتك، وأن يمنحني مهججتك^(١٣٨).

هذه لمحات خاطفة وشواهد عابرة على صدقهم وجراتهم
وصراحتهم في قول الحق، ذكرها التاريخ وتناقلتها أقلام الرواة
وألستهم.

— الورع والزهد والتعبد: لقد عرف عن الخوارج من الزهد
وإدمان العبادة وتقديمها خالصة لوجه الله، ما لم يعرف عن فئة من
فئات الإسلام الأخرى، فإذا وجد بين بقية الفرق متعبدون
متزهدون، فإنما هم أفراد، لا يشكلون إلا نسبة ضئيلة، وإذا أمعنا

(١٣٧) المطلخم: المظلم والتكبر.

(١٣٨) البيان والتبيين ٣١١/٢.

البحث وجدنا أن سلوكهم هذا يفسر بدوافع اجتماعية أو سياسية أو تجارب فردية شخصية، رمت بهم في أحضان التزهد والتعبد.

وزهد الخوارج ليس كزهد المتصوفين الذين ظهروا فيما بعد والذين نفضوا أيديهم من الدنيا وهربوا من مسؤولياتها، وسلكوا الطرق الصوفية، بل هو زهد مقترن بالعمل لتقوم الاعوجاج وإصلاح الفساد باليد واللسان، أو هو بتعبير آخر زهد إيجابي لا يعني التخلي عن الواجبات الدنيوية والمساهمة في صنع الحياة.

الزهد والشجاعة كانا متلازمين في حياة الخوارج، وإذا كانت الحرب قد فرضت عليهم فإنهم قد فرضوا على أنفسهم التعبد والتزهد.

وصفهم أعداؤهم وأصدقائهم فكانت الصورة واحدة، ومما جاء في وصفهم على السنة شعرائهم وخطبائهم قول عمرو بن الحصين العنبري يصف زهدهم: (١٣٩)

متأوهون كأنَّ جمرَ غضاً للموت بين ضلوعهم يسري
فهم كأنَّ جرى بهم مَرَضٌ أو مسَّهم طرفٌ من السَّحَرِ

(١٣٩) شرح نهج البلاغة ١/٦٦١.

لا ليلهم ليل فيلبسهم فيه غواشي والنوم بالسكر

ومما جاء في خطبة أبي حمزة الخارجي يصف قومه: (١٤٠)
أنضاء عبادة وأطلاح سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية
أصلاهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة
بكى شوقاً إليها، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير
جهنم بين أذنيه. موصول كلالهم بكالهم: كلال الليل بكلال
النهار، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم،
واستقلوا ذلك في جنب الله، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت،
والرماح قد أشرعت، والسيوف قد انقضت، ورعدت الكتية
بصواعق الموت وبرقت، استخفوا بوعيد الكتية لوعيد الله، ومضى
الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت
بالدماء محاسن وجهه .. الخ .. الخ.

وزهد الخوارج لم يكن مقترناً بالضعف والخور اللذين
يرافقان عادة العباد أو المتصوفين الذين لا حول لهم ولا قوة، إلا
ما يجري على ألسنتهم من كلمات الخشوع والدعاء والاستسلام،
بل كان زهداً متصلاً بشجاعة القلب واللسان واليد، . أمر عبيد الله

(١٤٠) البيان والتبيين ١٢٢/٢ - ١٢٥ .

ابن زياد بعروة بن أديّة، أحد الخوارج المعروفين، فقطعت يداه ورجلاه، ثم قال له: كيف ترى؟ قال: أفسدت عليّ دنيائي وأفسدت عليك آخرتك، وبعد أن صُلب وقتل دعا عبيد الله مولاة فسأله عنه فقال: أأطنب أم أختصر؟ قال: بل اختصر فقال: ما أئيتّه بطعامٍ بنهار قط، ولا فرشت فراشاً بليل قط^(١٤١).

وواضح من هذه القصة ما كان عليه الرجل من تقى وورع وشجاعة في وقت معاً. وليس عروة هذا فرداً في هذه الصفات، فالخوارج بجملتهم موصوفون بالورع والزهد والشجاعة، روي عن مرداس بن أديّة — أخي عروة السالف الذكر — أنه مرّ بأعرابي يهناً بعيراً^(١٤٢) له فهرج^(١٤٣) البعير فسقط مرداس مغشياً عليه، فظن الأعرابي أنه قد صرع، فقرأ في أذنه، فلما أفاق قال الأعرابي: قرأت في أذنك، فقال له مرداس: ليس بي ما خفته علي، ولكني رأيت بعيرك هرج من القطران، فذكرت به قطران جهنم، فأصابني ما رأيت، فقال: لا جرم، والله لا فارقتك أبداً!^(١٤٤)

(١٤١) الكامل للمبرد ٢٣ — و ٩١.

(١٤٢) يهناً بعيراً: يطلّيه بالهنا وهو القطران.

(١٤٣) هرج: تعب وتحير.

(١٤٤) الكامل للمبرد ٨٢ — ٨٣ والكامل في التاريخ ٥١٨/٣.

— الشجاعة في الحروب .. ولا أرى أن أفيض في هذه الصفة فكل زوايا هذه الدراسة ينطق بذكر شجاعة الخوارج، ويردد أخبار بطولتهم ويورد أمثلة من التضحية والفداء ملأت تاريخهم.

— **الوضوح في الأقوال والأعمال ...** والبعد عن التعمق في أي شيء، من دين أو فلسفة أو عقيدة سياسية، وهم أبعد ما يكونون عن المذاهب الباطنية، أو اتخاذ التقية أسلوباً في السلوك الاجتماعي أو السياسي، لذا فإنهم كانوا يبدون جفاةً غلاظاً في تعاملهم، كما أنهم نبذوا المداراة واستعمال الدسائس لتحقيق أغراضهم، ومن ذلك عدم اعتمادهم على الدعاة السريين في نشر عقيدتهم، مخالفين بذلك كل أصحاب العقائد الدينية والسياسية، من باطنيين وغير باطنيين في إيصال آرائهم إلى الناس.

— وربما كانت السطحية نوعاً من الوضوح الذي مارسوه، فهم سطحيون حرفيون إلى حد يبلغ درجة السذاجة والسخف في كثير من الأحيان، وقد ذكرت في مكان آخر من هذه الدراسة أن ما عرف عن الخوارج من بساطة وحرفية وسذاجة في تفسير النصوص وفهم المواقف، سبب لهم الكثير من المتاعب التي بلغت حد الخطورة على كامل وضعهم، من ذلك ما رواه المبرد في

الكامل^(١٤٥)، أن المهلب بن أبي صفرة، دسَّ إلى قطري بن الفجاءة— أحد خلفاء الخوارج— رجلاً وقال له: إذا رأيت قطرياً فاسجد له، فإن نهاك فقل: إنما سجدتُ لك. ففعل الرجل ونهاه قطري وقال له: إنما السجودُ لله، فقال الرجل: ما سجدت إلا لك، فقال رجل من الخوارج: قد عبدك من دون الله، وتلا: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب^(١٤٦) جهنم أنتم لها واردون^(١٤٧)﴾. فقال قطري: إن النصراني عبدوا عيسى بن مريم فما ضرَّ ذلك عيسى شيئاً، فقام رجل من الخوارج إلى الرجل الذي سجد لقطري فقتله، وكان ذلك الرجل نصرانياً، فأنكر ذلك عليه وقال: أقتلت ذمياً؟! واختلفت الكلمة ووقع الشقاق..

— واتصف الخوارج بفصاحة اللسان والإعجاز البلاغي وقوة الحججة والقدرة على الإقناع، وهذه سمات تحلى بها عامتهم، فقد سجلوا في محاوراتهم ومجادلاتهم ومكاتباتهم جملةً من آيات البلاغة، سحر بها العدو قبل الصديق، مثال ذلك ما جاء في كتاب

(١٤٥) الكامل ١٩٣.

(١٤٦) حصب: بمعنى حطب.

(١٤٧) سورة الأنبياء ٩٨.

الكامل للمبرد^(١٤٨) أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم،
 فبحثه، فرأى منه ما شاء فهماً وعلماً، فرغب فيه، فاستدعاه إلى
 الرجوع عن مذهبه، فرآه مستبصراً محققاً، فزاده في الاستدعاء،
 فقال له: لتغتك الأولى عن الثانية، وقد قلت فسمعت، فاسمع
 أقل، قال له: قل، فجعل يبسط من قول الخوارج ويزين له
 مذهبهم، بلسان طلق وألفاظ بينة ومعانٍ قريبة، فقال عبد الملك:
 لقد كاد يوقع في خاطري أن اللجنة خلقت لهم، وأنا أولى بالجهاد
 منهم.

وعندما لجَّ عبيد الله بن زياد في حبس الخوارج وقتلهم،
 كُلم في بعضهم فأبى وقال: لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من
 النار إلى اليراع^(١٤٩، ١٥٠).

— وهم مثاليون مغرقون في مثاليتهم إلى حد الطوباوية، يسعون
 وراء أهداف غير ممكنة التحقيق على أرض الواقع الاجتماعي
 والسياسي والتاريخي والنفسي للوسط الذي يعيشون فيه، وهم في

(١٤٨) الكامل ٦٧.

(١٤٩) الكامل ٨٢.

(١٥٠) اليراع: القصب الفارسي.

سعيهم لتحقيق أهدافهم لم يدرسوا الظروف المحيطة بهم ، ولكنهم وضعوا مثلهم أمام أعينهم واتجهوا نحوها ، دون دراسة أو دراية ، قبلوا غرباء في بيئتهم .

— لم تكن قرابة النسب هي القرابة المقدمة عندهم ، بل على العكس تماماً ، لقد كان اتناؤهم الخارجي أوثق أنواع الارتباط عندهم ، وإن نظرة فاحصة في تركيبهم القبلي والطبقي تؤكد ذلك السبق الذي أحرزوه في إحلال العقيدة محل القبيلة .

وجملة القول : إن الخوارج يتحلون بمجموعة من الفضائل التي يندر أن تتحلى بها جماعة ، وقد يلفت النظر جماعية الترية عندهم ، مخالفين بذلك ما عرف عند العرب من فردية ، واعتداد بالشخصية ، وعدم الانصهار في الجماعة .

وما دام الصدق والصراحة والشجاعة هي أمهات الفضائل التي اتصف بها الخوارج ، فهم أبعد ما يكون عن الخداع والمكر والمواربة حتى مع أعدائهم ، وهذا ناتج — بطبيعة الحال — عما عرف عنهم من عفوية وسذاجة وتسرع في إعطاء الرأي ، وبخاصة في أول أمرهم ، إذا كان الطابع البدوي ، وسرعة الانفعال ، واستعجال اتخاذ القرار ، سمات مميزة لهم ، ويفسر موقفهم من علي

برمته ، على أساس سرعة الانفعال ، والتسرع في إعطاء الرأي واتخاذ القرار ، لكن لا مكان لسوء النية أو فساد الطوية ، وهما لا شك فيه أنهم تخلوا عن كثير من هذه الصفات ، بعد نصجهم وخبرتهم وتمرسهم في الحروب .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد بقيت نظرتهم قاصرة في كثير من أمور الدنيا والدين ! فهم لا يحسنون التعامل مع مخالفينهم ، كثيرو الخلاف على الرؤساء ، بعيدون عن التطور الديني والعلمي والاجتماعي ، يمثلون في تدينهم بساطة الإسلام الأولى ، وفطرته قبل دخول شوائب الأمم الأخرى عليه ، يؤمنون بقلوبهم لا بعقولهم .

ويخطر لسائل أن يسأل : مادامت هذه هي أخلاق الخوارج ، ومنطلقاتهم النظرية والعملية ، فكيف مارسوا الاغتيال الفردي وهو غدر أي غدر؟؟

حادثة اغتيال واحدة نسبت إلى الخوارج عبر تاريخهم الطويل كله ، وقد ذكرنا ضعف تلك الرواية ، وأنها واضحة الأفتعال ، مهندسة بشكل ينفي عنها المعقولة والمنطقية ، وبخاصة الرواية القائلة : إن ثلاثة من الخوارج اتفقوا على اغتيال الزعماء الثلاثة : علي ومعاوية وعمرو بن العاص .

أما اغتيال عبد الرحمن بن ملجم لعلي بن أبي طالب ، فقد ذكرنا فيما سبق من هذه الدراسة أن المقصود من تلك العملية ، كان إزاحة علي عن مسرح الأحداث بيد خارجية ، ولو كانت العملية من صنع الخوارج لتكررت ولو مرة واحدة أخرى للتخلص من ألد أعدائهم : كالحجاج والمهلب بن أبي صفرة أو أبناءه الذي أعملوا الفتك بالخوارج دون هوادة ، بل وربما كانت يدهم طالت الخلفاء أنفسهم ، ولكنهم لجؤوا إلى المواجهة دائماً . وسواء أكان ابن ملجم خارجياً أم غير خارجي ، فقد كان فرداً ، وفرداً مأجوراً : إما من قطام ، أو من خصوم علي الحقيقيين في الشام ، ولم يُعرف أن فرداً من الخوارج أو جماعة منهم كانت وراء ذلك الاغتيال ، أو تبنته أو حتى باركته^(١٥١) ، بل على العكس تماماً فقد كان الأشعث بن قيس الكندي (أحد المدسوسين على علي) على علم وصلته بفتكة ابن ملجم ، ولأحب العودة إلى هذا الموضوع الشائك ، وكل ما أبغيه هو أن يغسل التاريخ — تاريخ المستقبل — أيدي الخوارج من دم الاغتيال . وأن يعيد التحقيق في تهمة لم تثبت على من نسبت إليهم إلا بالتقادم .

(١٥١) يرى السعودي في كتاب التنبيه ص ٢٥٧ ، أن كثيراً من الخوارج لا يتولون ابن ملجم ، وذلك لقتله علياً عيلة .

(٨)

نظريتهم السياسية

إذا صحت تسمية (حزب سياسي) على فريق من فرقاء النزاع في صدر الإسلام، فعلى الخوارج تصح، أما غيرهم ممن سُموا أحزاباً، فإن وضعهم لا يعدو أن يكون تجمعاً أسرياً أو قبلياً يطلب الخلافة.

فالأُمويون والعلويون والزبيريون، يناضلون لتكون الخلافة في بني أمية أو في آل علي أو في آل الزبير، لم يزيدوا على ذلك شيئاً، لقد كان كلهم مزوداً في دعواه وطلبه للخلافة ببعض الحجج التي يمكن أن تكون عند بعضهم أقوى من البعض الآخر، وذلك تبعاً

لما لدى ذلك البعض من قدرة على إقناع الناس بأن الشعار الذي يرفعه، يمكنه تطبيقه، بما لديه من مؤهلات ومقدمات تدل على النتائج.

والشيء الوحيد الذي اقتنع الناس به هو أن فرقاء النزاع، يسعون لتحقيق هدف الحصول على الخلافة، مهما كانت الوسائل، ومهما غلا الثمن، وقد رأينا كيف آلت الخلافة إلى بني أمية، ثم كيف تحولت إلى ملكية وراثية، وابتعدت عن الممارسات الإسلامية.

ومن الطريف أن تكون أقوى حجة كان يتسلح بها طلاب الخلافة، هي الحديث المروي عن النبي (ﷺ) (الأئمة من قريش) يقدمونه بين يدي دعواهم، وكلهم من قريش، فمن للخلافة؟ ليس لديهم أهداف محددة يطرحونها في مطالبتهم بالخلافة، ولا منهاج عمل يقدمونه للناس، ولا مبادئ يدافعون عنها، ومن أجل تحقيقها يطلبون الوصول إلى الحكم! كل مالديهم... أنهم من قريش.

أما الخوارج.. فليست الخلافة قضية ذات بال في مسيرتهم، ولم تكن في يوم من الأيام هدفاً يسعون لتحقيقه أو مطلباً

يتذرعون الذرائع للوصول إليه ، وإذا كان لابد من خلافة ، فلكي تكون وسيلة لتطبيق برنامج إسلامي متكامل ، أو إعطاء صيغة مقبولة لشكل الحكم كان المسلمون قد تعارفوا عليها من قبل ، أيام الخلافة الراشدية ، واعتبروها الصيغة المثلى للنظام الإسلامي .

أول شعار رفعه الخوارج في وجه الفئات الإسلامية الأخرى : رفضهم المطلق لما روي عن النبي (الأئمة من قريش) وذلك لمنافاته لروح الإسلام ، فالأئمة من توفرت فيهم شروط الإمامة التي جاء بها الإسلام عن طريق الشورى ، أما تسليح الفئات الأخرى بحديث (الأئمة من قريش) فنوع من إحياء الأرستقراطية القرشية وتأكيد : خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام ، وقد عمل الإسلام على طمسه وجهد في القضاء عليه ، وهامو ذا الآن يطل على الناس باسم الإسلام .

ولا يُعقل — في نظر الخوارج على الأقل — أن ديناً ساوى بين العربي والعجمي ، وبين الأسود والأبيض ، وبين العبد والسيد ، أن يكون من مبادئه حصر الخلافة في قبيلة دون غيرها من سائر المسلمين ! فالتقوى التي وردت في الحديث الشريف : (ليس لعربي

فضل على أعجمي إلا بالتقوى) (١٥٢) وفي الآية الكريمة ﴿إِنْ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (١٥٣) هي أهم شروط المفاضلة، وليس النسب القرشي أو غير القرشي.

لذا فإن ملخص نظرية الخوارج في الخلافة كان: أن يُختار القرشي وغير القرشي، والعربي وغير العربي، والرجل والمرأة، وسيلهم إلى هذا الاختيار، الشورى التي وضعها الإسلام طريقاً لاختيار الخليفة.

وقد طبق الخوارج هذه الديمقراطية على أنفسهم، فاختاروا لخلافتهم أتقاهم وأشجعهم وأكفأهم، وبلغوا في تلك الديمقراطية حداً لم تبلغه أكثر الأمم المعاصرة رقياً، وذلك أنهم كانوا إذا أحسوا أنهم أساءوا الاختيار، كانوا يسحبون الثقة من الخليفة القائم ويختارون بديلاً عنه. (١٥٤)

من ذلك أن خوارج الإمامة اختاروا أبا طالبوت قائداً لهم،

(١٥٢) من خطبة النبي (ﷺ) في حجة الوداع.

(١٥٣) سورة الحجرات: الآية: ١٣.

(١٥٤) النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية ٥١٢/١ والخوارج والشيعة

على أن يظل كذلك حتى يجدوا خيراً منه ، كان ذلك سنة خمس وستين للهجرة ، وفي السنة التي تلتها أي سنة ست وستين هجرية خلعوا أبا طالوت وبايعوا نجدة بن عامر الحنفي ، وبايعه أبو طالوت نفسه ، فكان نجدة خليفةً ، وباسمه سميت فرقة النجدات من الخوارج ، ثم إنهم خلعوا نجدة بعد أن أنكروا عليه بعض الأمور وأنحدوا عليه بعض المخالفات ، ولوا عليهم أحد الموالى وهو ثابت التمار ، وكلفوه أن يبحث لهم عن أمير يصلح لقيادتهم ، فاختار لهم : أبا فديك فقال البيعة ، ولم يكتفوا بخلع نجدة بل قتلوه سنة اثنتين وسبعين للهجرة . (١٥٥) ..

ومن أمثلة الديمقراطية المبكرة في تاريخهم ، أنهم منذ اعتزلوا معسكر علي في صفين ونزلوا في حروراء ، اعتمدوا نوعاً من القيادة الجماعية ، فجعلوا علي حريهم : شيب بن ربيع التميمي ، وعلى صلاتهم : عبد الله بن الكواء اليشكري ، وكان أول من سمي عندهم أمير المؤمنين : عبد الله بن وهب الراسبي (١٥٦) وهم بذلك يوزعون المسؤوليات في عدد من المتميزين : كل فيما أوكل إليه .

(١٥٥) الخوارج والشيعة : ٦٩ — ٧٢ والطبري ٨٢٩/٢ .

(١٥٦) علي وبنوه : ٨٩/ وغيره .

وقد قام على أمرهم في أيامهم الأولى نخبة من الرجال منهم عبد الله بن وهب الراسبي ، ونافع بن الأزرق ، وقطري بن الفجاءة وغيرهم ممن اتصفوا بأرفع الصفات ، والذي يعن النظر في تركيبهم الاجتماعي والطبقي ، يجد أنهم مارسوا الديمقراطية الإسلامية كأفضل الممارسة ، فلم تغلب قبيلة من القبائل على تنظيمهم السياسي ، كما أنهم لم يمارسوا الشعور بالتفوق العربي ، فقد كان بين صفوفهم عدد كبير من الموالي والأعاجم ، لهم مالعامة الخوارج وعليهم ما عليهم . (١٥٧)

وقد اجتذبوا إلى صفوفهم هذه الديمقراطية ، الفقراء والمضطهدين والمتعاطشين للثورة ، من كل القبائل العربية وغير العربية ، وأحلوا مبادئهم الإسلامية محل العصبية القبلية أو العرقية كأحسن ما يمكن ، ضمن معطيات تلك الأيام .

ومن هنا رأينا أن العراق وإيران وما وراءهما كانت بيئات مواتية لتتمركز الخوارج ، لما فيها من فئات مضطهدة تحن إلى العدل والمساواة ، على عكس الشام التي كانت ذات نظام إقطاعي ،

(١٥٧) النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية ١/١٢٢ وعيون الأخبار لابن قتيبة ١/٣٣٧ .

وتركيب طبقي، مما لم يسمح لهم بإقامة قاعدة اجتماعية^(١٥٨) بل حاربهم حكام الشام بأهل الشام.

- ويمكن الإشارة إلى أهم مبادئهم الديمقراطية فيما يأتي:
- ١ — الإمامة ليست حقاً مفروضاً، ويمكن تحميل مهمات الإمام إلى عدد الأكفاء^(١٥٩) ولابن خلدون وحده قول مخالف في هذه القضية إذ يقول: إن الخوارج تقول بنصب الإمام^(١٦٠).
 - ٢ — إذا كان لابد من إمام أو خليفة، فشرط اختياره هو: الكفاءة الإسلامية بأشمل معاني هذه الكلمة، ويقبل أن يكون اسمه: خليفة — أو أمير المؤمنين، أسوة بالخلافة الراشدية.
 - ٣ — أما طريق الاختيار، فالشورى الإسلامية..
 - ٤ — رفض (الأئمة من قريش) أو كل ما في معناه من دعوات أرستقراطية أو عصبية، وكل ما ينافي روح الإسلام وعدالته، وجواز أن يكون الخليفة عربياً أو غير عربي، أو

(١٥٨) النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية ١/٥١٣.

(١٥٩) النزعات المادية ١/٥١٢.

(١٦٠) تاريخ ابن خلدون ١/٣٣٩.

- عبداً أسود أو امرأة، إذا اجتمعت فيه شروط الإمامة .
- ٥ — اعتبار الوراثة في الحكم أو الوصية أو الأسر الحاكمة، دعوات مشبوهة ودخيلة على الإسلام .
- ٦ — يمكن عزل الإمام أو قتله، إذا تخلى عن الأمانة، أو قرط بحقوق المسلمين، أو أخلَّ بأيٍّ من واجباته .

ولم تكن هذه المبادئ مجرد لافتات رفعوها، أو شعارات نادوا بها ثم تنكروا لها، بل إنهم أخذوا أنفسهم على تطبيقها، وحملوا بعضهم على السير بدقة صارمة على الطريق الذي رسموه بأنفسهم^(١٦١) واختاروا السير عليه بمحض إرادتهم .

ولهذا عرف الخوارج بأنهم الحزب الجمهوري في الإسلام، وأنهم رواد الديمقراطية الأوائل عند العرب . ويُلخص نظريتهم في الحكم واختيار الخليفة قولُ شاعرهم: عمران بن حطان: (١٦٢)

فنحنُ بنو الإسلامِ واللَّهُ واحدٌ وأولى عبادِ اللَّهِ باللَّهِ مَنْ شَكَرُ
وهو من روح الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ

(١٦١) الرعات المادية في الفلسفة العربية ٥١١/١

(١٦٢) الكامل للمرد ٢١/٢١، وتاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب ٦٧/٦٧ . وتعر الخوارج ٢٥/٢٥ .

ذكر وأنشى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله
أتقاكم إن الله عليّم خبير (١٦٣) ﴿

ولما كان الخوارج نبتة إسلامية عربية قمة وقاعدة، كان من
الصعب على الباحث في أنسابهم وقبائلهم، أن يرى قبيلة بعينها
تستأثر بأغلبية أو بقيادة، وإنما هم موزعون على كل القبائل بما
يشبه التساوي، اجتذبوا الثوار والمتعطشين إلى العدالة، من كل
قبيلة، بما قدموا من حسن القدوة، والانسجام بين القول والعمل،
ولكن بدا في بعض مراحل حياتهم، غلبة لقبيلة على أخرى في
تكوينهم، فليس ذلك إلا مصادفة لا تدوم طويلاً، ولا تلبث أن تعيد
التوازن روافد من قبائل أخرى وربما كان للقبائل المستضعفة والموالي
أوفر نصيب في صفوفهم.

وأكرر تسجيل رأي الخوارج القائل: إن المسلمين الذين
تسلحوا بـ (الأئمة من قريش) إنما يريدون تكريس قيم قائمة، كانوا هم
المستفيدين منها (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام) فبنو
هاشم وبنو أمية هم سادة قريش وسادة العرب في الجاهلية،
كذلك وهم ضمن حظيرة الإسلام، يتابعون مسيرة خلافهم على

(١٦٣) سورة الحجرات: آية: ١٣.

الزعامة التي كانوا قد تقاسموها في الجاهلية حسماً للخلاف :
السدانة وسقاية الحجيج وأمور الدين في بني هاشم وبني عبد
المطلب ، وأمور الدنيا ، من تجارة وحرب وما إلى ذلك في بني أمية
وبني عبد شمس ، أما وقد جمع الإسلام بين الزعامتين : زعامة الدين
والدنيا ، فقد استمر الخلاف وأصبح أكثر ضراوة ، يرى الخوارج —
والحالة هذه — أن الإسلام يجب أن ينفذ يده من تراث الجاهلية
كله ، وأن يصنع قيادات جديدة وزعامات جديدة ، لا تدين في
تكوينها ووجودها إلا لقيم الإسلام .

(٩)

عقيدتهم الدينية

يصعب الفصل بين صفات الخوارج وبين عقيدتهم الدينية، ذلك لأن أخلاقهم هي دينهم، ولأن العمل عندهم هو الإيمان، لا فاصل عندهم بين عقيدة وخلق، لذا فإن الانسجام والتوازي والتلازم بين الشعار والتطبيق جعل الباحث يرى التداخل والتشابك بين مفاهيمهم النظرية من دين وقيم روحية، وبين سلوكهم الحياتي من حرب وممارسة للحياة.

إن ما يميز عقيدة الخوارج الدينية، ليس غرابتها ولا ما جاء فيها من نظريات بعيدة عن الإسلام، ابتدعوها وآراء أدخلوها على

الدين، فهم لم يبتدعوا شيئاً، ولم يأتوا بجديد، إنهم مسلمون بسطاء في تدينهم بساطة الإسلام الأول، لكن الذي يميز عقيدتهم هو الطريقة التي تدينوا بها: التمسك بالعقيدة، والتفاني في سبيلها، والمراقبة الصارمة للنفس، وتكريسها في خدمة الآخرة، وأمور أخرى نلخصها فيما يلي من هذه الدراسة:

أسماء الشهرستاني صاحب الملل والنحل (المارقة)، وكفرهم غيره من المؤلفين وهام ما قاله بعض مكفرهم:

قال الشهرستاني بالحرف الواحد — بعد أن فصل فرقههم —: «يجمعهم القول بالتبزي من عثمان وعلي ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك، ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة، حقاً واجباً» (١٦٤).

وقال البغدادي صاحب الفرق بين الفرق: «إن الذي يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها: إكفار عليّ وعثمان والحكمين وكل من رضي تحكيم الحكمين، وإكفار مرتكبي الذنوب، ووجوب

(١٦٤) الملل والنحل للشهرستاني ١/١١٥.

الخروج على الإمام الجائر»^(١٦٥) ومثل ذلك تماماً ما قاله الأشعري، في مقالات الإسلاميين^(١٦٦).

وهذا ليس هو عقيدة الخوارج الدينية، بل ما تفرد به الخوارج دون غيرهم من المسلمين:

- أ- إكفار علي وعثمان.
- ب- إكفار الحكمين وكل من رضي بالتحكيم.
- ج- إكفار مرتكبي الكبائر.
- د- وجوب الخروج على الإمام الجائر.

وفيما عدا ذلك فهم كبقية المسلمين يحيون الشعائر، وقيمون أركان الإسلام كما جاءت في الشريعة دون اجتهاد أو تحوير..

وإن ما سبق ذكره من آراء اختلف بها الخوارج، إنما هي أمور ميزتهم عن غيرهم وعرفوا بها دون سواهم، ويمكن إرجاع هذه الأمور وهذه الآراء إلى أصل واحد، ومنطلق فكري واحد، هو أصل المذهب الخارجي ذلك المنطلق هو (تكفير مرتكب الكبيرة)،

(١٦٥) عن ضحى الإسلام لأحمد أمين ٣/٣٣٠.

(١٦٦) مقالات الإسلاميين للأشعري ٥٥/٥٥، وروج الذهب للمسعودي ٣/١٣٨.

فهو نقطة البدء، فمنذ عرف الخوارج وظهروا كفئة لها شعاراتها وطروحاتها، كان تكفير علي أول ما جادلوا به، لقد اعترفوا بالكفر وارتكاب الكبيرة، لأنهم قبلوا التحكيم لكنهم عادوا فاستغفروا الله، ورجعوا عن ارتكاب الكبيرة— أي قبول التحكيم— وجادلوا علياً في الأمر، وطلبوا إليه الاعتراف بالكفر، ثم الاستغفار، فلما أتى عدوه كافراً— لأنه ارتكب الكبيرة— وهي قبول التحكيم في أمر من أمور الدين التي لا يجوز الجدل فيها، لذا فإن آراءهم السابقة كلها تجتمع حول محور واحد هو (ارتكاب الكبيرة).

فعلي وعثمان والحكمان وكل من رضي بالتحكيم إنما هم كفار— لارتكابهم الكبيرة— والإمام الجائر مرتكب الكبيرة ومن أجل ذلك فهو كافر وينحب الخروج عليه. وفي هذا السياق يأتي تكفيرهم لخصومهم من المسلمين، واستحلال أموالهم ودمائهم.

هذه هي كليات العقيدة الخارجية، أو كليات ما تفرد به الخوارج عن غيرهم كما جاء في أمهات كتب الفرق الإسلامية، وهي مبادئ اعتنقوها في مراحلهم الأولى، أما بعد تفرقهم إلى فرق فقد أدخل بعضهم تعديلات فزادوا وأنقصوا، وغيروا وبدلوا، تبعاً لما طرأ على حياتهم الجديدة وظروفهم الجديدة من تبديل وتعديل..

وبغض النظر عن آراء هؤلاء المؤلفين ، ومذاهبهم في التأليف ، ودوافعهم التي صدروا عنها ، ونظرتهم للأمور ، فإننا نرى أن أبرز ما يميز العقيدة الخارجية ، الصفاء والتمسك بالدين وظاهر النصوص وعدم التفلسف والتعمق ، فهم مسلمون بلامذاهب ، وليس لديهم أئمة يأخذ كل فريق منهم بتشريع إمام في القضية الواحدة ، كما هي الحال عند المسلمين الآخرين الذين هم بين شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي وجعفري .

والملفت للنظر في دين الخوارج وتدينهم ، هو ذلك الإخلاص للدين والتفاني في سبيله ، وغنى عن البيان ، أن الفرق بين معتنقي المذاهب يتجلى في مواقفهم منها ، فمهما كان التمسك بالعقيدة والإيمان بها والتعصب لها والتعمق في فهمها ، والدفاع عنها باللسان وبالقلب ، مهما كانت هذه الأمور قوية ، فإنها لا تساوي ركوب المخاطر والتعرض للموت والاستهانة بكل شيء في سبيلها .

إن كان المطلوب لصحة العقيدة الدينية ، ممارسة الشعائر وإقامة الواجبات وتنفيذ التعاليم السماوية ، فالخوارج عباد زهاد أنضاء عبادة ، أكلت الأرض جباههم وأفنوا أعمارهم ورعاً وتقياً

وزهداً، وإن كان المطلوب الدفاع عن العقيدة، فهم الذي أفنوا
رجاهم على تتابع أجيالهم دفاعاً عن الدين وانتصاراً للحق .
ولا مجال لمقارنتهم بأشد الفرق الإسلامية تطرفاً، فليس في
هذه الفرق من شهر سيفه في وجه حاكم ظالم انتصاراً لرأيه، ودفاعاً
عن دينه . وفرق كبير بين من يقوم المنكر بسيفه ويده، وبين من
يقومه بقلبه — وهو أضعف الإيمان !

وقبل أن أوجز أهم ما يتعلق بعقيدتهم الدينية، ربما كان من
المفيد أن أشير إلى رأي زعيمهم السابق بهم — أعني علياً — لقد
أثنى على حسن نيتهم في كل ما يفعلون، وإن كان من خطأ في
سلوكهم فإنهم يريدون غير ذلك، قال عنهم في نهج البلاغة^(١٦٧) :
« لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن
طلب الباطل فأدركه »

كذلك فقد وصفهم بالتقى والورع والفقہ في الدين وعلم
التأويل وقراءة القرآن، قال للذين كانوا يوجهونه نحو حرب الخوارج
ويصرفونه عن حرب أهل الشام: ^(١٦٨) « اتقوا الله وقاتلوا من حاد الله
ورسوله، وحاول أن يطفىء نور الله، قاتلوا الخاطئين الضالين

(١٦٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٥٩٣ .

(١٦٨) الكامل لابن الأثير ٣/٣٣٩ .

القاسطين ، الذين ليسوا بقراء القرآن ولا فقهاء في الدين ، ولا علماء في التأويل ، والله لو وُلِّوا عليكم لعمَلوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل ، تيسروا لعدوكم من أهل المغرب .»

وفي الموضوع نفسه في مناسبة مشابهة قال : (١٦٩) « بلغني أنكم قُلتُم : كيت وكيت ، وإن غير هؤلاء الخارجين أهم إلينا ، فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكاً ، ويتخذون عباد الله حولاً .»

وواضح من كلام علي أنه ينفي عنهم جملة من الصفات الذميمة ، ويسند إليهم عكسها ، من صفات الصدق في التدين وحب الله والعدل والخير ، وعليّ أعرف الناس بالخوارج .

وعليّ أُنِي لا أدعي الإحاطة بكل جزئيات العقيدة الخارجية ، فسأورد جملةً من الأمور والملاحظات تلقي ضوءاً كبيراً على تلك العقيدة :

١ — مسألة مرتكب الكبيرة وتكفيره ، هي أم المسائل ومبدأ المذهب الخارجي ، وقد أشرت فيما سبق إلى أنها ملتقى فروع هذا

(١٦٩) نفس المرجع ٣/٢٤١ .

المذهب، ولبعض فرقتهم اجتهادات أخرى أقبل تشدداً في هذه المسألة، كما هو الأمر عند الصفيرية — إحدى فرقهم — إذ لا ترى تكفير القعدة بشرط العقيدة، ولا يرون قتل أطفال المشركين، لأنهم ليسوا كفاراً، وأصحاب الكبائر مشركون. الخ^(١٧٠) كذلك النجدات لا يرون تكفير أصحاب الكبيرة.

وقد كانت مسألة تكفير مرتكب الكبيرة أو عدم تكفيره، محور الحركة الفكرية العربية الإسلامية في القرنين الأول والثاني للهجرة، وقد دخلت هذه المسألة في علم الكلام، بعد أن صار علماء، وكما أن هذه النظرية كانت منطلق المذهب الخارجي، فإن حركة المعتزلة في الأصل نشأت من الجدل في مرتكب الكبيرة^(١٧١). ومن هنا تأتي أهمية الخوارج في ظهور حركة الاعتزال.

٢ — العمل جزء من الإيمان : لقد فهم الخوارج هذا المبدأ ببساطة وترجموه في واقع حياتهم وسلوكهم، وقد ذكرنا عن اقتراح العقيدة

(١٧٠) المغرب الإسلامي : لقيال موسى ٢٠١ — ٢٤٦ وضحي الإسلام لأحمد أمين

٣/٣٣٠، والنزعات المادية ١/٥١٥.

(١٧١) النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية ١/٥١٦.

بالعمل عندهم، وبوحي من هذا الاعتقاد كان عليهم أن يجاربوا
علياً ومعاوية وغيرهما ممن اعتقدوا بكفرهم^(١٧٢)، قال عنهم
فلهوزن: «العلامة المميزة لهم كل التمييز، هي الترجمة عن إيمانهم
بالأفعال وامتشاق السيف»^(١٧٣)، ولم يستطع الخوارج أن يفهموا
الإيمان الصامت الكامن في الصدور، لا بد من تعبير عملي عن
هذا الإيمان — لا إيمان بلا عمل —

يرى بعض الباحثين أن الخوارج تفردوا في تفسير مفهوم
الإيمان، دون سائر المسلمين، فقد كان المسلمون قبل الخوارج
يرون أن الإيمان يعني الاعتقاد الداخلي، ثم الإقرار به نطقاً
باللسان، لكن الخوارج زادوا في هذا المفهوم عنصراً آخر هو العمل
الخارجي العضوي، كل إنسان عندهم مؤمن أو كافر (من لم
يعمل وفق اعتقاده، فهو كمن يخالف اعتقاده، وكمن لا اعتقاد
صحيحاً له وبالتالي فهو كافر)^(١٧٤) وعلى هذا حكموا على
أنفسهم بالجهاد — أي العمل —، وهذا هو التلازم بين النظرية
والتطبيق.

(١٧٢) النزعات المادية ١/٥١٨.

(١٧٣) الخوارج والشيعة ٤٦.

(١٧٤) النزعات المادية ١/٥١٠ — ٥١١.

٣ — الخوارج ظاهريون في كل معتقداتهم ، ليس لديهم ما يخفونه عن الناس ، وهذا منسجم مع نشأتهم ، فقد كان أمرهم علنياً ، ليس لهم تنظيمات سرية معقدة ، وهم بذلك يختلفون اختلافاً كلياً عن جماعات كالعباسيين والفاطميين^(١٧٥) ، وغيرهم من الفرق الباطنية التي ظهرت فيما تلا عصور الإسلام الأولى .

وكما أن مبادئهم السياسية كانت معلنة ، إذ لم يلجأوا إلى المؤامرات والديسائس وتكوين الأنصار المندسين ، كذلك كانت معتقداتهم الدينية معلنة واضحة ، لم يعمدوا إلى تأويلات للنصوص الدينية أو محاولة إعطائها معاني باطنية تذهب بها مذاهب أخرى ، بل قنعوا بظواهرها وبفهمها . كما تبدو من القراءة الأولى ، كذلك لم يتعمقوا في الفقه والاجتهاد والتفسير والأخذ عن الأئمة ، كان إسلامهم على بساطة الإسلام الأولى ، وصفائه الأصلي ، لا بتأويلات المؤولين واجتهاد المجتهدين ، وليس فهم خاصة وعامة ، فهم جميعاً متقاربون في كل شيء .

ولم يخوضوا فيما خاضت فيه جماعات أخرى كالمعتزلة ، من جدل ومنطق وفلسفة ، بل اتمسوا المعرفة من أقرب الطرق وأبسطها

(١٧٥) الخوارج والشيعة / ٣٩ .

وأبعدها عن التعقيد، وإن كانوا قد جادلوا في مسألة تخليد مرتكب
الكبيرة بالنار، فإنما فعلوا ذلك عن غير قصد منهم، إنما كان مبدأ
اعتنقوه دون تفلسف أو تعقيد، على عكس المعتزلة الذين حملوه
وظاروا به وبغيره من الآراء وأوسعوها بحثاً وتقليباً على الوجوه.

ولكن للعفوية والسطحية من المساوىء ما لا يقل عن
مساوىء التقعر والتفلسف والتأول، وهذا ما وقع به الخوارج فعلاً
في بعض مواقفهم النظرية، والخطورة تكمن في أن الخوارج يقرنون
الإيمان بالعمل، فإذا اعتقدوا بصحة أمر من الأمور أو فساد أمر
من الأمور، سارعوا لاتخاذ المواقف العملية وشهروا السيوف
لتحقيق النظرية على أرض الواقع، لقد كانوا حرفيين ضيقين إلى
الحد الذي ألحق الأذى بهم، وأساء إلى قضيتهم، وتحملوا جراء
ذلك خصومات وانقسامات قصمت ظهورهم، قال أحد
شعرائهم: زيد بن جندب (١٧٦):

كنا أناساً على دين ففرقنا
طول الجدال وخلط الجد باللسب

(١٧٦) البيان والتبيين ٤٢/١ وأدب السياسة للحوفي ٢٢٨ - ٢٢٩، وشعر
الخوارج: ٣٥.

ما كان أغنى أناساً ضلَّ سعيهم
عن الجدالِ وأغناهم عن الخطب
إني لأهونكم في الأرضِ مُضْطَرِباً
مالي سوى فرسي والرَّمحِ مِنْ نَشَبِ

أدى إذا تمسكهم بحرفية النصوص وظواهرها إلى سخافات
وحماقات ارتكبوها (١٧٧) كان أحدهم يقول :

لو أن رجلاً أكل فلسين من مال يتيم وجبت له النار (١٧٨)
لقول الله تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ، إِنَّمَا
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ (١٧٩) ولو قتل اليتيم أو
بقر بطنه ، لم تجب له النار لأن الله لم ينص على ذلك . كان أحدهم
لا يستحل أكل تمرّة بغير ثمنها ، في حين استحل بعضهم دماء
أطفال خصومهم من المسلمين (١٨٠) ومنهم من كان يقتل المسلم
المخالف ويحير الذمي ، وذلك لورود النص على استجارة الذمي وعدم

(١٧٧) مقالات الإسلاميين ١١٢ - ١١٣ .

(١٧٨) ضحى الإسلام ٣/٣٣٤ .

(١٧٩) سورة النساء : ١١ .

(١٨٠) ضحى الإسلام ٣/٣٣٥ .

وروده على المسلم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ، حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (١٨١)

وقد طبقوا فهمهم لهذه النصوص على كثير من الناس، فمن قتل المسلم المخالف ما فعلوه مع الصحابي عبد الله بن خباب، إذ لقيهم وفي عنقه مصحف، ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا له: إن هذا الذي في عنقك يأمرنا أن نقتلك، فلما اختبروه وعلموا مخالفتهم لهم قتلوه (١٨٢)، وأقبل عليهم واصل بن عطاء في رفقة، فلما علموا أنهم الخوارج طلب واصل — وهو الإمام المعتزلي المعروف — من رفقته أن يتركوا له أمر محاورتهم، فخرج إليهم، فقالوا له: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده. فقالوا: قد أجرناكم. قال فعلمونا، فجعلوا يعلمونه أحكامهم وهو يقول: قبلت أنا ومن معي، قالوا: فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا، وأبلغوهم مأمَنهم (١٨٣) ..

ومن المفارقات في هذا المجال ما جاء في الكامل

(١٨١) سورة التوبة: ٦.

(١٨٢) الكامل للمبرد: ٥٠/.

(١٨٣) الكامل: ٨/ — ٩.

للمبرد^(١٨٤) من أن جماعة من الخوارج ساموا رجلاً نصرانياً بنخلة له، فقال: هي لكم، فقالوا: ما كنا لناخذها إلا بثمان، وكان هذا الرجل قد علم بقتلهم لعبد الله بن خباب، فقال: ما أعجب هذا؟! أتقتلون رجلاً مثل عبد الله بن خباب، ولا تقبلون مني جنى نخلة؟.

وجملة القول في هذا الأمر: إن الخوارج ظاهريون سطحيون حريون، بعيدون عن الباطنية لا يدينون بالثقية، ولا ينافقون الحاكم الظالم، واضحون في معتقداتهم الدينية وضوحهم في نظريتهم السياسية، أركان الإسلام عندهم هي نفسها التي جاء بها القرآن الكريم والحديث الشريف، فحججهم إلى بيت الله الحرام، وصيامهم صيام رمضان، وصلاتهم هي الصلوات المفروضة، وإذا اختلفوا في شيء من ذلك عن غيرهم ففي المبالغة وتحميل أنفسهم أكثر مما فرض عليها، ففي الصلاة لا يكتفون بخمس صلوات مفروضة في أوقات محددة، بل ربما وصلوا الليل بالنهار تعبدًا وتزهّدًا، كذلك في الجهاد فقد فهموه ضد أعدائهم الذين هم مسلمون فحملوا السيف في وجوههم، واستحلّوا دماءهم وأموالهم، وهذا ما طاب لي أن أسميه: الصُّعْلُكَةُ الإسلامية.

(١٨٤) باب الخوارج ٥١/ وشرح النهج ١/٦٠١.

٤ — الخوارج متشددون في معتقداتهم وعباداتهم، صارمون في مراقبة أنفسهم، وصفهم كل الذين كتبوا عنهم بإدمان العبادة والتشدد فيها وإحياء الفرائض الدينية، قالوا عنهم: إنهم أنضاء عبادة، أكلت الأرض جباههم، وقد أسلفنا ذكر أنماط من رجالهم وعبادهم، منهم مرداس بن أدية، وعروة بن أدية، وعمران بن حطان، وأشرنا إلى تشابه الخوارج وجماعتهم في كل شيء، وأن ليس لديهم خاصة وعامة، فهم مجتمع الطبقة الواحدة، بمعنى أنه ليس فيهم بعض المتعبدين، وبعض اللاهين المترفين الفجّار، كلهم نمط واحد وطريقتهم واحدة في القول والعمل، وكانت الجنة هدفهم في كل ما يفعلون، قال عنهم فلهوزن^(١٨٥): «إنهم يبيعون حياتهم ويحملون أنفسهم إلى سوق ثمن أرواحهم فيه هو الجنة، والأساس الذي يستند إليه هذا التهور في التقوى، هو الإيمان الحق بأن الدنيا عبث، وأن بقاءها قصير، وأن يوم الساعة قريب، وهم يبدلون كل طاقة من أجل تحقيق سياسة خلو من كل سياسة، ابتغاء الفوز بالجنة» وكانت تسميتهم (الشرارة) أي الذين باعوا أنفسهم لله مقابل الجنة، ملائمة للأخلاقية الدينية التي مارسوها وطبقوها

(١٨٥) الخوارج والشيعة / ٤٦ .

وأخذوا أنفسهم بها، لقد تواترت الأخبار عن روح الفداء والتضحية في تاريخ نضالهم مع خصومهم، كان ينفذ الرمح من ظهر أحدهم، فيسرع نحو الذي طعنه قائلاً: وعجلت إليك رب لترضى، وإن العودة إلى مآذركنا من أخلاقهم وصفاتهم تنفع في هذا المجال.

ومن الأمثلة الحية على مراقبتهم لأنفسهم وصدقهم معها ومثاليتهم، ما رواه الطبري^(١٨٦): قال حيان بن ظبيان السلمي، وكان خليفتهم حوالي سنة ٥٩ هـ، قال لقومه: إنهم (أي أعدائهم) لم يتركوا لكم الوقت بل يعاجلونكم، لهذا أرى أن أخرج معكم إلى جانب الكوفة والسبخة، أو زرارة والحيرة، ثم نقاتلهم حتى نلحق برينا، فإني والله قد علمت أنكم لا تقدرُونَ وأنتم دون المئة رجل، أن تهزموا عدوكم ولا أن تشتد نكايتكم فيهم. ولكن متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم، كان لكم به العذر، وخرجتم من الإثم.

هذه أعلى درجات الصدق مع النفس والقيام بالواجب دون إكراه أو وازع إلا من الذات والضمير.

(١٨٦) الطبري ١٨٢/٢ - ١٨٣.

وهذا يقودنا إلى جانب آخر من تدينهم ، وعدم تساهلهم في المسؤوليات ، دون النظر إلى النتائج ، وهو : أنهم يسعون إلى أهداف غير ممكنة التحقيق ، فمن وجهة نظرهم كان لا بد من افتداء هذه الأهداف بالأرواح ، لأنها أهداف عادلة ، ومن وجهة نظر بعض المؤلفين الأجانب^(١٨٧) إن السعي إليها مناف للمدنية ، لأنه سيكلفها غالباً دون قدرة على الانتصار ، ولا يعيننا من تلك الأهداف قابليتها للتحقيق أو استحالتها عليه ، بل الذي يعيننا هو نظرة الخوارج إلى هذه الأهداف وموقفهم منها ، وهذا الموقف بحد ذاته قيمة أخلاقية ودينية سامية .

كذلك فقد رأينا فيما سلف من هذا البحث ، أن الخوارج لا يساومون على معتقداتهم ، وكثيرون منهم دفعوا أرواحهم لتصلب مواقفهم وعدم مرونتهم .

هل نسمي تشددهم وحرفيتهم تعصباً؟ أم نسميه تمسكاً ومحافظة على القيم الدينية كما فهموها؟

قال عنهم مؤلف النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية^(١٨٨) : إنهم متحررون من عقد التعصب ضد الديانات

(١٨٧) فلهوژن ، الخوارج والشيعية / ٤٦ .

(١٨٨) حسين مروة / ١ / ٥١٢ .

الأخرى وضد الأقباط الآخرين، فقد جمعت حركتهم أفراداً من قبائل عدة، ولم يكن تنظيمهم يثير الحساسيات القبلية، ومثل هذا القول جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة^(١٨٩) ويندرج في هذا السياق، ما أسلفنا من تساهلهم مع المشركين وأنهم يجيرونهم ويبلغونهم مأمئهم .

وإذا كان هناك من مبالغة أو تعصب، فبقتلهم لمخالفهم من المسلمين وقتل أطفالهم واستحلال أموالهم، وتحريم أكل ذبائهم، وعدم تصحيح المناكحات منهم وغير ذلك، وليس كل الخوارج يرون ذلك .

والخوارج — فيما أرى — في إجازتهم للمشركين، وفي قتلهم لأطفال المسلمين المخالفين، وفي كل الآراء المتطرفة التي تصدر عنهم، إنما ينطلقون من مبادئ دينية ونصوص قرآنية، فهموها بهذا الشكل، وطبقوا ما فهموا دون مناقشة أو جدل، والتلازم بين النظرية والتطبيق، سمة مميزة للخوارج، غير أن ردة الفعل عندهم قد تكون عنيفة وتبدو وكأنها نوع من التعنت والمكابرة التي تفتقر

(١٨٩) عيون الأخبار ١/٣٣٧ .

إلى التسوية والمنطقية ، جاء في أنساب الأشراف للبلاذري (١٩٠) أن الحسن البصري قال لأبي بلال ، مرداس بن أدية : أخبرني عن رجلين خرجا في أمر فغشيتهما ظلمة فوقف أحدهما حتى انجلت الظلمة فمضى ، وتقحّم الآخر الظلمة ، أيهما أصوب رأياً ؟ قال مرداس : أصوبهما عندي أخطأهما عندك .

ولا يخفى ما في هذا الجواب من قصد النكاية والمخالفة ، إن هذا الخارجي يريد أن يقول : إن الخوارج يخالفون أفكار وآراء كل السائرين في ركاب السلطان دون مناقشة أو تبصر ، وفيما عدا هذا الموقف وأمثاله ، فإنهم يصدرون في آرائهم ومواقفهم المتطرفة عن أصول إسلامية ونصوص دينية بمقتضى فهمهم لها ..

ففي إجارة المشركين يعتمدون على حرفية الآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ، حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (١٩١) . وفي استحلالهم لقتل أطفال المشركين (أي خصومهم من المسلمين) يعتمدون على الآية الكريمة التي جاءت على لسان نبي الله نوح عليه السلام قال نوح : « رَبِّ

(١٩٠) أنساب الأشراف ١/١٨٠ .

(١٩١) سورة التوبة (٦) .

لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» (١٩٢) فقد سمّت الآية الكريمة أولادهم، قبل أن يولدوا كفاراً فاجرين فحمل الخوارج ذلك وطبقوه .

وهذا هو عذر الخوارج فيما وُصف تعصباً أو تطرفاً أو سلوكاً لا إنسانياً، كما يبدو الأمر في قتل أطفال مخالفيهم من المسلمين .
هذه الآراء المتطرفة، وغيرها مما أوردنا من معتقدات الخوارج، إنما هي كليات العقيدة الخارجية، كما جاءت على السنة أعدائهم من المؤلفين، وتناقلتها أجيال هؤلاء المؤلفين والمصنفين، دون النظر إلى صحيح أو مكذوب، معقول أو غير معقول، فقد أراحوا أنفسهم بأن رددوا أقوال سابقهم، دون إعمال للفكر والعقل ودون دراسة وتمحيص .

(١٠)

جوانب أخرى

إنَّ الدارس المتبصّر ، يستطيع أن يرى أموراً غير التي تواترت في الكتب ، ويرى تفصيلات في آراء الخوارج غير التي ذكرناها ، فقد تفرق الخوارج إلى فرق كثيرة تباينت نظرتها وتفسيرها لمعظم الأمور التي أثارت جدلاً بينهم ، فقد اختلفت مواقفهم من أعدائهم إلى الحد الذي وصل عند بعض فرقهم ، إلى تكفير أولئك الأعداء ، واستحلال قتلهم وقتل نسائهم وأطفالهم ، بينما لا تصل عند بعض الفرق إلى هذا الحد المتطرف ، كذلك لم يكن موقفهم واحداً من القعدة (وهم فئة من الخوارج لا ترى امتشاق السيف والقتال دائماً هو أمثل الحلول) . ومن أكثر فرقهم تشدداً وتطرفاً

كانت فرقة الازارقة (أتباع نافع بن الأزرق) ، ومن معتدليهم فرق
النجدات والصفرية والإباضية .

وقد اختلفت هذه الفرق وغيرها ، في أمور كثيرة أخرى ،
كالللال والحرام ، والجائز وغير الجائز . مما لا يتسع بحثنا
لاستقصائه .

وقد طرأ على كثير من معتقداتهم وآرائهم ، تطور كبير عبر
عصور نضالهم الطويلة وتمرسهم بالحياة ، واتصالهم بغيرهم من
الأمم الأخرى ، فقد عدلوا من بعض الآراء ، وزادوا وأنقصوا مما
تقتضيه طبيعة التطور البشري .

وربما كان الاستقرار النسبي الذي عرفه الإباضيون
والصّفريّون في شمالي افريقية قد أتاح لهم نوعاً من التفكير الهادئ ،
بعيداً عن ساحات المعارك وغبارها وقعقة السلاح ، فتفقهوا في
دينهم ، وتساهلوا فيما تشدد فيه خوارج المشرق ، فهم لا يرون مثلاً
تكفير القعدة ، ولا يجيزون قتل أطفال المشركين (مخالفهم من
المسلمين) ، وقد اعتمدوا نوعاً من التقية في نشر دعوتهم ، وأرسلوا
ما يشبه البعثات إلى المشرق العربي ، للتعلّم والتفقه على عالميهم

الكبيرين (أبي عبيدة معمر بن المثنى وأبي عبيدة مسلم بن أبي
كريمة) ..

ولابد من التنبيه إلى أن ما وصف به الخوارج، في مجال
العقيدة الدينية من سطحية وسذاجة وغير ذلك، لم تكن صفات
مطلقة ولا دائمة ولا لازمة، بل كانت في معظم الأحيان تابعة
لوضعهم الاجتماعي والسياسي، متفاوتة قوة وضعفاً من فئة إلى فئة
منهم.

وعندما تطاول بهم الزمن، واستقر منهم من استقر، بصورة
ما من صور الاستقرار، أعملوا فكرهم وعقلهم ونحشوا في كل
ما بحث غيرهم من المسلمين: من مأكّل ومشرب، وحلال وحرام،
وزواج وطلاق، وموارث وتملك، وقضاء وقدر، وجنة ونار،
وغيرها، لكنهم لم يخوضوا فيها كما خاض غيرهم، فلم يستعملوا
القياس والاجتهاد، ولا اعتمدوا التعمق والتفلسف، ثم إنهم خالفوا
غيرهم في النظرة إلى المبادئ الدينية مخالفة قوامها التشدد والبعد
عن التيسير.

كما تفرّد به إباحيو ليبيا في تشريعهم، أنهم حرّموا الزّواج بين
من ربطت بينهما علاقة إثم، مرجعين ذلك إلى أصل إسلامي

وحديث شريف يقول : (أيما رجل زنى بامرأة ثم تزوجها فهما زانيان إلى يوم القيامة) (١٩٣) .

لقد رأوا في هذا التشريع رادعاً لهذه الظاهرة المخلة بأخلاق المجتمع ، بينما تسارع بعض المجتمعات الإسلامية إلى مكافأة الآثمين بالزواج والمباركة ، وترويج الخطأ بالتشجيع وتستير الإثم وتيسيره ..

كما أصدروا حكماً بحرمان طالب الزكاة منها ، قال (علي يحيى معمر) مؤلف كتاب الإباضية في موكب التاريخ : إنك لا تجد في المجتمع الإباضي شحاذاً ، ولا تجد غنياً يباه جمهوراً من الفقراء ، يوزع عليهم الزكاة في زهو وُخَيْلاء ، وإنما تصل الزكاة إلى مستحقيها دون أن يكون لهم سابق علم بها ، تنظم ذلك هيئات إباضية ، كل ذلك لتجنيب الفقير مذلة الطلب ، وتفويت الفرصة على الغني أن يظهر بمظهر المتكبر المتعالي (١٩٤) .

وإن تراخي الزمن ، وضعف النوازع الأخلاقية والدينية ، وفقدان المراقبة الدائبة ، أدّى إلى تحلّي خوارج اليوم بما تحلّى به غيرهم من المفاسد الأخلاقية والاجتماعية ، فقد ذكر مؤلف :

(١٩٣) الإباضية في موكب التاريخ ١/١١٢ .

(١٩٤) نفس المصدر السابق ١/١١٧ .

الإباضية في موكب التاريخ^(١٩٥) ، أنه بعد دخول الاستعمار إلى شمالي افريقية ، أخذت تظهر بعض المفاصد في المجتمع الإباضي ، وأصبح ارتكاب المعاصي جهاراً ، أمراً معروفاً في إباضي ليبيا .

أما إباضيو الجزائر ، فقد حافظوا على أخلاقهم ، ولم تستطع فرنسا بكل مغرياتهما أن تفسدهم ، إذ استطاعوا أن يكون لهم وضع فريد في ظل الاستعمار ، فقد أرغموا فرنسا على أن تترك لهم الإشراف على أمورهم الدينية والأخلاقية ، وأمور الحكم والسيادة مقابل مبلغ من المال يدفعونه لها^(١٩٦) . وكان نظام العزابة^(١٩٧) يضبط أمورهم ويراقبها ويحافظ على قيمهم وأخلاقهم .

وإذا كانت مفاصد العصر الحديث قد أصابت شباب اليوم من كل فئة ، فلم يعد بمقدور أحد أو مجموعة من الناس ، مهما بلغت مراقبتها لنفسها ، أن تكون بنجوة من رياح العصر ، بما فيه من وسائل إعلام سريعة الحركة ، إذا كان الأمر كذلك في العصر الحديث ، فإن خوارج الأمس كانوا أشد انضباطاً وأكثر تقيداً

(١٩٥) علي يحيى معمر ١/١٢٧ .

(١٩٦) الإباضية في موكب التاريخ ١/١٣٠ .

(١٩٧) العزابة: هيئة من نجة الرجال تختار بطريقة دقيقة لتقوم بالإشراف على الجماعة وتوجيه الأمور في المجتمع الإباضي .

والتزاماً بتعاليمهم الدينية والأخلاقية، كانوا يرفضون شيوع الفاحشة
 بينهم، يرفضون وجسود الأغنياء والفقراء، روى صاحب
 الكامل (١٩٨) أن الخوارج في حروبهم مع المهلب، وفي إحدى
 معاركهم، أصابوا بعض السبايا، فلما نودي لشراء السبايا، بالغ
 أحدهم بأم حفص (إحدى السبايا) فبلغ بها سبعين ألفاً، وكان
 ذلك الرجل مجوسياً أسلم والتحق بالخوارج، فشق ذلك على
 قطري بن الفجاءة، وكان يومئذ على رأس الخوارج، فقال:
 ما ينبغي لمسلم أن يكون عنده سبعون ألفاً، إن هذه لفتنة، فقام
 رجل اسمه أبو الحديد العبدى إلى تلك السبية فقتلها، ورضي
 قطري عن ذلك، قال رجل من الخوارج:

كفانا فتنةً عظُمتْ وجلَّتْ

بِحِمدِ اللَّهِ، سيفُ أبي الحديد

أهَابَ الْمُسْلِمُونَ بِهَا وَقَالُوا

عَلَى فِرطِ الْهَوَى: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟

فَزَادَ أَبُو الْحَدِيدِ بِنَصْلِ سَيْفِ

رَقِيقِ الْحَدِّ فَعَسَلُ فَتَى رَشِيدِ

(١٩٨) الكامل للمبرد ١٧٠ - ١٧١ وشرح نهج البلاغة ١/٥٢٠. وشعر الخوارج

.١٠٧/

إن قادة الخوارج الأوائل، كانوا يتمتعون بصفات تؤهلهم لهذه المهمة، فبالإضافة إلى ما روى التاريخ عنهم من مواقف الشجاعة والتضحية والإقدام، والفناء في العبادة، كانوا يحاولون، إذا سنحت لهم الفرصة، أن يتفقهوا في دينهم ويأخذوا من العلم ما يمكنهم أخذه، فقد روي عن نافع بن الأزرق (زعيم فرقة الأزارقة) أنه كان يلاحق فقيه الصحابة الأكبر، عبد الله بن عباس فيأخذ عنه ما وسعه الأنخذ، من ذلك أنه جاءه يوماً، فجعل يسأله حتى أمّله، فجعل ابن عباس يظهر الضجر، وطلع عمر بن أبي ربيعة، على ابن عباس وهو يومئذ غلام، فسلم وجلس، فقال له ابن عباس: ألا تنشدنا شيئاً من شعرك؟ فأنشده:

أمن آل نعيم أنت غادٍ فمبكرُ
غداة غيد أم رائحٍ فمهجراً

حتى أتمّها وهي ثمانون بيتاً، فقال له ابن الأزرق: لله أنت يا ابن عباس! أنضربُ إليك أكبادَ الإبل نسألك عن الدين فتعرض، ويأتيك غلامٌ من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه! فقال: تالله ما سمعت سفهاً.. الخ (١٩٩).

(١٩٩) الكامل للمبرد / ٦٥ - ٦٦.

إن ما سبق يؤكد توجه الخوارج نحو الدين، وشغفهم به دون سواه، فقد ملَّ ابن عباس من كثرة أسئلة ابن الأزرق.

وفي مكان آخر، سأل نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس فقال: أرأيتَ نبيَّ الله سليمان صلى الله عليه، مع ما حوَّله الله وأعطاه، كيف عُني بالهدهد على قلته وضئولته؟ فقال له ابن عباس: إنه احتاج إلى الماء، والهدهد قنَّاء^(٢٠٠) الأرض له كالزجاجة، يرى باطنها من ظاهرها، فسأل عنه لذلك، قال ابن الأزرق: قف يا وقاف، كيف يبصر ماتحت الأرض والفتح يُغطِّي له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه! فقال ابن عباس: ويحك يا ابن الأزرق! أما علمت أنه إذا جاء القدر غشي البصر!^(٢٠١)، وغنيَّ عن التوضيح ما سبَّه نافع بن الأزرق من الإحراج والإرباك للفقير الكبير ابن عباس، وهذا يدل على ذكائه ونفاذ بصيرته ومحاولته فهم حقائق أمور الدين. وذكر فلهوزن^(٢٠٢) أن نجدة بن عامر الحنفي أحد زعماء الخوارج، كتب إلى عبد الله ابن عمر يسأله عن أشياء في الفقه، ولكنها كانت أسئلة عويصة،

(٢٠٠) القنَّاء: العالم بمواقع الماء من الأرض، مأخوذة من القنَّاء.

(٢٠١) الكامل للمبرد: ٦٢/.

(٢٠٢) الخوارج والتبعية / ٨٠ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨.

فترك الإجابة عنها إلى عبد الله بن عباس، فسألوا ابن عباس فدهش كيف أن رجلاً لا يتورع عن سفك دماء المسلمين أنهاراً، بهم ويدقق في الأمور الفرعية الفقهية.

أمر الخوارج مع الرواة والمؤلفين أمر عجيب، فهم بالإجماع يكفرونهم ويخرجونهم من حظيرة الإسلام ويطلقون عليهم التسميات المهينة، فإذا شرع هؤلاء المؤلفون بتفنيد آرائهم ومعتقداتهم، وشرح مبادئهم ومواقفهم، ورووا الأحاديث عنهم في شتى مجالات الحياة، خرج القارىء بانطباع واحد هو: أن الخوارج هم صفوة النماذج البشرية سلوكاً وديناً وخلقاً.

وأشير إلى واحد من مشاهير هؤلاء المؤلفين، وهو الشهرستاني مؤلف كتاب: (الملل والنحل)، كمثال على تعامل المؤلفين مع الخوارج، إذ كلهم يتلاقون مع الشهرستاني في مجمل آرائه، وطريقته في العرض والتصنيف، وإصدار الأحكام.

أسماء الشهرستاني (المارقة) (٢٠٣) ووصفهم بالكفر والمروق

من الدين.

(٢٠٣) الملل والنحل ١/١١٤ - ١١٥.

قسم المسلمين إلى اثنتين وسبعين فرقة ، واحدة منها ناجية ،
وأكد بكل ما يملك من وسائل الإقناع والمنطق والحجة ، أنه لا يجوز
أن تكون هناك فرقتان ناجيتين ، ولا أفراد من فرقة أخرى ، ثم عرض
آراء الفرق ومعتقداتها ومواقفها وسلوكها ، بكثير من الإسهاب —
بما في ذلك الخوارج — ومن يتابع رحلة الشهرستاني ، يجد أنه برهن
بالوقائع ، أن الخوارج هم تلك الفرقة الناجية ، بما قدم لهم من القدوة
الحسنة ، والمثل الأعلى في الأقوال والأعمال .

والتناقض الذي وقع فيه الشهرستاني ، وقع فيه غيره من
المؤلفين ، فهم يكفرون الخوارج في مقدماتهم ، ثم يفصلون القول
عنهم فإذا هم خلاصة المسلمين في طروحاتهم وممارساتهم .

يكفرونهم ، ثم يقولون عنهم : إنهم جمهوريون ، اشتراكيون ،
ثوار ، عباد زهاد شجعان ، صادقون .. الخ .

الخوارج إذاً ، وبالإجماع والوراثية ، كفرية فجرة ، مارقون من
الدين ، خارجون على السلطان — والعياذ بالله — .

إنهم الثورة الملعونة المرفوضة من الجميع ..!

وتعليقاً على ما جاء به الشهرستاني وغيره ، من تقسيم

المسلمين إلى فرق ، ومواقف تلك الفرق من معتقداتها ، أرى أن الفرق بين أصحاب المعتقدات ، لا يكمن في صحة تلك المعتقدات أو فسادها ، بل في موقف معتنقيها منها : إذ يتساوى جميع معتنقي العقائد الدينية والسياسية ، من حيث قناعتهم بصحتها وسلامتها ، وأنها الأفضل والأصلح والأمثل ، وإلا لما اعتنقوها .

بقي أمر الدفاع عنها هو الفارق ، إلى أي حد يبلغ الدفاع عن العقائد ؟ إنه يتراوح بين الدفاع بالقلب واللسان وبين تقديم الدماء والأرواح .

وإذا كان حكام المسلمين — فيما سلف — قد دافعوا عن حكمهم وملكهم ، وقمعوا الثورات ، وأجهضوا الانتفاضات الشعبية ، تحت ستار الدين والشرعية ، فإنها الدنيا تقنعت بالدين ، والأولى لبست ثياب الآخرة .

قال مؤلف النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية^(٢٠٤) عن الخوارج : (لم يحاربهم الأمويون والحجاج ، بسبب نظريتهم الإيمانية ، بل بسبب الخطر الذي كانوا يهددون به

(٢٠٤) حسين مروة ١/٥١٥ .

الدولة الأموية، بينما هم كانوا يحاربون خصومهم لنصرة العقيدة،
وتأييداً للحق المظلوم والدين المضطهد...).

إن أصحاب العقائد السامية، هم الذين يقفون من
عقائدهم مواقف سامية، لأنه لا يخامرهم أدنى شك في صحتها،
لذلك فهم يندفعون لنصرتها بكل عزيمة وتصميم.

لماذا كان الخوارج الثورة الملعونة المرفوضة؟

ثم لماذا كانوا هم الكفرة الفجرة بإجماع المؤلفين؟

الجواب على هذين السؤالين، اللذين هما في الحقيقة،
سؤال واحد، لا يحتاج إلى كبير عناء، فمواقفهم من الفئات
الإسلامية الأخرى موقف عدا، بدأ بتكفير تلك الفئات، وانتهى
بحمل السلاح في وجهها لتقويم ما رأوه اعوجاجاً ونحروجاً عن سواء
السبيل:

١ - الخروج على الإمام الجائر^(٢٠٥)، وهو أحد الأسس التي قام
عليها المذهب الخارجي وهو حق مفروض وواجب مطلوب الأداء،
وقد مارس الخوارج هذا الحق وقاموا بهذا الواجب طيلة حياتهم

(٢٠٥) الملل والنحل للشهرستاني ١١٥/١ ومقالات الإسلاميين ٥٥/٥٥ ومروج الذهب
للسعدي ١٣٨/٣.

السياسية، فكانوا بذلك خطراً حقيقياً يهدد الحكام وأنظمة الحكم التي تعاقبت عليهم.

٢ — إن الفكر الثوري الانقلابي الذي حملته الخوارج، وحاولوا تحقيقه وتطبيقه كان ناقوس الخطر الأكبر، الذي ما فتىء رنينه يقلق الخلفاء ويقض مضاجعهم.

٣ — نظرية الخوارج الجمهورية في الحكم، واستماتتهم من أجل تحقيقها في الواقع العربي الإسلامي، كانت بمثابة الإنذار المرعب والدائم لأنظمة الحكم الملكية الوراثية التي عرفها العالم الإسلامي طيلة قرون كثيرة، هذه النظرية التي تهدد الأساس الذي تقوم عليه أنظمة الحكم، وتنذر بالانهيار، وتطارده بشبح الشورى.

٤ — إن صراحة الخوارج وجرأتهم في قول الحق، كانت تسبب إخراجات وإرياقات للخلفاء والأمراء الذين عاصروهم، سواء أكان ذلك في لقاءهم بهم، أو في غيابهم، فهم ينطقون بالحقيقة الموجعة، ويقولون بألسنتهم كل ما في قلوبهم.

٥ — إن تطرف الخوارج في آرائهم، وتشددهم في أمر تطبيق الشريعة، وحمل الناس على التقييد بحرفية النصوص الدينية، دون

تساهل ولا تيسير، كان عاملاً منفراً في زمن مال الناس فيه إلى التساهل والتهاون، وتعطيل حدود الدين، والتمتع بما أتاحتها ظروف الحياة من شتى المتع، وجمع للجمال وإنفاقه كما تشاء الأهواء، شجعت على ذلك أنظمة الحكم القائمة، وأعانت على إفساد الناس وشراء الضمائر، وساهمت في تفشّي المعاصي والمنكرات.

هذه المنطلقات، وغيرها مما عرف به الخوارج، كانت أسباباً لازمة وكافية، لإلصاق أشنع التهم، ومنها تهمة الكفر والمروق من الدين، تلك التهمة الموجعة القاتلة، في عصر تعتبر القيم الدينية هي أصل التقييم، مما ينفر الناس منهم، ويجعل محاربتهم والتخلص منهم، واجباً دينياً، وخدمة للمجتمع والإنسانية والأجيال القادمة.

إن فكر الخوارج الثوري خطر على الأنظمة المزورة، التي تتستر بالشرعية والدين وحماية المصالح العامة، وتدّعي أنها تحمي وتسهر للحفاظ على قيم الأمة ومقدساتها، وتزعم أنها توزع الحق والعدل والخير على الناس كافة، دون تمييز أو محاباة، وهي لم توزع في واقع الأمر، إلا الأموال العامة على الأعوان والأنصار.

إنها الثورة التي تكشف الزيف، وتعري الواقع، وتسمّي

الأشياء بأسمائها ، وتشير بإصبع الاتهام والإنذار إلى مواطن الخطأ والظلم ، لذا فإنها كانت ومازالت مرفوضة من كل أنواع الحكام الظالمين ، والمتسلطين بالقوة والهيمنة العاتية ، سواء في ذلك عالم أمس ، أم عالم اليوم ، عالمنا العربي أو العالم الأوسع ، ممن يتزياً بالديموقراطية والعدالة والتقدمية والثورية .

لتكن عدالة ولو فني العالم^(٢٠٦) هذا مبدأ الخوارج في سعيهم لتحقيق أهدافهم ، والهدف الكبير يستحق التضحية وبذل الغالي والرخيص ، هذا منطق الثوار ، لا منطق الإصلاحيين الذين يتخلون عن المبادئ مقابل السلامة والأمان ، ويرضون من الغنيمة بالإياب ، ويتبنون المواقف التي تدعي المحافظة على الحضارة القائمة ، وعدم تعريض المجتمع لويلات التغيير والتبديل ، ونسف القيم السائدة ، التي هي في الحقيقة ، غير ذات مضمون ، أو أن مضمونها كاذب مزور ، وهذا الموقف المتخاذل ، هو الوجه المقابل للثورة ، والمعاكس لها ، والذي انعكست عليه صور معظم فئات المسلمين . جاء في كتاب الخوارج والشيعة لفلهوزن : الإسلام المحافظ يضع الجماعة فوق كل شيء ، ويفرض الطاعة للحكومة

(٢٠٦) الخوارج والشيعة ، فلهوزن / ٤٥ قال : (لتكن عدالة ولو فنت الدنيا بأسرها) .

والتوافق معها . أما الإسلام الثائر ، فهو يضع فكرة حكم الله ضد الحكومة القائمة ، يدعو الناس إلى قتال أمية وعمالها في سبيل الله ، وإلى قتال الشر والقوة ، في سبيل الحق والعدل . (٢٠٧)

هذه هي الأسباب الحقيقية ، لاستبعاد فكر الخوارج ومنطلقاتهم ، وبالتالي تكفيرهم وتسفيه آرائهم .

وطبيعي أن يسارع المؤلفون والكتاب ، لتلبية رغبات الحكام ، ماداموا صنائع لهم وأدوات في أيديهم ، فيطلقون على الخوارج وغير الخوارج ، ما يرضي أولئك الحكام ، من تسميات وألقاب ، وتاريخ العرب تاريخ حكام ، لا علاقة له بالشعوب .

كان طبيعياً والحالة هذه أن يكون الخوارج ظاهرة مرفوضة مذمومة ، وأن يكونوا كفرة فجرة مارقين من الدين .. ألم يقولوا : (لا) للسلطان ! .

أما ما جاء من أسباب شكلية لتكفير الخوارج ، وروايات سلفية ، فما كانت لتؤخذ بعين الاعتبار والتقدير ، لو لم تلاق هوى في الفؤاد ، واستعداداً لتقبلها وإشاعتها بين الناس ، كم من أصل

(٢٠٧) الخوارج والشيعة / ٢٩ - ٣٢ .

من أصول الدين ، تم تجاهله ؟ ولم من آية كريمة وحديث شريف ،
مرّ على المسامع كأن لم يكن ؟ فما بال الناس تمسكوا بحديث
مروي عن النبي (ﷺ) لا يدري أحد مدى صحته ، وأغفلوا حدود
الدين وآلاف الآيات والأحاديث التي تثبت صحتها ، وصحة
نسبتها .

الحديث المروي عن رسول الله (ﷺ) بشأن تكفير
الخوارج ، يتعلق برجل سمّته كتب السيرة والتاريخ (ذا الخنوصرة
مرة ، ومرة أخرى ذا الخنوصرة ، ومرة ثالثة ذا الثديية ، وسمّته
المُخَدَج . كذلك سمي عمراً وسمي حرقوصاً .. الخ) وقالت
الرواية : إنه عارض رسول الله (ﷺ) في تقسيم غنائم خيبر ، وأنهم
عدالته ، فحاول كبار الصحابة قتله ، فلما لم يفلحوا قال رسول الله
(ﷺ) : « سيكون لهذا ولأصحابه نبأ » . وفي رواية أخرى وإسناد
آخر أن النبي (ﷺ) قال : « لو قتل هذا ، ما اختلف اثنان في دين
الله » .

وفي رواية ثالثة أن هذا الرجل لم يعترض على قسمة الرسول
لغنائم خيبر ، بل على قسمة لغنائم من اليمن أرسلها علي بن أبي
طالب ، إذ قام — وهو مضطرب الخلق ، غائر العينين ، ناثيء

الجبهة، فقال: لقد رأيتُ قسمةً ما أريدُ بها وجهُ الله، فغضب رسولُ الله حتى تورّد خداه، فقام إليه عمر بن الخطاب فقال: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال (ﷺ): «إنه سيكون من ضئضيء» (٢٠٨) هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، تنظر في النصل فلا ترى شيئاً، وتنظر في الرّصاف (٢٠٩) فلا ترى شيئاً، وتتمارى في الفوق (٢١٠) «ويروي أنه زاد في وصفهم فقال: «سيماهم التحليق» (٢١١) يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، علامتهم رجلٌ مخدج اليد (٢١٢) «(٢١٣). وقد ذكرنا قصة المخدج، فيما مضى من هذا الكتاب، وأنه قتل في النهروان.

وقد اختلفت رواية الحديث فنقله فلهوزن عن الطبري (٢١٤) بالنص التالي: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله!

(٢٠٨) ضئضيء: جنس.

(٢٠٩) الرّصاف: عصب يشد على النصل.

(٢١٠) الفوق: مشق رأس السهم.

(٢١١) التحليق: تقصير الشعر.

(٢١٢) مخدج اليد: ناقصها.

(٢١٣) وردت الروايات على اختلافها في الكامل للمبرد: ٣٠ — ٣١ — ٥٧ —

٥٨ — ٥٩، وفي غيره من كتب السير والتاريخ.

(٢١٤) الجوارج والشيعة / ٣٤.

ألا نقتله؟ فقال: «لا! دعوه، فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه، كما يخرج السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في الفوق فلا يوجد شيء، سبق الفرث والدم» لقد نقل فلهوزن القصة، وقال: إن النبي كان يقسم غنائم يوم حنين، ثم قال: «وطبيعي أن هذه القصة عن هذا السلف القديم للخوارج، قصة أسطورية»^(٢١٥) كما قال مترجم كتاب الخوارج والشيعة، عبد الرحمن بدوي عن الرجل موضوع القصة: إنه شخص مجهول تماماً، وقال أيضاً عنه: فهذا الخارجي القديم المجهول الاسم، يبدو إذن إنه صورة قديمة التاريخ^(٢١٦).

هذه القصة، وهذا الحديث، على ما فيها من ضعف واضطراب وتناقض، وما يظهر فيها من لا منطقية ولا معقولية، تناقلهما الرواة والمؤلفون دون مناقشة ولا تمحيص، وتَمَسَّكَ بالحديث المروي من تَمَسَّكَ، لما فيه من خدمة لمصلحته.

سُمِّي الخوارج (المارقة) واستمرت التسمية لاستمرار

(٢١٥) الخوارج والشيعة / ٣٥ - ٣٦.

(٢١٦) حاشية المترجم من كتاب الخوارج والشيعة / ٣٥ - ٣٦.

المصلحة فيها ، والعرب سلفيون تأخذ الأجيال عن سبقها من غير تفكير فيما تأخذ أو تدع .

وإذا تجاوزنا موقف جيل الخوارج الأول من عليّ ، وما حصل فيه من مغالطات ، ومن سوء فهم وتفاهم ، وما تبع ذلك من تعنت ، كان سببه ذلك الموقف الصَّعبُ المُربِكُ الذي وُضِعوا فيه : من رفع للمصاحف ، واكتشاف الخدعة ، وما يقتضيه الوضع من تحريك سريع ، واتخاذ قرارات عاجلة حاسمة ، ثم تراجع عن تلك القرارات ، وتمسك كل فريق بما رآه حقاً .

إذا تجاوزنا ذلك ، وجدنا أن الخوارج ، كانوا ذوي منطق سليم ، وسلوكية فذة ، وأخلاقية عالية ، ونظرة مثالية إلى الأمور ، وكانوا مثلاً أعلى في تدينهم ، في موقفهم من الحكام ، في سلوكهم الشخصي ، وصدقهم مع أنفسهم ، ومراقبتهم لتصرفاتهم ، وحبهم لله وللآخرة ، وزهدهم في الدنيا ، ونظريتهم الجمهورية في الحكم .

كل ذلك يجعلهم ينفذون عبر غبار التاريخ وتضليله ، مثلاً أعلى للثورة النقية النظيفة ، وقدوة حسنة للثوار ضد الظلم والتسلط والقهر والتفاوت الطبقي والاقتصادي في كل المجتمعات .

وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال يقول : لو أن الخوارج استطاعوا

تأسيس دولة مترامية الأطراف ، وامبراطورية شاسعة الأرض ،
كالدولة الأموية أو العباسية ، ثم أرادوا أن يسيروا هذه الدولة وتلك
الأمبراطورية ، بمقتضى ما يحملون من مبادئ ، ويطبقون عليها
مالديهم من برنامج عمل ، هل كانوا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً ؟
هل ينجحون فيما يريدون ؟

بتعبير آخر : لو أتيح لدولة الخوارج أن تظهر إلى الوجود ،
وتتسلم مقاليد ومقدرات العالم الإسلامي ، أكانت قادرة على تطبيق
نظرياتها المثالية ، وتحقيق مبادئها المتشددة في عالم الواقع البشري ؟
والتعامل اليومي المباشر المعقد مع الأفراد والجماعات ؟ هل كان
بمقدورها أن تملأ الأرض حقاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ؟ ...
هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه ، لأنه بقي سراً في ضمير الغيب ،
ولكن الذي نستطيع قوله : إن الدلائل كانت تشير إليه ، وإن القوم
كانوا جادّين بتنفيذ كل ما يقولون ، وإن لحظات الاستقرار التي
نعموا بها ، كانت مؤشراً حسناً في هذا الاتجاه .. إن دولتهم لم تبرز
إلى عالم الواقع ، وبقيت حلماً جميلاً يداعب خيال المتعطشين
للمحق والعدل .. وأجمل الأحلام ما لم يتحقق ..

إن توجه الخوارج نحو تطبيق قيم السماء على الأرض ،

وانصرفهم إلى تحقيق المجتمع الإسلامي الأمثل، الذي نسجته
مخيلتهم، إن ذلك شغلهم عن التوجه نحو أمور هي من صميم
ما يهم الدولة والأمة، كالإصلاح الاجتماعي، والتنمية الاقتصادية
وتنشيط حركات الثقافة والعلم والعمران وغير ذلك. فلم يؤثر عنهم
طرازٌ عمرانيّ خاص بهم، ولم يخلفوا أوابد حضارية مشهورة،
كالقصور والمساجد التي بقيت تدل على بناتها، والسبب في ذلك
كله، أنه لم يتح لهم أن يمتلكوا الأرض ويقيموا عليها دولتهم
الموعودة، بل كانوا أشبه بحكومة في المنفى، أو إنهم شعب
بلا أرض، أو مجموعات من اللاجئين النازحين لا يعرفون طعم
الاستقرار.

وعلى الرغم من ذلك، فإنهم سجلوا تفوقاً في بعض
المجالات، وتقدماً مشهوداً في بعض نواحي الحياة الاجتماعية
والحضارية.

١- فالمرأة في الخوارج ذات شأن مرموق، ظهر ذلك على ألسنة
المنظرين الأوائل للسياسة الخارجية، إذ أجازوا أن تتقلد الخلافة،
شأنها في ذلك شأن الرجل، إذا توافرت لديها شروط الكفاءة
المطلوبة، وهذا وحده كافٍ لأن يعطي المرأة نفساً جديداً، لم تكن

المرأة العربية لتعرفه من قبل ، فالخلافة منصب ديني كبير ، يجب أن يضطلع به الرجال العظماء الفقهاء في أمور دينهم ، الأكفاء في أمور الإدارة والحرب والقيادة بشتى أشكالها ، وما دام الباب مفتوحاً أمام المرأة الخارجية ، فلا بد أنها ستعدّ نفسها لجلال الأمور ، فكان بين نساء الخوارج الخطيبات يصعدن المنابر ، ويبدن ضروباً من الخطابة يعجز عنها الرجال ، ومنهن من تنازل الشجعان من الرجال متحدية الموت ، ومنهن الأم التي تقدر رسالة الأمومة ومسئولياتها ، تعلم أبناءها أفانين القتال وترضعهم حليب العقيدة الخارجية ، وفيهن الزوجة التي تأخذ بيد زوجها نحو بلوغ المآرب السامية ، ومن نساء الخوارج الشاعرة والفقيرة ، وغير ذلك مما كان للرجال سواء بسواء ، على تفاوت في النسبة .

فقد نفذ إلينا من ظلام التاريخ ، الشيء الكثير عن تلك النماذج النسائية الفريدة .

من أشهر نساء الخوارج غزالة ، زوج شبيب بن يزيد الشيباني ، فقد هرب الحجاج منها ومن زوجها ، وتحصن بدار الإمارة بالكوفة ، فدخلت غزالة مسجد الكوفة وصلت فيه ركعتين — كانت قد نذرتهما على نفسها — قال عنها

المسعودي (٢١٧) وصاحب الأغاني (٢١٨) : كانت غزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم، وأرسل عبد الملك، حين بلغه هرب الحجاج وتحصنه بدار الإمارة بعساكر كثيرة، عليها سفيان بن الأبرد، لما هرب الحجاج من غزالة عيَّره بعض شعراء الخوارج (عمران بن حطان أو أسامة بن سفيان البجلي) بقوله :

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامةٌ
ربدأً تنفسرُ من صفير الصّافر

هلاً برزت إلى غزالة في الضحى
أم كان قلبك في جناحي طائر

ومن نسائهم أم حكيم، زوج القائد الخارجي قطري بن الفجاءة، والتي قال فيها :

لعمرك إني في الحياة لزاهد
وفي العيش مالم ألق أم حكيم
من الخفرايت البيض لم يُر مثلها
شفساءً لذي بث ولا لسقيم

(٢١٧) مروج الذهب ١٣٩/٣ .

(٢١٨) الأغاني ١٥٠/١٦ والبيان والتبيين ٣٦٥/١ .

وقد وصفتها الروايات بأنها: كانت من أشجع الناس،
وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بدنيها تمسكاً، أنخبر من شاهدتها في
الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز، والخوارج يفلئونها
بالآباء والأمهات:

أحمل رأساً قد سئمت حملهُ وقد ملئت دهنهُ وغسلهُ
ألا فتى يحمل عني ثقلهُ (٢١٩)

كما ذكرت كتب التاريخ والأدب اسم البلجاء أو البجاء أو
النجاء، وهي امرأة من يربوع كانت تحرض على ابن زياد، وتذكر
تجبره وسوء سيرته، وكانت من المتهجدات، فذكرها ابن زياد، فقيل
لها أن تتخفى، فرفضت أن يلقي أحدٌ مكروهاً بسببها، فقطع ابن
زياد يديها ورجليها بسوق البصرة (٢٢٠).

ولا ننسى أن فيهن الشاعرة المبدعة، تتقدم في هذا المضمار
(الفارعة) أخت القائد الخارجي الذي ثار على الرشيد سنة
١٧٨ هـ في الجزيرة السورية، وقتله القائد العباسي يزيد بن مزيد
الشيبياني، ومما رثته فيه الفارعة قولها: (٢٢١)

(٢١٩) الكامل للمبرد ١٢٣ - شرح نهج البلاغة ٥١٨/١.

(٢٢٠) الكامل في التاريخ، لابن الأثير ٥١٨/٣ والخوارج والشيعة ٦٦.

(٢٢١) شرح النهج ٥٩١/١، والبيان والتبيين ٣٤٢.

أيا شجرَ الخابور مالك موقساً
كأنك لم تجزعْ على ابنِ طريفِ
فتى لا يحبُّ الزادَ إلا من التُّقى
ولا المالَ إلا من قنسى وسيوفِ
وسنذكر في أدب الخوارج مزيداً من الإيضاحات عن هذه
القصيدة وغيرها من شعر الفارعة .

وجاء في كتاب البيان والتبيين، تحت عنوان: (في باب
ذكر النُّسَّاك والزُّهَّاد من أهل البيان). ومن نساء الخوارج:
البلجاء، وغزاة، وقطام، وحمادة، وكحيله. (٢٢٢)

وقال الحجاج لامرأة من الخوارج: واللَّهِ لأُعَدِّتْكُمْ عَدًّا،
ولأحصُدُّتْكُمْ حَصْدًا، فقالت: أنت تحصد واللَّهِ يزرع، فانظر أين
قدرة المخلوق من قدرة الخالق (٢٢٣) وأتى الحجاج بامرأة من
الخوارج، ومحضرته يزيد بن أبي مسلم موله، — وكان يستسرُّ برأي
الخوارج — فكلم الحجاج المرأة فأعرضت عنه، فقال لها يزيد بن
أبي مسلم: الأميرُ وملكُ يَكَلِّمُك! فقالت: بل الويلُ واللَّهِ لك

(٢٢٢) البيان والتبيين للجاحظ ٣٦٥/١.

(٢٢٣) البيان والتبيين ٣١٦/٢.

يا فاسقُ الرِّدِّيُّ . والرِّدِّيُّ من الخوارج : هو الذي يعلم الحق من قوهم ويكتمه (٢٢٤) .

وبلغ من خوف ولاية بني أمية من نساء الخوارج ، أن زياداً كان يقتل المرأة الخارجية ويعريها ، فكان ذلك ما منع الكثيرات من نسائهم من الخروج (٢٢٥)

هذه الطائفة من أخبار نساء الخوارج ، تبين مدى تقدم المرأة عندهم في مختلف مجالات الحياة .

ولانستطيع الادعاء بأن عامة نساء الخوارج كن بنفس منزلة غزالة وأم حكيم والفارعة ، وأمثالهن ، وإذا فنحن نحمل المجتمع الخارجي فوق طاقته ، ونحمل المرحلة التاريخية التي نتحدث ضمن إطارها ، فوق طاقتها أيضاً ، لكن الملفت للنظر تلك النسبة المرتفعة من المتفوقات في نساء الخوارج ، مما يدل على الوضع الخاص الذي امتازت به المرأة الخارجية ، بالنسبة لزمانها ، نتيجة لروح المساواة والديموقراطية التي كانت تسود تعامل الخوارج مع نسائهم .

وتظهر المرأة في أدب الخوارج ، وبخاصة في شعرهم ، امرأة

(٢٢٤) الكامل للمبرد / ٦٧ .

(٢٢٥) الخوارج والشيعة / ٦٤ والكامل للمبرد / ٧٩ .

صارمة الجدد، آخذة نفسها بالحشمة والوقار والتطلع إلى جلائل الأعمال، لا تولي كبير عناية لزيئتها وتبرجها وتلبية نداء شبابها، بل إن اهتمامها متجه نحو أمور مغايرة تماماً، فهي تعجب بالمقاتل المتفاني في سبيل عقيدته، وتحب — إن أحببت — الرجل الذي نذر نفسه لله وللدين، لا يغريها الشباب اللاهي ولا المال والجاه وما إليهما من مظاهر الدنيا ومغرياتها، وكان الرجل الخارجي يتقرب إليها بما يبيد من استبسال في الحرب وفناء في العقيدة، لا بما يتصف به من رشاقة قد وهاء وجهه وأسرته وماله، لنستمع إلى ذلك الشاعر المقاتل (٢٢٦) :

ليت الحرائر بالعراق شهدننا
ورأيننا بالسفج ذي الأجبال
فنكحن أهل الجدد من قرساننا
والضارين جماجم الأبطال

تتطلع بإعجاب إلى الرجل العظيم، يقول القائد الخارجي الكبير قطري بن الفجاءة، في أم حكيم (يوم دولاب) : (٢٢٧)

(٢٢٦) هو رجل من سدوس اسمه المعتق أو المعتق (الكامل — ٢٠٣). وشرح النهج

.٥٣٣/١

(٢٢٧) شرح النهج ٦٠٥/١ والكامل للسود ١٢٣ وتاريخ الشعر العربي للكفراوي

.١٥٠/٢

ولو شهدتنا يومَ دولاَبَ أبصرتْ
 طعانَ فتى في الحربِ غيرِ ذميمِ
 ولو شهدتنا يومَ ذاكِ وخيلُنَا
 تُبيحُ من الكفَّارِ كلَّ حريمِ (٢٢٨)
 رأَتْ فتيةً باعوا إلهَ نفوسِهِمْ
 بجنساتِ عدنٍ عندهُ ونعيمِ

ولا بد أن يكون هؤلاء الشعراء يتقربون إلى المرأة التي يهتمون
 بها أو يحبونها، بما هو محبب لها أثير عندها.

وحتى الأم التي فقدت ابنها، فهي رابطة الجأش راسخة
 العقيدة، تتأهب للثأر والدفاع عن الدين، ولا يعينها من أمر موت
 ابنها إلا ما يعنيه ذلك الموت بالنسبة للقضية الخارجية، تأييداً لها
 ونحلاًناً لأعدائها. وستكون تلك الأم أكثر رضياً وقبولاً إذا كان
 ابنها قد قضى في حرب عن حسن بلائه فيها، تقول أم عمران بن
 الحارث في رثاء ابنها: (٢٢٩)

(٢٢٨) المقصود (بالكفار) أعداء الخوارج من المسلمين.

(٢٢٩) الكامل: ١٢١/١ - وشرح النهج ٦٠٥/١ - وشرح الخوارج ٤٠/١.

اللَّهُ أَيَّدَ عَمْرَاناً وَطَهَّرَهُ
وكان عمران يدعو الله في السحر
يدعوه سرّاً وإعلاناً ليرزقهُ
شهادة بيدي ملحادةٍ غدر
ولّى صحابته في حرّ ملحمةٍ

وأذكر أخيراً، مريم (الجميذاء) زوج الزعيم الخارجي الذي
اشتهر بالخطابة والشجاعة، وهو أبو حمزة الخارجي، كانت تقاتل
مع زوجها، وقد قتلت معه وهي ترجز وتقول: (٢٣٠)

أنا الجميذاءُ وبنْتُ الأعلَمِ من سأل عن اسمي فاسمي مريمُ
بعثُ سوارِي بسيفٍ مخدمٍ (٢٣١)

٢ — وإذا أردنا إضاءة بعض الجوانب التي تنفع في مجال الإحاطة
بأحوال الخوارج، فإن المفيد إجراء بعض المقارنات العابرة، بينهم
وبين بعض الفرق الإسلامية التي لعبت دوراً هاماً في تفكير الأمة
العربية وثقافتها، وعلى الأخص فرقة المعتزلة، دون ما إضافة أو تعمق

(٢٣٠) الأغاني ١٠٩/٢٠.

(٢٣١) مخدم: أي قاطع.

يجعلان من المقارنة موضوعاً قائماً بذاته، لأن الإطالة في هذه المقارنات عملية عسيرة من جهة، وطويلة من جهة أخرى، وقد آثرت أن أشير إلى علاقتهم بالمعتزلة، تأثيراً وتأثيراً، سلباً وإيجاباً، مما وقع تحت علمي وبغاية الاختصار.

فالمعتزلة، تلك الفرقة المثقفة التي لعبت دوراً هاماً في الفكر العربي الإسلامي، والتي حملت نفسها مسؤولية التنظير للأمة، في كل أمور دينها ودنياها، كانت ترى أن مهمتها تنتهي عند تبيان ما يصح وما لا يصح، ما يجوز وما لا يجوز، دون تحريك ساكن من أجل إحقاق حق، أو إبطال باطل، وبذلك ضمن المعتزلة بقاءهم، وضمنوا أكثر من ذلك، حماية الدولة لهم وتبنيها لآرائهم (كما كانت الحال في عهد المأمون العباسي).

لم يكن المعتزلة مصدر إقلاق أو إزعاج للحاكم الأموي أو العباسي، ماداموا لم يحملوا سلاحاً، ولم يعلنوا تمرداً بالقول أو بالفعل، ولا شك أن لديهم بعض الآراء التي لم ترق لحكام بني أمية بشكل خاص، وبعض حكام بني العباس، ولكن أمور الخلاف لم تصل إلى الحد الذي فكر الحكام معه، بالقضاء عليهم أو بمقاطعة فكرهم وفلسفتهم.

وهكذا فقد نعم المعتزلة بالاستقرار والهدوء والتشجيع والحماية، ثم التبني من الدولة، مما لم يتح مثله ولا ما يقاربه، للخوارج ..

آسـ فمن حيث النشأة، لا بد أن يكون الخوارج أسبق في الظهور، على مسرح الحياة العامة، والواقع السياسي والاجتماعي والديني والفكري .

كانت نشأة الخوارج (الرسمية) في معركة صفين سنة سبع وثلاثين للهجرة، وولد معهم فكرهم السياسي والديني كشعارات نادوا بها (لا حكم إلا لله كفروا مرتكب الكبيرة) إلى غير ذلك من أفكار استقرت صورها في أذهانهم كمبادئ اتخذوها دليل عمل لهم .

بينما ظهر المعتزلة في أوائل القرن الهجري الثاني، ظهوراً أولياً، بشرَّ به شيخُهم الحسنُ البصريُّ، في حلقتِه بالبصرة (توفي سنة ١١٠ هـ) وقد اعتزل حلقتَه، وأصلُ بن عطاء، فأسسَ هو وعمرو بن عبيد مدرسة الاعتزال، فإذا علمنا أن مولد الرجلين ووفاتهما كانت على الشكل التالي (عمرو بن عبيد: ٨٠ هـ — ١٤٤ هـ) و (وأصل بن عطاء

٨٠ هـ - ١٣١ هـ) (٢٣٢) وإذا كان ليس من الممكن أن يؤسس
مذهب الاعتزال قبل بلوغهما العشرين ، فيصبح من المسلم به أن
القرن الهجري الثاني كان بداية ظهور الاعتزال .

ثم إن الوجود القوي والحقيقي لمذهب الاعتزال ، كان بين
١٠٠ هـ - ٢٥٥ هـ) (٢٣٣) بينما كان وجود الخوارج قبل
هذا التاريخ وبعده .

ب - كان الحسن البصري يرى رأي الخوارج في تخطئة علي بقبوله
التحكيم ، « كان إذا جلس فتمكّن من مجلسه ، ذكر عثمان فترحم
عليه ثلاثاً ، ولعن قتلته ثلاثاً ، ويقول : لو لم نلعنهم للعننا ، ثم يذكر
علياً فيقول : لم يزل أمير المؤمنين علي - رحمه الله - يتعرف النصر
ويساعده الظفر ، حتى حكّم ، فلم تحكّم والحقّ معك ؟ ألا تمضي
قدماً - لا أبالك - وأنت على الحق ! » (٢٣٤)

ويروي المؤرخون هذه القصة عن ظهور المعتزلة (٢٣٥) :

(٢٣٢) معتزلة لزهدي جار الله / ١٢ .

(٢٣٣) ضحى الإسلام ٩٠/٣ .

(٢٣٤) الكامل للمبرد / ٥٣ - ٥٤ وفجر الإسلام : ٢٦١ .

(٢٣٥) المعتزلة : ١٧ .

دخل أحدهم على الحسن البصري وهو يدرس في مسجد
البصرة فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون
أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج عن الملة، وهم
وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة
عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من
الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة
وهم مرجئة الأمة، فكيف تحسم لنا في ذلك اعتقاداً؟.

ففكر الحسن وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا
لأقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن ولا كافر مطلق، بل هو في
منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وترك حلقة الحسن البصري،
فقال: اعتزلنا واصل.

جـ— لقد أشار المؤلفون إلى الصلة المبكرة بين الخوارج والمعتزلة،
فقال فلهوزن^(٢٣٦) ما معناه: كما أن الخوارج انفصلوا عن تربة
الشيعة، فإن المعتزلة خرجوا من أحضان الخوارج، وذلك بأخذهم
لمسألة مرتكب الكبيرة، التي بدأ الخوارج حياتهم بها وسجلوا

(٢٣٦) الخوارج والشيعة / ٣٨ (مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨).

موقفهم في المجتمع الإسلامي على أساسها، فكفروا عثمان وعلياً
والحكيمين ومن قبل التحكيم .. الخ ..

وتؤكد الكتب أن شيخِي المعتزلة الكبيرين: واصل بن
عطاء، وعمرو بن عبيد كانا يوافقان الخوارج في كبرى مسائلهم
النظرية، وهي مسألة تخليد مرتكب الكبيرة في النار، وكان الناس
في تلك الأيام ينظرون لهما نظرتهم إلى الخوارج فيكفرونهما ويبرؤون
منهما، كما يكفرون الخوارج ويبرؤون منهم سواء بسواء، قال
اسحاق بن سويد العدوي الفقيه: (٢٣٧)

برئت من الخوارج لست منهم
من الغزّال منهم وابن باب (٢٣٨)
ومن قوم إذا ذكروا عليّاً

يردون السلام على السحساب
د- أكد بعضهم نسبة المعتزلة إلى الخوارج، وأسعوهم (مخانيث
الخوارج) (٢٣٩) وواضح أن هذه التسمية تشير إلى الاعتدال

(٢٣٧) مروج الذهب ٢٢/٦ - والكامل ٣٢/ والمعتزلة: ٩

(٢٣٨) الغزّال: هو واصل بن عطاء، سمي بذلك لأنه كان يلتمس الغزّالين، ابن باب:

عمرو بن عبيد.

(٢٣٩) كتاب المعتزلة / ٩ .

والمسالمة والملاية التي اتصف بها المعتزلة ، قياساً بالخشونة والقسوة والطبيعة القتالية المعارضة التي اتصف بها الخوارج ، أو أنها تشير إلى موقف كل من الفريقين من قضية بعينها ، كقضية مرتكب الكبيرة ، فبينما يجعله الخوارج خالداً في النار ، يخفف عليه المعتزلة قسوة الحكم فهو في منزلة وسط بين الكفر والإيمان ، أو أنها تشير إلى موقف الطرفين من مجموعة من القضايا ، حيث يأخذ الخوارج جانب التشدد والتضييق ، ويأخذ المعتزلة جانب التساهل والتيسير .

هـ — أشار بعض المؤلفين إلى أن أئمة الاعتزال الأوائل من علماء الكلام ، قد تأثروا بالخوارج ، وأن الخوارج شاركوا في وضع الزندقة النظرية — أي علم الكلام — (٢٤٠) وهذا يكون المعتزلة مدينين للخوارج بكليات مذهبهم ، بدءاً من المقولة الكبرى (مرتكب الكبيرة) وانتهاءً بأهم منهج استعمله المعتزلة في علومهم وهو علم الكلام ، وإذا كان الخوارج قد نخلدوا مرتكب الكبيرة في النار واستقرّوا على هذا القرار ، فإن المعتزلة حملوا الفكرة وقلّبوها على وجوهها وسلّطوا عليها أشعة العقل والمنطق وغيرهما من وسائلهم

(٢٤٠) الخوارج والشيعة / ٣٨ — ٤٦ .

المعروفة، فاكتفوا بتحييده آخر الأمر ووضعه في منزلة ثالثة، وفي هذا مما لأه وإرضاء للكثيرين من الحكام والمحكومين على السواء، وفيه انسجام مع الطبيعة المسألة للمعتزلة^(٢٤١).

و— كان أقصى تطرف عند المعتزلة في موقفهم من السلطان الجائر، وخروجهم عليه، عند الإمكان والقدرة، أي إذا أمكنهم ذلك وقدروا عليه^(٢٤٢) وكانت نظرتهم إلى خلفاء بني أمية، كنظرة الخوارج، وهي أنهم ليسوا ولاية حق، والذي أقعدهم عن الخروج زمن معاوية ويزيد وغيرهما، كما أقعد الصحابة والتابعين، عجزهم عن إزالتهم ولقهر بني أمية لهم بطعام أهل الشام^(٢٤٣) و ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾، وهكذا فإن مذهبهم، أنه لا يصح الخروج إلا عند غلبة الظن بنجاح الثورة.

بينما كان الخوارج خارجين ثائرين على السلطان الجائر، قدروا على ذلك أم لم يقدرُوا، ويضيفون إلى ذلك أن الخروج على

(٢٤١) الكيائر (مع بعض الاختلاف): هي: الشرك— قتل النفس— الزنا— عقوق الوالدين— شهادة الزور— السحر— أكل مال اليتيم— أكل الربا— التولي عن الزحف— قذف المحصنات.

(٢٤٢) مقالات الإسلاميين ٤٦٦/٢ وضحى الإسلام ٦٦/٣.

(٢٤٣) ضحى الإسلام ٨٠/٣ وشرح النهج.

السلطان الجائر، واجب فردي، وفرض عين، لا ينوب فيه أحد عن أحد، كما أنهم لم يحكموا العقل — شأن المعتزلة — في هذا الخروج وهذا القتال، وهل يوصلان إلى الهدف المنشود أم لا يوصلان، المهم أنهم خرجوا على الظلم وقالوا: (لا) للطغيان، ولكن بعد ذلك ما تكون النتيجة..! (٢٤٤)

ز — يرى عامة المعتزلة أنه لا بد للمسلمين من إمام ينقذ أحكامهم، ويقيم حدودهم ويعبئ جيوشهم، ويقسم غنائمهم.. الخ ويرى القليل منهم الاستغناء عن الإمام (كأبي بكر الأصب، وهشام القوطي) (٢٤٥).

بينما يرى الخوارج أن الإمامة غير واجبة فإذا استطاع جمهور المسلمين أن يتعادل ويتناصر ويتعاون على البر والتقوى، وينشغل كل مكلف بواجبه استغنوا عن الإمام.

ح — حديث (الأئمة من قريش) قبل به بعض المعتزلة، ورفضه بعضهم الآخر إذ أنخصوه لمقاييس المنطق والعقل فلم يثبت أمامها، كما أنهم قالوا: إنه غير متواتر، ولو كان متواتراً صحيحاً لما

(٢٤٤) ضحى الإسلام ٦٧/٣.

(٢٤٥) ضحى الإسلام ٧٦/٣.

ادعت الأنصار مشاركة المهاجرين في الخلافة، وقد بالغ بعض المعتزلة في ذلك حتى قالوا: «إذا استوى الحال في القرشي والعجمي، فالعجمي أولى بها، والمولى أولى بها من الصميم» (٢٤٦) وربما قصدوا بذلك ألا يكون للخليفة عشيرة تنصره وتدافع عنه، إذا أريد استبداله أو عزله، في حال فساده أو خروجه عن جادة الصواب.

ولئن أنكر الخوارج بعض الأحاديث غير المتواترة كحديث (الأئمة من قريش)، فإن المعتزلة كانوا أكثر إنكاراً، إذ كانوا يعرضون الأحاديث على العقل، فما أجازته أثبتوه، وما لم يجز نفوه.

ومما أنكروا من الأحاديث: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته» وأنكسروا حديث «لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن».. الخ (٢٤٧)

ط — كان اهتمام المعتزلة بأسر الخوارج كبيراً، يتسقطون أخبارهم، ويتعرفون منطلقاتهم النظرية ويناقشونها فيما يناقشون، وقد أفادوا منها الكثير وكانوا على علم بسلوكهم ومجمل آرائهم، فلما وقع شيخ

(٢٤٦، ٢٤٧) ضحى الإسلام ٣/٨٥ - ٨٦.

المعتزلة الأكبر واصل بن عطاء بأيديهم في رفقة له ، تولى محاورتهم نيابةً عن رفقته ، فادّعى أنهم مشركون مستجiron ليسمعوا كلام الله ويفهموا حدوده ، وذلك لعلم واصل أن الخوارج يجيرون المشرك المستجير ويبلغونه مأمّنه ، بينما يقتلون المسلم المخالف لهم^(٢٤٨) وكان لواصل ما أراد من النجاة .

ي — بالغ المعتزلة في استعمال العقل ، وأخضعوا كل شيء لأحكامه وسلطانة ، كما استعملوا الجدل والمنطق سبيلاً للمعرفة ، فأصبح الدين عندهم مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ، مما أفقده البساطة والحرارة ، وجعله كالمسائل الرياضية ، بعيداً عن الشعور الحسي ، والعاطفة الموحية ..

أما الخوارج فقد أبقوا الدين على فطرته وأخذوا بظاهر نصوصه دون تفلسف أو جدل ، كانوا يؤمنون بقلوبهم لا بعقولهم فحافظ بذلك الدين والتدين عندهم على روحانيتهما وحميميتهما ، وحرارة الإيمان وحيويته ، أمران لازمان لعلاقة العبد بربه . وعلى هذا أمكن القول : إن نظام المعتزلة جيد التفكير ضعيف الروح ، غلا في تقدير العقل ، وقصر في تقدير العاطفة ، وكان نظام الخوارج على

(٢٤٨) الكامل للمبرد / ٨ .

عكس ذلك تماماً، أولى العاطفة وحرارة الإيمان أكثر مما أولى العقل والمنطق.

كـ حتى إذا وصلنا إلى رأي الفرقتين ببعضهما ونظرة كل منهما إلى الأخرى، وجدنا أن التكفير المتبادل هو ناظم العلاقة بينهما، وذلك على الرغم من نقاط الالتقاء وأخذها الواحدة عن الأخرى بعضاً من آرائها ومعتقداتها.

فالخوارج يكفرون مخالفين من المسلمين، ويعتبرون الدار دار كفر ولا بد من تجريد السلاح لإعادة الدين الغائب، وكان طبيعياً أن يكون المعتزلة ممن يكفرون الخوارج، ويعتبرونهم من قعد المسلمين يتكلمون كثيراً ويعرفون كثيراً، ولكنهم قاعدون ساكتون قابلون بالواقع الذي يعتقدون فساده، فهم أشد كفراً لأنهم لا يقرنون العقيدة بالعمل والكفاح.

وكذلك فإن المعتزلة يكفرون الخوارج، نأخذ هذا الرأي عن لسان أحد كبار مؤلفي المعتزلة وهو عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد، شارح نهج البلاغة، قال: (٢٤٩) «وأما الخوارج فإنهم

(٢٤٩) شرح نهج البلاغة ٤/١.

مرقوا عن الدين بالخير النبوي المجمع عليه، ولا يختلف أصحابنا^(٢٥٠) في أنهم من أهل النار. وجملة الأمر أن أصحابنا يحكمون بالنار لكل فاسق مات على فسقه، ولا ريب في أن الباغي على الإمام الحق، والخارج عليه بشبهة أو بغير شبهة فاسق، وليس هذا مما يخصون به علياً عليه السلام، فلو خرج قوم من المسلمين على غيره من أئمة العدل لكان حكمهم حكم من خرج على علي عليه السلام.

وقد ورد تكفير المعتزلة للخوارج في كثير من الكتب، منها ما جاء على لسان الشاعر بشار بن برد في هجائه لواصل بن عطاء وتحميل أصحابه المعتزلة تبعة تكفير الخوارج لأنهم كفروا علي بن أبي طالب يقول بشار في واصل^(٢٥١):

مالي أشايح غزلاً له عُتْقُ

كنقنق الدَّوِّ إن ولي وإن مثلاً^(٢٥٢)

عنق الزرافسة ما بالي وبالكم

أتكفرون رجالاً كفروا رجلاً؟

(٢٥٠) أصحابنا: يقصد المعتزلة.

(٢٥١) البيان والتبيين ٢٤/١ والكامل للمبرد ٣٣.

(٢٥٢) الغزال: لقب واصل بن عطاء. النقنق: ذكر النعام — الدَّوِّ: البرية، الغلاة.

وإنَّ بشاراً لا يقصد في الحقيقة الدفاع عن الخوارج ، ولكنه يقصد الإساءة إلى واصل بن عطاء والخط من شأنه .

لـ ... وكما أفاد أئمة المعتزلة الأوائل من آراء الخوارج وطوروا بعضها بما يلائم طبائعهم ، فإن الخوارج ، بعد أن تراخى بهم الزمن ، واستقر منهم من استقر ، أخذوا عن المعتزلة بعض الأمور ، وكان ذلك للإباضية ، وقد عاشت هذه الفرقة واستقرت في شمالي اهرقية ، وفي عمان وحضرموت وزنجبار ، فكان من الطبيعي أن يكون لهم أصول اعتقادية ، وتعاليم فقهية ، وكذلك فقد تعدل مذهبهم مع الزمان ، فلهم أصول كلامية متأثرة إلى حد كبير بمذهب المعتزلة في القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الجنة وأنه لا يغفر الكبائر (٢٥٣) .

وتروي بعض الكتب عن بعض فرق الخوارج ، أنهم بحثوا في القدر ، خيره وشره ، وإثبات الفعل للعبد ، وإثبات الاستطاعة قبل الفعل ، ونحو ذلك ولكن هذه المباحث لم تكن من عندهم ، وإنما استعاروها من المعتزلة (٢٥٤) .

(٢٥٣) ضحى الإسلام ٣/٢٣٦ — ٣٢٧ .

(٢٥٤) ضحى الإسلام ٣/٣٣٤ .

م— على أن مسألة خلق القرآن— وهي من كبريات مقولات المعتزلة— لا يبدو واضحاً مَنْ من الطرفين أخذها عن الآخر، الخوارج أم المعتزلة؟ والخوارج— كالمعتزلة— يقولون بخلق القرآن بكل طوائفهم^(٢٥٥) وإن كان المرجح أن يكون الأسبق في النشأة، أسبق إلى تبلور الآراء، وتكوين المذاهب والمعتقدات.

ن— بقيت كلمة لا بد من قولها في هذا المجال: لقد أُتيح للمعتزلة من الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية، ما بوأهم مكانة عالية في تاريخ الفكر العربي، فقد وجهوا دفعة الثقافة العربية والفلسفة العربية، مدة تزيد على قرنٍ ونصف من الزمن، أعملوا خلالها العقل والمنطق في مختلف مجالات العلم المعروف آنذاك، فكانوا فكراً نافذاً وعقلاً حراً، وظاهرة حيوية في جسم الأمة.

ولم يُتخ للخوارج من الاستقرار والتشجيع والحماية التي وصلت حد التّبني،— تبني الدولة لآرائهم— ما سمح لهم بتناول الموضوعات الفكرية والأخذ بدفعة الثقافة وتحريكها بأي اتجاه، والإلام بالفلسفة وأمور الدين وعلم الكلام وغير ذلك، فالخوارج المشردون الملاحقون الخارجون على القانون، ليس لديهم متسع

(٢٥٥) مقالات الإسلاميين للأشعري ١/١٨٩.

للبحث في الأمور الكبرى، كخلق القرآن، والقضاء والقدر وفي صفات الله، هل هي عين الذات أو غيرها، وأن الله يُرى بالأبصار أو لا يُرى، إلى آخر هذه المسائل، التي هي نظرات فلسفية، أبعاد ما تكون عن طبيعة الخوارج البسيطة البدوية، والتي تتطلب ترفاً فكرياً واسترخاءً ذهنياً وأمناً واستقراراً، لهذا لم يخلف الخوارج تراثاً فكرياً غنياً ومؤلفاتٍ في أنواع العلوم المختلفة كما فعل المعتزلة. أو غيرهم ممن سمحت لهم ظروفهم في البحث والتأليف.

ومع ذلك كله فإن أقلام المعتزلة لاتبدو — لدى المقارنة — أطول من سيوف الخوارج، وإن فكرهم النافذ وآراءهم النظرية، ليست أعظم من ثورات الخوارج العملية وحملهم السلاح في وجه الظلم والطغيان، وجميل هنا أن أسجل هذه العبارة التي نختم بها قطري بن الفجاءة، كتاباً أرسله إلى الحجاج: «فوالذي نفس قطري بيده، لعلمت أن مقارعة الأبطال، ليست كتصدير المقال» (٢٥٦).

٣ — إن علاقة الخوارج ببقية الفرق الإسلامية، لا تثير نفس الاهتمام الذي تثيره علاقتهم بالمعتزلة، فقد رأينا ما كان بين الفرقتين

(٢٥٦) البيان والتبيين ٢/٣١٠ — ٣١١.

من لقاء مبكر وأخذ متبادل، الواحدة عن الأخرى، — وبخاصة في مسألة مرتكب الكبيرة — فإذا وضعنا رأي المرجئة مثلاً موضوع مقايسة في هذه المسألة، بدا لنا البون شاسعاً بين الفريقين، فبينما يقف الخوارج على أقصى اليسار من كل الفرق يقع المرجئة على يمين المعتزلة، فهم لا يكفرون أحداً ولا يحملون أنفسهم مسؤولية شيء من قضايا الأمة، بل يرجعون ذلك كله، ويوكلون أمره إلى الله. الخوارج والمعتزلة يشترطان الإتيان بالطاعات، ويعتبران الأعمال جزءاً من الإيمان، جعلت الخوارج مرتكب الكبيرة كافراً، وجعلته المعتزلة لا مؤمناً ولا كافراً (منزلة بين المنزلتين)، بينما جعلته المرجئة مؤمناً، لأن المرجئة تعتبر الإيمان تصديقاً بالقلب — وهذا أساس الإرجاء —^(٢٥٧) فالمصدق بقلبه مؤمن، ولو أظهر أي معتقد.

لقد عدَّ المرجئة كل الفرق الأخرى، من شيعة وخوارج ومعتزلة، مؤمنين ماداموا قد صدّقوا بقلوبهم^(٢٥٨)، وهم بذلك يعيدون عن الخوارج كل البعد مسالمون مهادنون أكثر من المعتزلة، وبالتالي فإن مقارنتهم التفصيلية بالخوارج لا تأتي بكبير فائدة.

(٢٥٧) ضحى الإسلام ٣/٣١٦.

(٢٥٨) ضحى الإسلام ٣/٣١٦.

كذلك فإن مقارنة الخوارج بالشيعة أو غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، فضلاً عن أنها متاهة يصعب الخروج منها، طويلة لا يدرك آخرها، فإنها ليست ذات غناء في مجال بحثنا.

٤ — وأما عن علاقة الخوارج بآل المهلب بن أبي صفرة، فإنها علاقة من نوع آخر، فريدة من نوعها في دنيا العلاقات بين الأفراد والجماعات، كتبت صفحاتها بالدم والنار والحديد طيلة قرنين من الزمن، فقد توارث آل المهلب حرب الخوارج، وطاردوهم فوق كل أرض وتحت كل سماء، في أطراف المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً، وألجئوهم إلى شعاب الجبال وأطراف الصحراء، وكتب التاريخ مليئة بأخبارهم معهم.

لقد أنجبت أسرة المهلب عدداً من القادة البارزين في مجال الحرب والسياسة، وبلغ بعضهم من الجاه والمنزلة، أن الشعراء وقفوا على أبوابهم، ومدحوهم ونالوا جوائزهم، ووصل بعضهم إلى منصب الإمارة.

ولكن شهرة آل المهلب، ومكانتهم في التاريخ العربي، ومجدهم السياسي والعسكري، قامت كلها على محاربتهم للخوارج والدور الذي لعبوه في ردّ سيوفهم عن وجوه بني أمية وبني العباس،

فقد كانوا أداة قمع استعملها عبد الله بن الزبير ، طيلة حكمه في الحجاز ، ولما سقط ابن الزبير على يد بني أمية ، نقل آل المهلب ولاءهم إلى الحاكم الجديد... عدو ابن الزبير وقاتله — فقاموا بنفس الدور القمعي ضد الخوارج ، لصالح بني أمية وولايتهم في العراق . والمتبع لهذا الجانب من التاريخ يجد أن بعض قادة آل المهلب قاموا بملاحقة الخوارج لصالح بني العباس في شمال افريقية ، فكأنما أصبح لديهم نوع من التخصص في حربهم ، عرفه الحكام فوظفوهم لهذه المهمة الصعبة ، أو كأنهم قدرتهم الذي لاحقهم هذه الحقبة الطويلة من الزمن .

فلماذا حارب آل المهلب ؟ ولماذا حارب الخوارج ؟ وماذا

قال التاريخ ؟

أجر آل المهلب سيوفهم لأنواع من الحكم مختلفة ومتعادية ، تقريباً وتكسبياً ، فلم ينظروا إلى وجه الحاكم ، بل نظروا إلى ما في يده ، فحاربوا بنوع من الارتزاق أو الاحتراف ، لمصلحة من يدفع الأجر ، دونما قضية يدافعون عنها ، أو هدف يرمون إليه ، وحارب الخوارج دفاعاً عما رأوه حقاً ضائعاً ونصرة لأكبر قضية تهم الأمة وهي الشورى والديموقراطية والعدالة وغيرها ، وتكسرت

سيوف الطرفين وإنما لملاحم رهيبة دارت بينهما ملأت أخبارها صفحات التاريخ، وقيل فيها الشعر والخطب وتزيد فيها المتزيدون خدمة للحاكم القائم، فكان نصيب آل المهلب من التاريخ، أن ذكرهم بمزيد من التمجيد والإعزاز والإعجاب وحسن الشاء، واعتبرهم مفخرة من مفاخر هذه الأمة، وباء الخوارج بالخزري والمذلة والعار.

أي تاريخ هذا الذي يمجّد سيوف آل المهلب المأجورة إلى كل أنواع الحكام؟ والتي حاربت بلا هدف ولا قضية؟ ويلعن سيوف الخوارج، التي أشهرت في وجه الظلم والطغيان، ووقفت إلى جانب الحق والعدل والديموقراطية؟.

والقصة الطريفة التالية، توضح الجانب الذي أردنا إيضاحه من علاقة الخوارج بآل المهلب:

روى الطبري^(٢٥٩) وابن الأثير^(٢٦٠) وفلهوزن^(٢٦١): أنه لما قتل مصعب بن الزبير من قبل عبد الملك بن مروان، في معركة

(٢٥٩) الطبري ٧٥٣/٢ - ٨٢١.

(٢٦٠) ابن الأثير ٢٧٣/٤.

(٢٦١) الخوارج والشيمة ٩٦/٩٧.

مسكن، علم الخوارج بمقتله قبل أهل البصرة والمهلب بن أبي
صفرة وأصحابه، الذين كانوا يحاربون الخوارج آنذاك لصالح ابن
الزبير، فاستغل الخوارج هذه الفرصة ليفضحوا انعدام الرأي
السياسي الملتزم عند المهلب وأصحابه وأهل البصرة، فتواقف
الخوارج على الخندق، ونادوا أهل البصرة: « ماتقولون في
مصعب؟ » قالوا: « إمام هدى وهو ولينا في الدنيا والآخرة، ونحن
أولياؤه ». قالوا: « فما قولكم في عبد الملك؟ » قالوا: « ذاك ابن
اللعين، نحن إلى الله منه براءة، هو عندنا أحلُّ دماً منكم » قالوا:
« فإن عبد الملك قتل مصعباً ونراكم ستجعلون غداً عبد الملك
إمامكم وأنتم الآن تبرؤون منه وتلعنون أباه » قالوا: « كذبتم
يا أعداء الله! » فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب. فبايع
المهلب الناس لعبد الملك بن مروان، وقد صدق الأزارقة في
تقديرهم لحقيقة خصومهم.

٥ — ولدى الإشارة إلى موقفهم من العصبية القبلية وتركيبهم القبلي
والطبقي، فلا بد من تأكيد ما ذكرناه سابقاً في تضاعيف هذه
الدراسة، من أنهم كانوا أقلَّ اهتماماً بقرايات الدم والأنساب، وقد
استطاعوا — كما لم يستطع غيرهم من المسلمين — إحلال العقيدة
محل القرابة، فانتزعوا أنفسهم من أسرهم وقبائلهم، وقبلوا في

صفوفهم كل منتسب إلى مذهبهم دون النظر إلى عشيرته، ولم يكونوا في جملتهم ينتسبون إلى أمهات القبائل العربية كقريش وثقيف^(٢٦٢) وغيرهما، وغالبية انتسابهم كانت إلى قبائل أقل أهمية وشهرة، وهذا يؤكد الجاذبية الثورية التي حملت إليهم المظلومين والمتعاطشين إلى العدل من كل القبائل..

ليس لدينا معلومات دقيقة إلا عن قبائل بعض زعمائهم فمنهم من تميم: حرقوص بن زهير — عروة بن أدية وأخوه بلال — مسعر بن فدكي — شبث بن ربيعي والمستورد وهلال بن علفة.

ومن المضربين: فررة بن نوفل الأشجعي — شريح بن أبي — وعبد الله بن شجرة السلمى — وحجزة بن سنان الأسدي...

ومن الطائيين: زيد بن الحسين — معاذ بن جوين — طرفة ابن عدي بن حاتم.

ومن اليمانيين: يزيد بن قيس الأرحبي — وابن وهب الراسبي — وابن ملجم المرادي^(٢٦٣) ومن الملفت للنظر أن يتخلى

(٢٦٢) فلهوزن: ١٨ — و ٣٤.

(٢٦٣) نفس المرجع والصفحة.

الخوارج في ذلك التاريخ المبكر، عن عصبياتهم القلبية في وقت كانت تلك العصبيات هي الناظم لعلاقات المجتمع العربي.

يقول الدكتور إحسان النص^(٢٦٤): «أفلحت المذاهب الدينية إذن في تصديع كثير من القبائل وفي إيجاد عقيدة روحية جديدة يستوحياها العربي في سلوكه، وكثيراً ما كان التعارض يقع بينها وبين عصبية لجماعته، وحينئذ تغدو نفس العربي مسرحاً لصراع عنيف بين هاتين النزعتين تكون الغلبة فيه للنزعة التي لها السلطان الأقوى في نفسه. فالخوارج مثلاً كان مسلكهم مستوحى في المرتبة الأولى من عقيدتهم لا من عصبيتهم» واستشهد على ذلك بأمثلة منها^(٢٦٥):

حين استنصر مالك بن مسمع، نافع بن الأزرق الحنفي إبان فتنة مسعود علي بنى تميم، أبي نافع أن ينصره تلبية لداعي العصبية، إذ إن أهل البصرة كانوا في نظره سواء، وكلهم له أعداء لمخالفتهم مذهبه.

وحاول عتاب بن ورقاء صرف الزبير بن علي الخارجي عن

(٢٦٤) العصبية القلبية / ٣٥٤.

(٢٦٥) العصبية القلبية / ٣٥٥.

مقاتلته عن طريق تذكيره بما بينها من الوشائج القبلية، إذ كلاهما من بني يربوع، فكان جواب الزبير: إن أدنى الفاسقين وأبعدهم من الحق سواء.

وإذا كنا قد رأينا بعض مظاهر العصبية القبلية عند بعضهم، فإنها مواقف تحتاج إلى تفسير صحيح لتصب في المصوب الصحيح:

عندما بايع سليمان بن هشام وعبد الله بن عمر، الضحَّاك ابن قيس الشيباني الخارجي، وصلياً خلفه، صاح شاعر الخوارج شيبيل بن عذرة الضبعي:

ألم تر أن اللسة أظهرَ دينه
وصلت قريشٌ خلف بكر بن وائل (٢٦٦)

وليس هذا تعصباً لبكر بن وائل، بل هو انتصار للنظرية المتحررة من العصبية والولاء لقريش، وتأييد لرأي الخوارج القائل: إن الخلافة يمكن أن تكون في غير قريش كبكر بن وائل أو غيرها

(٢٦٦) الطبري: ٦٢٠/٥ والعصبية القبلية لاحسان النص /٣٩٠- وشعر الخوارج /٧٤.

من القبائل . ومثل ذلك قول مصقلة بن عتبة الشيباني (الخارجي)
مخاطباً الخليفة الأموي: (٢٦٧)

وأبلغ أمير المؤمنين رسالته
وذو النُصج إن لم يُرغ منك قريبُ
فإنك إن لا تُرضي بكر بن وائل
يكن لك يوم بالعراق عصبُ
فإن يك منكم كان مروان وابنه
وعمر و منكم هاشم وحبیبُ
فمننا سويد والبطين وقعبُ
ومننا أمير المؤمنين شيبُ
ولا صلح ما دامت منابر أرضنا
يقوم عليها من ثيف خطيبُ

وعلى الرغم مما يبدو تعصباً لبكر بن وائل ، وتفانراً قبلياً في
هذه الأبيات فإن حقيقة الأمر ليست كذلك ، إنه التحدي للنظام
القائم ، والتفانر بشخصيات خارجية ليست كلها من بكر بن
وائل ، ثم إن بكر بن وائل هذه ليست أم القبائل التي ينتسب إليها

(٢٦٧) العصبية القبلية / ٣٩٠ . وشعر الخوارج / ٦٣ وقد ورد اسم الشاعر عتبان بن
أصيلة .

غالبية الخوارج، بل هي كغيرها من القبائل العربية، يكثر انتساب الخوارج إليها حيناً من الزمن ويقل حيناً آخر، بل لقد حارب الخوارج — فيمن حاربوا — بكر بن وائل وأوقعوا بهم أفدح الضحايا البشرية عندما وقفت هذه القبيلة في الصف المعادي للخوارج في معركة (دولاب) الشهيرة، وكذلك قبيلة تميم التي يزعم المؤلفون أن الكثير من الخوارج يرجعون إليها.

يقول الشاعر والزعيم قطري بن الفجاءة الذي شارك في معركة (دولاب) ذاكراً أمّ حكيم زوجته: (٢٦٨)
ولو شهدتني يوم (دولاب) أبصرث
طعاناً فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت في الماء (بكر بن وائل)
وعجنا صدور الخيل نحو (تميم)
وكان (لعبد القيس) أول جدّها
وأحلافها من (يحصب وسليم)
وظلت شيوخ (الأزد) في حومة الوغى
تعموم وظلنا في الجلال تعموم^٢ (٢٦٩)

(٢٦٨) الكامل: ١٢٣ — الأغانى: الكفراوي / ١٥٠ / وشعر الخوارج / ٤٤.

(٢٦٩) في البيت إقواء.

والأمر في هذه الأبيات واضح، فمدح قبيلة أو هجاء قبيلة يتعلق بموقف هذه القبيلة من الخوارج، وليس الأمر كما ذكرت الدكتورة سهر القلماوي^(٢٧٠) من أنه تعصب للقبيلة لم يستطع الخوارج التخلص منه لأن معظمهم من الأعراب.

وإذا نُسب إلى الخوارج تعصب قبلي، فإنه يصح أن ينسب إلى الشاعر الطرمّاح (الذي نسبه التاريخ إلى الخوارج وحسبه عليهم، وسيكون لنا معه شأن خاص). وملخص موقفهم من هذه القضية يأتي في قول شاعرهم عمران بن حطان: (٢٧١)
فنحنُ بنو الإسلام واللّه واحدٌ وأولى عبادِ اللّه باللّه من شكرٍ
وقول الآخر^(٢٧٢):

أبي. الإسلامُ لا أبَ لي سواه إذا فخرُوا بيكرٍ أو تميم
كِلَا الحيين ينصُرُ مدّعيه لِيُلحِقَهُ بذِي النَّسبِ الصَّمِيمِ
وما حسبٌ ولو كرمتُ عروقٌ ولكنَّ التقيَّ هو الكريم
وقد أكد فلهوزن^(٢٧٣) حقيقة انسلاخهم من قبائلهم وانتائهم إلى

حزبهم الديني وعقيدتهم السياسية.

(٢٧٠) أدب الخوارج في العصر الأموي / ٤٩ / .

(٢٧١) شعر الخوارج / ٢٥ .

(٢٧٢) الأبيات لعيسى بن عاتك الخطي، شعر الخوارج / ١٣ .

(٢٧٣) الخوارج والشعبة / ٤٢ .

٦ - وعن حالتهم الاقتصادية، ووضعهم المادي، فقد كان متغيراً تبعاً لأوضاعهم الأخرى، من قلق واستقرار نسبي، أو من هزيمة أو انتصار، لكن الأمر المسلّم به أن الخوارج لم يكونوا يعيشون عيشة رخاء أو رفاه، بل كانت حياتهم المادية حياة شظف وضيق، وذلك لضآلة مواردهم وقلة ما في أيديهم، وانعدام الحيوية الاقتصادية التي تتمتع بها الأمم المستقرة من تجارة وصناعة وزراعة. فالتجارة تقوم على علاقات حسن الجوار والثقة بين الأمم المتجاورة أو القبائل المتجاورة، والصناعة تحتاج إلى استقرار واكتساب الخبرات من الشعوب الصديقة، ولم نسمع أنه كان للخوارج صناعة إلا ما كان من صناعة السلاح، و بعض اللباس وأوليات الحياة، وكذلك الزراعة التي لا يمكن ممارستها إلا في ظل استقرار طويل.

لم يكن خليفة الخوارج أو زعيمهم امر صرف يتربع على بيت المال ينفق منه كيف شاء، على الهبات والمبازل واللذات،... شأن الخلفاء والأمراء في عصرهم... بل لقد كان إنفاقهم مقيداً بالمبادئ الإسلامية للإنفاق، لا يتعداها إلى بزخ أو تبذير، أو وضع للمال في غير مكانه، أو إعطائه لغير مستحقه، كذلك فإن الإنفاق لم يكن... في أحسن حالات اليسر المادي... يتجاوز تعزيز القوة القتالية، وتمويل الحروب المقدسة التي كانت تُشنّ

على الأعداء لتحرير بعض البلدان من الطغيان الحاكم، ولم يصل في يوم من الأيام إلى حد رفع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه، أو تشييد الدور والقصور، مما لم يخطر للخوارج على بال، فهو ليس من سياستهم العامة، كما أنهم كانوا ضيوفاً عابرين في الأماكن التي هم فيها، لا يلبثون أن ينزحوا عنها ليحلوا ضيوفاً في غيرها، ومن يكن هذا شأنهم، فإنهم أبعد ما يكونون عن العمران والإنشاء والتشييد، ولم نسمع من أخبار عمرانهم إلا ما اقتضته ظروف الحرب أو الدفاع أو العبادة، من ذلك ما روته كتب التاريخ أن القائد الخارجي شبيب الشيباني عندما دخل الكوفة بنى فيها مسجداً عرف باسمه مدة طويلة، ونبش رأس زوجته غزالة، ودفنه فيه تحديداً للحجاج (٢٧٤).

كان الخوارج يعيشون عيشة الاكتفاء الذاتي، مقتنعين بما بين أيديهم من وسائل بسيطة وإمكانات محدودة، ويمكن تحديد مصادر دخلهم بما يلي:

آ - الغنائم: وهي ما كانوا يغنمون عند انتصارهم على أعدائهم من مال وسلاح وعتاد (٢٧٥)

(٢٧٤) فلهوزن / ١٢٠.

(٢٧٥) ابن الأثير ١٦٧/٤ وفلهوزن / ٧٩.

ب — الخراج والصدقات التي كانوا يجنونها من البلدان التي كانت تقع تحت أيديهم ، ويمكثون فيها وقتاً يطول أو يقصر ، أو المناطق التي كانوا يخلفون عليها بعض ولايتهم ، ويأمرونهم بالعدل وحسن السيرة ، وأخذ الصدقات كما سمح الإسلام . من ذلك ما فعلوه عندما احتلوا الإمامة واليمن بما فيها صنعاء وحضرموت ، سنة ثمانٍ وستين للهجرة وأقاموا فيها ، وجبوا صدقاتها (٢٧٦) .

ج — كانوا عندما ينالون حظاً معقولاً من الاستقرار ، يستصلحون الأراضي ويزرعونها بما يمكن أن يُغَلَّ لهم ، ويحسن دخلهم ، وكانوا يجندون لذلك كل من لا يصلح للحرب من الرجال والنساء فيقومون بالزراعة ورعي المواشي خدمة للجيش المقاتل وتدعيماً لموقفه ، وأهم من كان يقوم بهذه المهمات السلمية الأسرى ، وكانت هذه الصورة

(٢٧٦) فلهوزن / ٨٠ .

(٢٧٧) فلهوزن / ٧٧ .

أوضح في أيام حكم الزعيم الخارجي نجدة الذي
جاء بعد أبي طالوت سنة ٧٧ هـ. (٢٧٧)

ولاشك أن ضعف حكم ابن الزبير كان خير معين
للخوارج على تسهيل مهماتهم الاقتصادية، إذ كانوا طيلة حكمه
في الحجاز، يمارسون أنواعاً من الحكم الذاتي على بعض أطراف
المملكة، يقطعون الخراج عن ابن الزبير ويأخذونه لأنفسهم..

وهم — في كل ذلك — كانوا يتقيدون بحدود الشريعة في
الأخذ والعطاء، يتورعون عن أكل المال الحرام، كما يتورعون عن إنفاق
المال في غير محله، وإن قوماً يمتنعون عن أكل ثمرة بغير ثمنها، لا يتوقع
منهم أن يرتكبوا مخالفات اقتصادية شرعية، فالمال مال الله، والخلق
عيال الله، والهدف هو نصرة الحق، وفي هذا الإطار كان الإنفاق.

٧ — وعن موقع الخوارج من الثقافة العربية، والفكر العربي : فإنهم
لم يلعبوا دوراً كبيراً في هذا المضمار، ولم يُغنوا المكتبة العربية
بالمؤلفات والمصنفات، ولم يبحثوا في فنون متنوعة من المعارف
والعلوم، وليس لدينا تفسير لتقصيرهم في ميدان البحث العلمي
والتفلسف والتعمق في التعرض للقضايا الفقهية أو الفلسفية التي
غاص فيها المعتزلة وأوسعوها بحثاً وتدقيقاً، إلا هذه التفسيرات :

آ— كان العصر العباسي هو عصر الازدهار العربي في كل مجالات المعرفة، من تأليف وترجمة ونقل عن الأمم الأخرى، واحتكاكها بالثقافات العالمية، وكانت قصور الخلفاء مراكز لتشجيع العلوم والآداب، مضافاً إليها بعض المساجد، وبعض الشيوخ المشهورين.

ولم يكن للخوارج علاقة بقصور الخلفاء ولا بمجالسهم ومساجدهم ولا بما يمت بأية صلة للدولة، ثم إن الخوارج في العصر العباسي كانوا قد أنهكوا في حروبهم مع الأمويين، وصاروا بحالة تشبه الاحتضار، ومن المؤكد لو أنهم عاصروا ازدهار العصر العباسي، وهم على شيء من القوة، لما فاتهم أن يدلوا بدلوهم في بحر ثقافته، وأن يلعبوا دوراً غير الذي لعبوه.

ب— لقد ضاع ما لديهم من آثار ثقافية وأدبية، بقصد أو بغير قصد، قال أحمد أمين^(٢٧٨): «ولقد أنتجوا إنتاجاً ضاع كثيره، وبقي قليله، وقد دلنا هذا القليل الباقي على الكثير الضائع»، وطبعي أن يضيع أكثر آثارهم الأدبية والفكرية، لأن الأقلام التي تدون ليست بأيديهم، ولا بأيدي أصدقائهم، أو الحيايين من المؤلفين، فالمؤلفون والمؤرخون صنائع السلطان، والسلطان حرب

(٢٧٨) ضحى الإسلام ٣/٣٤٤.

على الخوارج ، فيجب طمس كل أثر طيب يؤثر عنهم ، ومنع انتشاره والترويج له .

ج — إن الوضع القلق وحالة عدم الاستقرار التي طبعت حياتهم بطابعها في كل مراحلها . لم تتح لهم فرصة مهما كانت قصيرة — ينصرفون فيها للعمل الفكري المبدع ، إن التأليف والترجمة والجدل والمناظرات والمناقشات وغيرها من أمور الثقافة ، لا تعطي ثمارها الطيبة إلا في جو من الاستقرار السياسي والأمني ، وحماية الدولة والتشجيع المادي ، كما كانت الحال في العصر العباسي الأول ، إذ تبنت الدولة العلماء وأخذت بأيديهم وأحاطتهم بالعناية والرعاية بكل الوسائل ، فحمت ورعت بعض الفرق الدينية وتبنت آراءها في جملة من النظريات ، وطبعتي ألا تهدد تلك الفرق الكيان السياسي للدولة ، فموقف المأمون مشهور من المعتزلة ، وكذلك موقف الواثق والمعتصم ، وكان الخوارج يفتقدون ذلك كله .

لقد استمرت عزلة الخوارج عن العالم الخارجي ، فكانوا في أحسن حالاتهم محاصرين لا يسمح لهم بالاتصال بأحد ، ليس لديهم مراحل ترجمة ونقل وتمازج ثقافات ، مما كان متاحاً لغيرهم .

د — كان ازدهار الخوارج السياسي في أواخر عهد بني أمية ، وقد

بقي لنا شيء من خطبهم وأشعارهم في هذه الفترة ، ولكن المرحلة التاريخية بحد ذاتها لم تكن مرحلة ازدهار ثقافي وتمازج فكري بين الأمة العربية وغيرها من الأمم ، ولم يكن الاتصال بالثقافات الأجنبية قد تم ، ولم تكن الثقافة العربية نفسها قد آتت أكلها في ذلك العصر .

هـ — الخوارج بطبيعة تكوينهم السياسي والديني ، هم جماعة من المحاربين انشغلوا في أمر تقويم ما رأوه اعوجاجاً ، وفي إعادة الحق إلى نصابه ، وأغفلوا كل ما عدا ذلك ، فهمُّهم الأول وشغلهم الشاغل هو دحر الظلم ، وتحقيق المدينة الفاضلة التي اختاروها ، وإقامة دولة الإسلام على الأسس التي رسموها ، فامتشقوا السيوف وأرجأوا الأقلام ريثما يتحقق الهدف الأول ، ويمكن القول بعبارة مختصرة : إن العمل شغل الخوارج عن العلم .

و — لقد انصبَّ فكرهم النظري على بعض أمور تتعلق بالدين وأمر الخلافة ، وغير ذلك مما ذكرناه في معرض مقارنتهم بالمعتزلة ، كنظريتهم في مرتكب الكبيرة ، والإمامة والشورى وغيرها من الأمور التي شغلهم ، وكان لها صلة وثيقة بسلوكهم العملي ، وقلما تعدّوها إلى مجالات أخرى في الفكر والثقافة .

وجدير بالملاحظة أن ما خلفه الخوارج من نتاج فكري سواء في مجال الأدب أو مناحي الثقافة الأخرى، لم يتصف بالتعمق والتفلسف واستعمال المنطق والجدل، إنما كان من جنس أدب العرب القدماء، رواية شعر وأخبار، لاتصنيف كتب ومناقشة موضوعات فكرية أو مسائل فقهية عميقة، قال أحمد أمين (٢٧٩): «ثقافتهم ثقافة عربية خالصة، لا أثر فيها لفلسفة من أي نوع، ثقافة لغوية أدبية على نمط العرب في ثقافتهم، وثقافة إسلامية على النمط المعروف في عصرهم من تفهم للكتاب والسنة في سهولة ويسر، فإن جادلوا في الدين، فاحتجاج بظواهر النصوص وتمسك بحرفيتها».

وقد ذكرت الكتب نفاً من علومهم وعلمائهم، وكلها في حدود ما ذكرنا تنحصر في علوم اللغة والأدب والرواية والأخبار والخطابة.

ذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين جملةً صالحةً من الأسماء اللامعة في مجالات الثقافة المختلفة التي اشتهروا بها، كما ذكر

(٢٧٩) ضحى الإسلام: ٣/٣٤٤.

غيره كالطبري والمسعودي وابن الأثير والمبرد وغيرهم شيئاً من علمهم وعلمائهم .

ذكر الجاحظ زيد بن جندب الإيادي . وأسماء : خطيب الأزارقة^(٢٨٠) ، وقال : إنه قد ضرب به المثل في الخطابة والفصاحة ، قال الشاعر في مرثية لأبي دؤاد بن مرير الإيادي حيث وصفه بالخطابة :

كقسّ إيادٍ أو لقيط بن معبدٍ وعذرة والمنطيق زيد بن جندب

وزيد بن جندب هذا هو القائل في خلاف الأزارقة :

قُلْ للمحلبين قد قرث عيونكمُ

بفرقة القوم والبغضاء والهرب

كنا أناساً على دينٍ ففرقنا

طول الجدال وخلط الجد باللعب

ما كان أغنى أناساً ... ضل سعيهم ...

عن الجدال وأغناهم عن الخطيب

إني لأهونكم في الأرض مضطرباً

مالي سوى فرسي والرمح من نشب

(٢٨٠) البيان والتبيين ١/٢٣ .

وقال عن عمران بن حطان^(٢٨١) : من الخطباء والعلماء
والشعراء، عمران بن حطان رئيس القعد من الصفرية، وصاحب
فتياهم ومفزعهم عند اختلافهم.

وكذلك فقد ذكر الطرمّاح الشاعر الخطيب (وقد
خصصت الطرمّاح بدراسة منفصلة ووقفت طويلاً عند خارجيته)

ومن خطبائهم قطري بن الفجاءة، وله خطب كثيرة
مشهورة وكلام كثير محفوظ، ومن علماء الخوارج الضحاك بن
قيس الشيباني وهو الذي ملك العراق، وسار في خمسين ألفاً
وبايعه عبد الله عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن هشام وصلياً
خلفه وقال شاعرهم وهو شبيل عن عذرة الضبعي: ^(٢٨٢)
ألم تر أن الله أظهر دينه

وصلت قريش خلف بكر بن وائل

وقال الجاحظ: ^(٢٨٣) ومن خطباء الخوارج ابن صديقة،
وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة، وكان صفرياً وكان خطيباً

(٢٨١) البيان والتبيين ٤٧/١ .

(٢٨٢) البيان والتبيين ٣٤٣/١ .

(٢٨٣) البيان والتبيين ٣٤٣/١ .

ويشوب ذلك ببعض الظرف والهزل (وهذا أول ما سمعته عن ظرف وهزل عند الخوارج، إذ عرفوا بالجحد والصرامة).

ومن علماء الخوارج: شبيل بن عزرة الضبعي، صاحب الغريب، وكان راوية خطيباً وشاعراً ناسباً، وكان سبعين سنة رافضياً ثم انتقل خارجياً صنفياً^(٢٨٤)

ومن خطباء الخوارج وعلمائهم وشعرائهم: حبيب بن خدره الهلالي^(٢٨٥) وكان ممن يرى رأي الخوارج: أبو عبيدة النحوي: مَعْمَر بن المثنى مولى تيم بن مرة، ووصفه الجاحظ بقوله: «ولم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه^(٢٨٦) وذكره ابن خلكان^(٢٨٧) بأنه كان من علمائهم وكان يرى رأيهم، وروي أن أبا حاتم السجستاني قال: كان أبو عبيدة يكرمني على أني من خوارج سجستان، وقال الثوري: دخلت المسجد على أبي عبيدة وهو ينكت الأرض جالساً وحده، وقال: من القائل؟»

(٢٨٤) البيان والتبيين ١/٣٤٣.

(٢٨٥) البيان والتبيين ١/٣٤٦.

(٢٨٦) البيان والتبيين ١/٣٤٧.

(٢٨٧) وفيات الأعيان ٢/١٥٧.

أقول لها متسى جشأت وجشاشت

مكائك تُحمدي أو تستريحي

فقلت له : قطري بن الفجاءة ، قال : فضَّ الله فاك ، هلا

قلت : هو لأمير المؤمنين أبي نعامة ؟ — ثم قال لي : اجلس واكتم

عني ما سمعت مني ، وقد ألف فيما ألف كتاب (خوارج

البحرين) ، ولكنه لم يكن فيلسوفاً ولا من أهل الكلام — فيلسف

المذهب الخارجي ، وإنما كان عالماً واسع المعرفة في الغريب وأيام

العرب ، هذا مجمل ما رواه عنه ابن خلكان وسجل له قائمة بأسماء

الكتب التي ألفها وهي كثيرة ومتنوعة المواضيع ، وقد مر معنا قول

الجاحظ عنه : إنه لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع

العلم منه .

ومن جملة ما سبق وعرفناه عن الرجل نستطيع الجزم بأنه

كان يتمذهب بمذهب الخوارج لنفسه ، فإن جلوسه في المسجد

وخوفه من إعلان رأيه وتنوع موضوعاته التي ألف بها ثم عيشه

عيشاً هادئاً منصرفاً للتأليف ، كل هذه العلامات تخرجه من دائرة

الخوارج وما عرف عنهم من مجاهرة في الرأي وخروج في سبيله .

ومثله الهيثم بن عدي ، قال عنه ابن خلكان : إنه كان يرى :

رأي الخوارج، وألف فيهم كتاباً اسمه (كتاب الخوارج) وكان
كأبي عبيدة أنحبارياً لافيلسوفاً، وقال: إنه كان متصلاً بالمنصور
والمهدي والهادي والرشيد، وهذا لا يقبله الخوارج، بل الذي يزكي
خارجيته أن يخرج نخرجاً مسلحاً على الخلفاء السالفي الذكر بدلاً
من أن يتصل بهم، فهذا النوع الخارجي على طريقته هو أسوأ أنواع
الخوارج في نظر قادتهم وأئمتهم الأوائل.

ومن علماء الخوارج ورؤسائهم: مسلم بن كورين، وكان
إباضياً^(٢٨٨) ومن علمائهم وخطبائهم وفقهائهم: المقطل قاضي
عسكر الأزارقة أيام قطري بن الفجاءة^(٢٨٩).

ومن شعرائهم وخطبائهم ورؤسائهم: عبيدة بن هلال
اليشكري^(٢٩٠) وقد ذكر المسعودي^(٢٩١) أن من علمائهم: ايمان
ابن رباب وله كتب مصنفة في مذاهبيهم، وعبد الله بن يزيد
الإباضي، وأبو مالك الحضرمي وقعنّب وغيرهم، وقد كان ايمان من
علية علماء الخوارج، وأخوه علي بن رباب من عليّة علماء

(٢٨٨) البيان والتبيين ١/٣٤٧.

(٢٨٩) نفس المرجع والصفحة.

(٢٩٠) نفس المرجع.

(٢٩١) مروج الذهب للمسعودي ٣/١٩٤.

الرافضة، هذا مقدّم في أصحابه، وهذا مقدّم في أصحابه،
يجتمعان في كل سنة ثلاثة أيام يتناظران ثم يفترقان، ولا يسلم
أحدهما على الآخر ولا يخاطبه.

ومهما حاول الباحثون أن يوجدوا للخوارج علوماً برعوا فيها
وأبواباً من المعرفة سلكوها دون غيرهم، فإنهم لن يستطيعوا،
وحسبنا أن نوجد لهم الأعذار والمسوغات عن هذا التقصير، وربما
كان أهم هذه المسوغات: بزوغهم في فترة تاريخية مبكرة من عمر
الثقافة العربية، وانشغالهم بأمر الحرب وقلق حياتهم، وموقف
الحاكمين والمؤلفين وكل الفئات الأخرى، مما دعا إلى طمس
ما أمكن طمسه مما لديهم من تراث فكري.

ولكن الباحث بين الخوارج عن الملتزمين بالعقيدة المتفانين
في سبيل نصرتها الآخذين أنفسهم بالسلوك والعمل، سيجد أنهم
أكثر بكثير ممن ألفوا وصنفوا وتفلسفوا.

(١١)

أدب الخوارج

كنت قد قطعت شوطاً بعيداً في إعداد دراسة مفصلة ومنفصلة عن أدب الخوارج (شعراً وخطابة)، وهو — لاشك — أدب جدير بالعناية والاهتمام، يستحق أن يُفرد له بحث قائم بذاته، يبرز خصائصه المميزة والفريدة، ففيه الكثير من الخصائص التي لم يشاركه فيها نوع من أدب الأحزاب الأخرى في زمنه، لكنني رأيت ألا أفصل بين أدب الخوارج وبين جوانب حياتهم الأخرى فذكرت تلك الميزات الفنية لأدبهم بشيء من الإيجاز والتكثيف، نظراً لطبيعة هذه الدراسة، دون إخلال أو إهمال لهم رأيت أن يُذكر.

إن لدى الخوارج كل العناصر المكونة للأدب الرفيع ، فهم ينظرون على عقيدة راسخة ، وتصميم أكيد على بذل النفس والنفيس في سبيل نصرتها ، كما أنهم يمتازون بصراحة في الأقوال والأعمال ، وقد مارسوا في كل مراحل حياتهم ديمقراطية أصيلة ، وكانت لديهم رؤية واضحة للطريق ، ومعرفة لما يريدون وما لا يريدون ، وما امتازت به حياتهم كذلك : التشرد ونزيف الدم المستمر ، وتحديد الجراح ، ومصارع الأحباب وفراق الخلان ، فإذا أضفنا إلى ذلك ثقافتهم العربية الخالصة ، وفصاحتهم وبدائيتهم ، وسرعة الانفعال وحضور البديهة وبساطة الحياة وحرارة العاطفة ، وجدنا أن الخوارج يمتلكون العوامل القوية التي بنوا عليها صرح أدبهم .

وعلى قلة الدين تصدوا لدراسة أدب الخوارج ، فإنهم متفوقون على جملة من السمات اتصف بها هذا الأدب ... شعره ونثره ... لا يكاد يخطيء من يجيد القراءة معرفة هذه السمات ، من الصدق والقوة والبساطة والفصاحة وغيرها ، مما سنفصل القول فيه فيما يأتي من هذا البحث .

فأحمد أمين مثلاً^(٢٩٢) يذكر في صدد مقارنة أدبهم بأدب

(٢٩٢) ضحى الإسلام ٣/٣٤١ .

الشيعة والمعتزلة: أن أدب الشيعة أدبٌ باكِ حزين على فقدان الحق، أو أدب غضبان على أن الخلافة لم توضع في موضعها، وأدب المعتزلة أدب فلسفي يغلب فيه عنصر المعاني، أما أدب الخوارج فهو أدب القوة والاستماتة في طلب الحق ونشره، وأدب التضحية، فلا تستحق الحياة البقاء بجانب العقيدة، وأدب التعبير البدوي الذي لا يتفلسف ولا يشتق المعاني ويولدها، ومما قاله أحمد أمين^(٢٩٣) «الخوارج يفضون للعقيدة والإسلام بعامة، بقطع النظر عن الأشخاص، وإن نظروا للأشخاص ففي ضوء العقيدة، قد يرثون ويكون ولكنهم حتى في رثائهم وبكائهم أقوياء، يذرفون الدمع ليسفكوا الدم، ويكون الميت لتشجيع الحي، ويؤثنون المفقود ليرسموا المثل الأعلى للموجود، لا يعرفون هزلاً في الأدب، ولا يعرفون خمراً ولا مجوناً، فلا نجد في أدبهم خمراً ولا مجوناً، إنما يعرفون الجهاد والقتال والتربية المترتبة القاسية التي تخرج رجالاً أقوياء، لا يحرصون على الحياة، وكذلك أدبهم» ومما قاله عن أدب الخوارج^(٢٩٤): «أدب الخوارج أدب لساني، لا أدب مكتوب، فكان يتطلب لحفظه أن يذهب رواة الأدب كالأصمعي إليهم

(٢٩٣) ضحى الإسلام ٣/٣٤١ - ٣٤٢.

(٢٩٤) ضحى الإسلام ٣/٣٤٥.

ليأخذ عنهم ، وأكثر هؤلاء الرواة كانوا صنائع الدولة العباسية يتقربون إليها برواية ما يرضيها .

إن أكثر ما وصلنا من أدب الخوارج كان من نتاج العصر الأموي ، وذلك لأن اشتداد أمرهم وقوة شكيمتهم كانت في ذلك العصر ، أما العصر العباسي ، فبالإضافة إلى ضعفهم وضعف أدبهم فيه ، فلم يكن مسموحاً برواية شيء من أدبهم المتعلق بالعباسيين ، وإذا كان العباسيون قد تساهلوا في رواية أدب الخوارج المتعلق بخصوصهم الأمويين ، فلأن ذلك يلائمهم ، ويرضي نزعة عدائهم لهم .

والأدب الخارجي العباسي كان معظمه إباضيّاً ، وقد حفظت مكاتب الإباضية في المغرب العربي وعمان بعض آثارهم التي ترجع إلى العصر العباسي الأول .

من ذلك حادثة الوليد بن طريف (الخارجي) الشيباني ، الذي حاربه القائد العباسي يزيد بن يزيد الشيباني ، وكان مسلم بن الوليد (صريع الغواني) متصلاً به ، فأشاد به وبحربه للخوارج في قصيدته المشهورة^(٢٩٥) :

(٢٩٥) البيان والتبيين / ٣٤٢ وشرح النهج / ١ / ٥٩١ وضحى الإسلام / ٣ / ٣٤٦ .

أجررتُ حبل خليج في الصبا غزِل
وشمّرتُ همُّ العذال في العذل

ومنها قوله :

ويوسف الهم قد صيحت عسكرة
بعسكر يلفظ الأقدار ذي زجل (٢٩٦)

والمارق ابن طريف قد دلفت له
بعسكر للمنايا مسبل هطيل
لما رآك مجداً في منيته

وأن دفعك لا يسطاع بالجيل
شام النزال فأبرقت اللقاة له

مقدم الخطو فيه غير متكيل
وقد سبق وذكرنا ما جاء على ألسنة بعض خصومهم من
قادة بني أمية ووصفهم لأقوالهم بشدة وقعها في النفوس وتأثيرها
في القلوب، كالذي قاله عميد الله بن زياد (٢٩٧) « لكلام هؤلاء
أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع » (٢٩٨) وأدب الخوراج — كما

(٢٩٦) الزجل: الضجة .

(٢٩٧) الكامل ٨٢ .

(٢٩٨) اليراع: نوع من القصب سريع الاشتعال .

هو معروف — قسمان : شعر ونثر ، وهما أسلوبان عبر بهما الخوارج عن مضمون واحد ، هو جملة آرائهم السياسية والدينية والاجتماعية ، فاتصف الأسلوبان بصفات مشتركة من الصدق والقوة والوضوح والتحمسن للعقيدة ، وغير ذلك مما سيأتي تفصيله من صفات أدبهم عامة .

النثر

وهو مجموعة الخطب التي أثرت عنهم وتناقلتها الكتب ، وبعض الرسائل التي كتبوها للولاء ممن حاوروهم أو تحدوهم أو كتبوها لبعضهم البعض في مناسبات معينة ..

أما القسم الأول وهو الخطابة ، فرمما كان اشتهارهم به أكبر من اشتهارهم بالشعر ، ذلك لأن فترة نهوضهم كانت فترة ازدهار الخطابة العربية ، وظهور خطباء العرب البارزين : علي والحجاج وزيد وغيرهم ، وقد سمعوا من بعضهم ، ورأوا بعضهم على المنابر ، وكان الخوارج بحاجة ماسة إلى فن أدبي مؤثر في النفوس ، في حاجاتهم السياسية وحروبهم ومخاصماتهم وإفحام أعدائهم بالحجة المقنعة ، والعبارة القوية .

ولعل اتصالهم بعلي ، وتعلمهم عليه في كل شيء ، وفي الخطابة

بشكل أخص ، أسهم في بروز خطباء مصاقع من بين صفوفهم ، حتى لقد تداخلت بعض خطبهم بخطبه ، والتبس ذلك على الرواة والمؤلفين ، من ذلك خطبة منسوبة للزعيم الخارجي قطري بن الفجاءة ، في كلٍّ من البيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، ثم يجيء ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة فيثبتها في النهج على أنها لعلي (٢٩٩) ويقول : « هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ، ورواها لقطري بن الفجاءة ، والناس يروونها لأمر المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب المؤنق لأبي عبد الله المرزباني مروية لأمر المؤمنين عليه السلام ، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه ، وليس ببعيد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن يكون قد أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فإن الخوارج كانوا أنصاره وأصحابه وقد لقي قطري أكثرهم » (٣٠٠) جاء في هذه الخطبة :

« أما بعد فإني أحذرُكم الدنيا فإنَّها حلوةٌ خضرةٌ ، حُفَّتْ بالشَّهوات ، وراقتُ بالقليل ، وتَحَبَّبَتْ بالعاجلة ، وحليتُ بالآمال ،

(٢٩٩) نهج البلاغة ٢/٢٣٨ — ٢٤٠ و ٣٥٣ .

(٣٠٠) شرح النهج ٢/٢٤٢ .

وتزيست بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعها، غرارة
ضرارة، خوانة غدارة، وحائلة زائلة، ونافذة بائدة، أكالة غوالة،
بدالة نقالة، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنيّة أهل الرّغبة فيها والرضاء
بها، أن تكون كما قال الله تعالى: ﴿كأني أنزلناه من السماء فاختلط
به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء
مقتدراً﴾. لم يكن امرؤ منها في حبرة، إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم
يلق من سرّائها بطناً، إلا منحتّه من ضرّائها ظهراً، ولم تطلّه فيها
ديمة رخاء، إلا هتنت عليه مزنة بلاء، وحرّي إذا أصبحت له
منتصرة أن تسي له متنكرة، وإن جانب منها اعذوب واحلوي
امرؤ منها جانب فأوى، لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً، إلا أرهته
من نوائبها تعباً، ولا يسي منها في جناح أمن، إلا أصبح على قوادم
خوف، غرارة غرور ما فيها، فانية فإن من عليها، لا خير في شيء
من أزوادها إلا التقوى، من أقلّ منها استكثر مما يؤمنه، ومن
استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عما قليل عنه، كم من واثق بها
قد فجعتّه، وذو طمأنينة قد صرّعتّه، وذو أبهة قد جعلته
حقيراً، وذو نخوة قد ردتّه ذليلاً، سلطائها دول، وعيشها
رنيق وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغداؤها سمام، وأسبابها رمام،
حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ملكها مسلوب

وعزيرُها مغلوبٌ، وموفورها منكوبٌ، وجارها محروبٌ. أَلَسْتُمْ فِي
 مَسَاكِنَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَلاً،
 وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً، تَعْبُدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعْبُدَ، وَآثَرُوهَا أَيَّ
 إِثَارَ، ثُمَّ ظَنَعُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مَبْلُغٍ، وَلَا ظَهَرَ قَاطِعٍ، فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ
 الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بَفْدِيَّةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ، بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنْتْ
 لَهُمْ صَحْبَةً؟ بَلْ أَرَهَقْتَهُمْ بِالْفُؤَادِ حِ، وَأَوَهَنْتَهُمْ بِالْقَسْوَارِ عِ،
 وَضَعَضْتَهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرْتَهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطَّئْتَهُمْ بِالْمَنَاسِمِ،
 وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَبِّبَ الْمَنُونِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنْكِرُهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرُهَا
 وَأَتَّخَلَدَ إِلَيْهَا، حِينَ ظَنَعُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ، وَهَلْ زَوَّدْتَهُمْ إِلَّا
 السَّعْبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ
 أَعَقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ؟؟. أَفَهَيْدُهُ تَوَثَّرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَتِنُونَ أَمْ عَلَيْهَا
 تَحْرُصُونَ؟؟. فَبَشَّسْتِ الدَّارَ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ
 مِنْهَا.

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بِأَنْكُمْ تَارِكُوهَا، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا،
 وَأَتَّعِظُوا فِيهَا بِالذِّينِ قَالُوا: (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)، حُمَلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ
 فَلَا يُدْعُونَ رُكْبَاناً، وَأُنزِلُوا بِالْأَجْدَاثِ فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَاناً، وَجُعِلَ
 لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، وَمِنَ الثَّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ،
 فَهَمْ جِيرَةٌ لَا يَجِيبُونَ دَاعِيّاً، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمّاً، وَلَا يِيَالُونَ مَنْدَبَةً، إِنْ

جيدوا لم يفرحوا، وإن قُحطوا لم يقنطوا، جميعٌ وهم آحادٌ، وجيرةٌ
وهم أبعادٌ، متدانونٌ لا يتزاورون، وقریبون لا يتقاربون، حلماً قد
ذهبَتْ أضغاثُهُمْ، وجهلاءٌ قد ماتت أحقادُهُمْ، لا يُخشى فجعُهُمْ
ولا يُرجى دفعُهُمْ، استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً،
وبالأهل غربةً، وبالنور ظلمةً، فجاؤوها كما فارقوها، حفاةٌ عراةٌ،
قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، والدار الباقية، كما قال
سبحانه وتعالى: ﴿ كما بدأنا أول خلقٍ نُعيدُهُ وعِداً علينا إنا كنا
فاعلين ﴾ .

ولا أريد أن أخوض في موضوع نسبة هذه الخطبة لقطري
أو لعلي، وعلى أنها شبيهة بكلام عليّ وخطبه — كما قال ابن أبي
الحديد — فإن الذين نسبوها لقطري، وهم من مشاهير المؤلفين،
لم يستغربوا أنها له، ولم يستكثروا بلاغتها وفصاحتها عليه، وهذا
يعني أن هذا المستوى من الكلام هو مستوى قطري وأمثاله من
الجيل الذي عاش تلك المرحلة الزمنية، وهذا بدوره يعني أن هؤلاء
الخطباء يرقون إلى منزلة تقترب من منزلة عليّ في الخطابة
والفصاحة .

وهناك خطب أخرى للخطباء الآخرين من الخوارج، تبوات

مكانة عالية في دنيا الخطابة العربية، منها خطبة أبي حمزة
الخارجي (٣٠١) في المدينة، وأجتزىء منها ماجاء على لسانه في
وصف أصحابه، قال:

يا أهل الحجاز، أتعرونني بأصحابي وتزعمون أنهم
شباب ١٤ وهل كان أصحاب رسول الله (ﷺ) إلا شباباً، أما والله
إني لعالمٌ بتتابعكم فيما يضركم في معادكم، ولولا اشتغالي بغيركم
عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم. شبابٌ والله مكتهلون في
شبابهم، غضيضةٌ عن الشر أعينهم، ثقيلةٌ عن الباطل أرجلهم،
أنضاء عبادة (٣٠٢) وأطلاح سهر (٣٠٣) ينظر الله إليهم في جوف
الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرَّ أحدُهم بآيةٍ
من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرَّ بآيةٍ من ذكر النار شهق
شهقةً كأن زفير جهنم بين أذنيه. موصولٌ كلالهم
بكلالهم (٣٠٤) كلال الليل بكلال النهار، قد أكلت الأرضُ

(٣٠١) هو المختار بن عوف الأزدي أحد زعماء الإباضية، غلب على مكة والمدينة سنة

١٣٠ هـ.

(٣٠٢) أنضاء: مهزولون.

(٣٠٣) أطلاح: مهزولون أيضاً.

(٣٠٤) الكلال: الجهد والتعب.

ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة
أجسامهم من طول القيام ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، موفون
بعهد الله ، منجزون لوعده الله ، حتى إذا السهام قد فوقت (٣٠٥)
والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت (٣٠٦) ، وبرقت الكتيبة
ورعدت بعواصف الموت ، استخفوا بهويد الكتيبة لوعده الله ، ولقوا
شبا الأسنة (٣٠٧) وشائك السهام وظبات السيوف (٣٠٨) بنحورهم
ووجوههم وصدورهم ، فمضى الشاب منهم قُدماً حتى اختلفت
رجلاه على عنق فرسه ، وتخصبت بالدماء محاسن وجهه ، وعقر
جبينه بالثرى ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير
السماء ، فطوى لهم وحسن مأب ، فكم من عين في منقار طائر
طلما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف
زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها راعياً وساجداً ، وكم
من وجه رقيق وجبين عتيق (٣٠٩) قد فُلق بعمد الحديد ، ثم بكى

(٣٠٥) فوقت : أعدت للرمي .

(٣٠٦) انتضيت : أخرجت من أعمادها .

(٣٠٧) رؤوس الرماح .

(٣٠٨) حد السيوف .

(٣٠٩) عتيق : كريم .

وقال: آه آه على فراق الإخوان، رحمة الله على تلك الأبدان،
وأدخل روحهم الجنان. (٣١٠)

وخطب حيان بن ظبيان (٣١١) في الحضر على الجهاد في
جمع من الخوارج سنة ٨٥ هـ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (٣١٢)
أما بعد فإن الله عز وجل كتب علينا الجهاد، فمننا من
قضى نحبه، ومننا من ينتظر، وأولئك الأبرار الفائزون بفضلهم. ومن
يكن منا ينتظر فهو من سلفنا القاضين نحبهم، السابقين
بإحسان. فمن كان منكم يريد الله وثوابه، فليسلك سبيل
أصحابه وإخوانه، يؤته ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله مع
المحسنين.

وخطب عبد الله بن يحيى زعيم الإباضية لما استولى على
اليمن سنة ١٢٩ هـ فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه، ووعظ
وذكر وحذر، ثم قال: (٣١٣)

(٣١٠) الأغاني ١٠٤/٢٠ والبيان والتبيين ٦١/٢ وشرح النهج ٤٥٩/١.

(٣١١) السلمى ممن سلم من النهروان، ولم يكف عن إثارة الحماسة للخروج ودم الدنيا
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٣١٢) أدب السياسة للحوي ص ٣٢٥.

(٣١٣) أدب السياسة ص ٣٢٩.

إِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَإِجَابَةِ مَنْ دَعَا
إِلَيْهِمَا . الْإِسْلَامُ دِينُنَا ، وَمُحَمَّدٌ نَبِيُّنَا ، وَالْكَعْبَةُ قَبْلَتُنَا ، وَالْقُرْآنُ
إِمَامُنَا . رَضِينَا بِالْحَلَالِ حَلَالًا لَا نَبْغِي بَدِيلًا ، وَلَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا وَحَرَّمْنَا الْحَرَامَ ، وَنَبْذِنَاهُ وَرَاءَ ظَهْرِنَا . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ،
وَالِى اللَّهِ الْمَشْتَكِي ، وَعَلِيهِ الْمَعْوَلُ .. مَنْ زَنَى فَهُوَ كَافِرٌ ، وَمَنْ
سَرَقَ فَهُوَ كَافِرٌ . وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَهُوَ كَافِرٌ ، وَمَنْ شَكَّ فِي أَنَّهُ
كَافِرٌ فَهُوَ كَافِرٌ .

نَدْعُوكُمْ إِلَى فَرَائِضَ بَيِّنَاتٍ ، وَأَيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ ، وَأَثَارٍ مُقْتَدَى
بِهَا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ فِيمَا وَعَدَ ، عَدْلٌ فِيمَا حَكَمَ ، وَنَدْعُو
إِلَى تَوْحِيدِ الرَّبِّ ، وَالْيَقِينَ بِالْوَعِيدِ وَالْوَعْدِ ، وَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ ، وَالْأَمْرِ
بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْوَلَايَةِ لِأَهْلِ وِلَايَةِ اللَّهِ ، وَالْعِدَاوَةِ
لِأَعْدَاءِ اللَّهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ .. إِنْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، أَنْ جَعَلَ فِي كُلِّ فِتْرَةٍ بَقَايَا
مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَى الْهُدَى ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَلَمِ فِي
جَنْبِ اللَّهِ تَعَالَى ، يُقْتَلُونَ عَلَى الْحَقِّ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ شُهَدَاءَ ، فَمَا
نَسِيَهُمْ رَبُّهُمْ وَمَا كَانَ رُبُّكَ نَسِيًّا . أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَحَسَنِ

القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبلاوا لله بلَاءً حسناً في أمره
وذكره .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

ب — والقسم الثاني من نثر الخوارج وهو الرسائل ، هذه أمثلة
منه :

١ — من رسائلهم إلى خصومهم

كتب قطري بن الفجاءة جواباً على رسالة تعريض وتهديد
تلقها من الحجاج (٣١٤) .

من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف . سلامٌ علي
الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نَقَمَه . فالحمد لله
على ما أظهر من دينه وأظلع (٣١٥) به أهل السُّفال وهدى به من
الضُّلال ، ونصَّرَ به عند استخفافك بحقه . كتبت إليّ تذكر أنني
أعرابيٌّ حلفُ أُمِّي استطعمُ الكِسرة ، وأستشفي بالثَّمرة ، ولعمري
يا بنَ أمِّ الحجاج ، إنَّك لَمَتِيَّةٌ في جِبَلَتِكَ ، مُطَّلَخِمْ* (٣١٦) في

(٣١٤) البيان والتبيين ٢/٣١٠ وأدب السياسة ٤٠٦ .

(٣١٥) أظلع: اهتم وعاب .

(٣١٦) المتية والمطلخم: التكبر .

طريقتك ، وإه في وثيقتك ، لا تعرفُ الله ، ولا تجزغُ من خطيئتك ،
يسستَ واستيأستَ من ربك ، فالشيطان قرينك ، لا تجاذبه وثاقلك
ولا تنازعه خناقك ، فالحمدُ لله الذي لو شاء لأبرزَ لي صفحتك ،
وأوضحَ لي صلعتك ، فوالذي نفسُ قطري بيده ، لعرفت أن
مقارعة الأبطال ، ليست كتصدير المقال ، مع أني أرجو أن يدحض
الله حجتك ، وأن يمنحني مهجتك ..

وكتب نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن الزبير يدعوهُ إلى
أمره: (٣١٧)

أما بعدُ فإني أحذرك من الله (يوم تجد كل نفس ما عملت
من خير مُحضراً ، وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً
بعيداً ، ويحذركم الله نفسه) (٣١٨) فاتقِ الله ربك ، ولا تتول الظالمين ،
فإن الله يقول : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،
ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) (٣١٩) وقد حضرت عثمان
يوم قُتل ، فلعمري لئن كان قُتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وخاذلوه ،
ولئن كان قاتلوه مهتدين — وإنهم لمهتدون — لقد كفر بتولاه .

(٣١٧) الكامل للمبرد / ١١٦ .

(٣١٨) سورة آل عمران / ٣٠ .

(٣١٩) سورة آل عمران / ٢٨ .

وينصره ويعضده . ولقد علمت أن أباك وطلحةً وعلياً كانوا أشدَّ
الناس عليه ، وكانوا في أمره من بين قاتلٍ وخاذلٍ ، وأنت تتولَّى أباك
وطلحةً وعثمان ، فكيف ولاية قاتلٍ معتدٍ ومقتولٍ في دين واحد ؟
ولقد ملك عليٌّ بعده فنفى الشُّبهات ، وأقام الحدود ، وأجرى
الأحكام مجاريها ، وأعطى الأمور حقائقها ، فيما عليه وله ، فبايعه
أبوك وطلحةُ ، ثم خلعاها ظالمين له ، وإن القول فيك وفيهما لكما
قال ابن عباس : إن يكن عليٌّ في وقت معصيتكم ومجارتكم له
كان مؤمناً ، أما لقد كفرتم بقتال المؤمنين ، وأئمة العدل ، ولئن كان
كافراً كما زعمتم ، وفي الحكم جائراً ، لقد بوَّتم بغضبٍ من الله لفراركم
من الزحف .

ولقد كنت له عدواً ، ولسيرته عائباً ، فكيف توليته بعد
مرته ! فاتق الله ، فإنه يقول : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه
منهم ﴾ (٣٢٠) .

٢ — من رسائلهم إلى بعضهم البعض

كتب نجدة بن عامر (الخارجي) إلى نافع بن الأزرق
(الخارجي) (٣٢١) لما سار الخوارج إلى الأهواز بعد أن نصرُوا ابن الزبير ،

(٣٢٠) سورة المائدة / ٥١ .

(٣٢١) الكامل للمبرد ١١٤/٢ والعقد الفريد ١١٤ وأدب السياسة ٤٠٣ .

وقد أمروا عليهم نافع بن الأزرق الحنفي ، ثم شجر بينهم الخلاف ،
فانفصل جماعة منهم بزعامة نجدة ، ومضوا إلى الإمامة بنجد :

بسم الله الرحمن الرحيم — أما بعد ، فإن عهدي بك وأنت
للإتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البر ، لا تأخذك في الله لومة
لائم ، ولا ترى معونة ظالم . كذلك كنت أنت وأصحابك . أما
تذكر قولك : « لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع
رعيتي ، ماتوليت أمر رجلين من المسلمين ؟ » فلما شريت^(٣٢٢)
نفسك في طاعة ربك ابتغساء رضوانه ، وأصبت من الحق
فصه^(٣٢٣) ، وركبت مره ، تجرد لك الشيطان ، ولم يكن أحد أثقل
عليه منك ومن أصحابك ، فاستمالك واستهواك ، واستغواك
وأغواك ، فكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قعد
المسلمين^(٣٢٤) وضعفتهم ، فقال جل ثناؤه ، وقوله الحق ، ووعده
الصدق : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين

(٣٢٢) شريت : بعث نفسك لله ، ومنه اسم الشراة للخوارج .

(٣٢٣) فصه : مفصله .

(٣٢٤) القعد : هم الذين يرون رأي الخوارج ، دون حمل السلاح .

لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٣٢٥﴾ ثُمَّ سَمَّاهُمْ
أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٣٢٥) .
ثُمَّ اسْتَحَلَّتْ قَتْلَ الْأَطْفَالِ ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَنْ
قَتْلِهِمْ ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٣٢٦)
وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْقَعْدِ خَيْرًا ، وَفَضَلَ اللَّهُ مِنْ جَاهِدِ عَلَيْهِمْ ،
وَلَا تَدْفَعُ مَنْزِلَةَ أَكْثَرِ النَّاسِ عَمَلًا مَنْزِلَةً مِنْهُ دُونَهُ ، أَوْ مَا سَمِعْتَ
قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي
الضَّرْرِ ﴾ (٣٢٧) . فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَفَضَلَ عَلَيْهِمُ الْمُجَاهِدِينَ
بَأَعْمَالِهِمْ .

وَرَأَيْتَ أَلَّا تُؤَدِّي الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ خَالَفَكَ ، وَاللَّهُ يَأْمُرُ أَنْ
تُؤَدِّي الْأَمَانَاتُ إِلَى أَهْلِهَا ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَانظُرْ لِنَفْسِكَ ، وَاتَّقِ يَوْمًا
لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ، فَإِنَّ اللَّهَ
عَزَّ ذَكَرَهُ بِالْمَرْصَادِ ، وَحُكْمِهِ الْعَدْلُ وَقَوْلُهُ الْفَصْلُ ، وَالسَّلَامُ .
فَرَدَّ نَافِعٌ عَلَى نَجْدَةَ : (٣٢٨)

(٣٢٥) سورة التوبة / ٩١ / .

(٣٢٦) سورة فاطر ١٨ .

(٣٢٧) سورة النساء ٩٥ .

(٣٢٨) الكامل للمبرد ١١٥ - العقد الفريد ٢١٤ وأدب السياسة : ٤٠٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَمَا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَعْظُمِي فِيهِ وَتَذَكِّرُنِي وَتَنْصَحُ لِي وَتُزَجِّرُنِي ، وَتَصِفُ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَمَا كُنْتُ أُؤْتِرُهُ مِنَ الصَّوَابِ ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ .

وَعَبْتُ عَلَيَّ مَا دَنْتُ بِهِ مِنْ إِكْفَارِ الْقَعْدِ ، وَقَتْلِ الْأَطْفَالِ ، وَاسْتِحْلَالِ الْأَمَانَةِ ، فَسَأْفَسِرُ لَكَ لِمَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

أَمَا هَؤُلَاءِ الْقَعْدُ ، فَلَيْسُوا كَمَا ذَكَرْتَ ، مِمَّنْ كَانُوا بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا بِمَكَّةَ مَقْهُورِينَ ، لَا يُجَدُّونَ إِلَى الْهَرَبِ سَبِيلًا وَلَا إِلَى الْإِتِّصَالِ بِالْمُسْلِمِينَ طَرِيقًا ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ فَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ ، وَالطَّرِيقَ لَهُمْ نَهْجٌ وَاضِحٌ ، وَقَدْ عَرَفْتَ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَمَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ ، إِذْ قَالُوا : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣٢٩) فَقِيلَ لَهُمْ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (٣٣٠) . وَقَالَ : ﴿ فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ (٣٣١) . وَقَالَ : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيَسْؤَدَنَّ

(٣٢٩) سورة النساء ٩٧ .

(٣٣٠) سورة النساء ٩٧ .

(٣٣١) سورة التوبة ٨١ .

لهم ﴿٣٣٢﴾ فخير بتعذيبهم وأنهم كذبوا الله ورسوله . وقال :
﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذابٌ أليم ﴾ (٣٣٣) . فانظر إلى
أسمائهم وسماتهم .

وأما أمرُ الأطفال فإن نبيَّ الله نوحاً، عليه السلام كان أعلم
بالله يا نجدة مني ومنك، فقال : ﴿ رب لا تذرْ على الأرض من
الكافرين دياراً، إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عبادَكَ، ولا يلدوا إلا فاجراً
كفّاراً ﴾ (٣٣٤) . فسماهم بالكفر وهم أطفال قبل أن يولدوا،
فكيف كان ذلك في قوم نوح، ولا نكونُ نقوله في قومنا؟ والله
يقول : ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ، أمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي
الزُّبُرِ ﴾ (٣٣٥) . وهؤلاء كمشركي العرب، لا تقبل منهم جزية،
وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلالُ أماناتٍ من خالفنا، فإن الله عزَّ وجلَّ أحلَّ
لنا أموالهم، كما أحلَّ لنا دماءهم، فدمائهم حلالٌ طَلَّقُ (٣٣٦) ،

(٣٣٢) سورة التوبة ٩٠ .

(٣٣٣) سورة التوبة ٩٠ .

(٣٣٤) سورة نوح ٢٦، ٢٧ .

(٣٣٥) سورة القمر / ٤٣ / الزهر جمع زور وهو الكتاب .

(٣٣٦) طَلَّقُ : حلال .

وأموالهم فيء للمسلمين . فأتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ، ولن يستعك خذلائنا والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقاتلتنا .

والسلام على من أقر بالحق وعمل به .

وكتب نافع بن الأزرق إلى من بالبصرة من المحكّمة : (٣٣٧)
بسم الله الرحمن الرحيم — أما بعد ، فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون — والله إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة ، والدين واحد ، ففيمَّ المقام بين أظهر الكفار ؟ ترون الظلم ليلاً ونهاراً ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد فقال : ﴿ فقاتلوا المشركين كافة ﴾ (٣٣٨) ولم يجعل لكم في التخلف عذراً في حال فقال : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ (٣٣٩) ، وإنما عذر الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون ، ومن كانت إقامته لعلّة ثم فضّل عليهم مع ذلك المجاهدين ، فقال : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير

(٣٣٧) المحكّمة : الخوارج ، لقولهم : لا حكم إلا لله — الكامل للمبرد ١١٧ وأدب

السياسة : ٤٠٨ .

(٣٣٨) سورة التوبة ٣٦ .

(٣٣٩) سورة التوبة ٤١ .

أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله ﴿٣٤٠﴾ فلا تغتروا ولا تطمئنوا
إلى الدنيا، فإنها غرارة مكارة، لذتها نافذة، ونعمتها بائدة، حُفَّتْ
بالشهوات اغتراراً، وأظهرت حَبْرَةً ﴿٣٤١﴾ وأضمرت عِبْرَةً، فليس
آكُلُ منها أكلةً تسره، ولا شاربٌ شربةً تؤنقه ﴿٣٤٢﴾ إلا دنا بها درجةً
إلى أجله، وتباعد بها مسافةً من أمله، وإنما جعلها الله داراً لمن تزوّد
منها إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، فلن يرضى بها حازمٌ داراً،
ولا حليمٌ بها قراراً. فاتقوا الله ﴿٣٤٣﴾ وتزودوا فإن خير السزاد
التقوى ﴿٣٤٣﴾. والسلام على من اتبع الهدى.

جـ — وهناك نوع ثالث من نثر الخوارج، لنسمّهُ: الحوار أو
الجدل أو المناظرة، وهو نثر شفهي كثر في العصر الأموي، اقتضته
الحياة العامة في ذلك العصر، وبشبه المفاخرات والمنافرات التي
كانت في الجاهلية، من حيث قيامها على الحرية والجرأة وبراعة
البيان.

وهذا النوع من النثر يعتمد على مواتاة البديهة، وإسعاف

(٣٤٠) سورة النساء ٩٥ .

(٣٤١) الحيرة: النعمة وسعة العيش .

(١٤٢) تؤنقه: تعجبه .

(٣٤٣) سورة البقرة ١٩٧ .

الخاطر وذلاقة اللسان، أكثر مما يعتمد على الروية والتأنق، لأنه وليد الساعة، فلا فرصة فيه للتجويد والتنميق، وهو أدل على الفصاحة من الرسائل المسطرة، والخطب المصنوعة .

وقد روت كتب الأدب كثيراً من هذه المحاورات، منها ما جرى بين معاوية وخصومه، وبين الحجاج وخصومه وبين عبد الله ابن الزبير وخصومه .

أما الخوارج، فقد تحاوروا مع عليّ قبل التحكيم، وكذلك مع عبد الله بن عباس رسولاً لعليّ، وحاوروا جند المهلب وحاوروا غيرهم .

جاء في حوارهم لابن عباس نيابة عن عليّ : (٣٤٤)

ابن عباس : ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين ؟
الخوارج : قد كان للمؤمنين أميراً، فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان، فليتّب بعد إقراره بالكفر نعدّ إليه .
ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقرّ على نفسه بالكفر .

الخوارج : إنه قد حكم .

(٣٤٤) الكامل للمبرد / ٩ / وأدب السياسة للحوفي ٣٦٩ .

ابن عباس : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد فقال
عز وجل : ﴿يُحْكَمُ بِهِ ذُوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٣٤٥) فكيف في إمامة قد
أشكلت على المسلمين؟

الخوارج : إنه قد حُكِمَ عليه فلم يرض .

ابن عباس : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت
معصيته ، وكذلك الحكمان ، لما خالفا نبذت أقاويلهما .

الخوارج بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ،
فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿بل هو قومٌ
خصمون﴾^(٣٤٦) وقال الله عز وجل : ﴿وتنذر به قوماً
لُدًّا﴾^(٣٤٧) .

وقد أوردنا فيما سبق من هذا الكتاب محاورة جرت بين
الخوارج وبين جند المهلب ، يوم كان يجارب لمصعب بن الزبير ضد
الملك بن مروان .

فإذا أردنا بعد ذلك أن نوضح بعض خصائص النثر

(٣٤٥) سورة المائدة ٩٥ .

(٣٤٦) سورة الزخرف / ٥٨ .

(٣٤٧) سورة مريم / ٩٧ .

الخارجي ، رأينا أن هذا النثر يشترك مع غيره من نثر العصر الأموي
بكثير من الصفات وينفرد بصفات أخرى تبرز ما فيه من
خصوصية ، ونفس خارجي نافذ يفرض تفرده على القارىء .

ففي الخطابة :

- آ — كان خطباؤهم يُعدّون ما يلقون من خطب قبل إلقائها ،
إلا إذا اقتضى الموقف الارتجال ، فقد روي أن الخوارج
الأوائل طلبوا من عبد الله بن وهب الراسبي — أول
خلفائهم — يوم ولوه رئاستهم أن يخطب فيهم فقال :
وما أنا والرأي الفطير ، والكلام القضيب^(٣٤٨) .
- ب — كانوا يفتتحون الخطبة بحمد الله والثناء عليه والصلاة
والتسليم على النبي .
- ج — كانوا يستعملون العنف والتهديد : فقد بالغ أبو حمزة في
شتم معاوية ويزيد ومن وليهما من خلفاء بني أمية ، وهدد
أهل المدينة يوم دخلها فاتحاً فمما قاله : والله لولا انشغالي
بغيركم عنكم ما تركتُ الأخذ فوق أيديكم .. الخ ..
- د — استعمال التخيل والتصور : من استعارات وكنائيات

(٣٤٨) البيان والتبيين ١/٢٠٥ الكلام القضيب : المرئجل .

وتشبيهات: برقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت،
أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم .. الخ ..
هـ — قوة العبارة، وقصر الجمل، وغلبة الأيجاز، والعناية بالوقع
والرنين .

و — التأثير بالقرآن الكريم، وهذه سمة ظاهرة فلا تخلو خطبة
خارجية طويلة كانت أم قصيرة، من القرآن الكريم إماً
أخذاً بالحرف وإماً تأثيراً بالمعنى، من ذلك قول أبي حمزة
في تزكية القتلى من أصحابه: فطوبى لهم وحسن
مآب^(٣٤٩) وقول حيان بن ظبيان: فمنا من قضى نحبه
ومنا من ينتظر، من قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه
ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً﴾^(٣٥٠) . وغير ذلك
كثير .

ونستطيع أن نجمل صفات الخطب الخارجية بأنها:
١ — تصوّر الخارجي، شاباً كان أم كهلاً بأنه: زاهد في الدنيا
مقبل على الآخرة، مَنَحَ نفسه وبدنه لله، مُسارعٌ إلى الجهاد

(٣٤٩) مأخوذ من الآية الكريمة: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، طوبى لهم وحسن

مآب . سورة الرعد / ٢٩ / .

(٣٥٠) سورة الأحزاب ٢٣ .

مستهين بالحياة، يُبدي من فنون البسالة والبراعة الحربية ما يعجز عنه الوصف .

٢ — تبدو الخطابة الخارجية بأمثل خواصها الفنية: فصاحة ما بعدها فصاحة، وقوة وجزالة، ووضوح في التعبير والكلمات، وإيجاز في العبارات، واعتماد على السجع والازدواج والخيسال المثير والكناية المشخصة للمعاني، والتصوير البارع، والقدرة على الاستمالة، يضاف إلى ذلك تأثير واضح بالقرآن الكريم في المعاني والعبارات، ثم هي خطب معدفة بالعواطف الحارة، يُحس من يقرأها أن فلوب قائلها على ألسنتهم .

وهكذا فإنه عندما يذكر خطباء العرب المبرزون وفصحائهم المشهورون، يقفز خطباء الخوارج ليقفوا في الصف الأول إلى جانب علي والحجاج وزيد، أمثال: قطري بن الفجاءة، وأبي حمزة الخارجي، وعبيدة بن هلال، وحيان بن ظبيان، وعبد الله بن يحيى، وغيرهم .

وأما رسائل الخوارج فإنها:

آ — تعتمد على قوة الحججة، وتجويد العبارة، وانتقاء الكلمات المناسبة، والإيجاز، والاقتباس من القرآن الكريم، وقد تأثرت بالشعر استفتاحاً واستشهاداً، حتى إن بعضها

كان شعراً لا نثر فيه ، كتلك الرسالة الشعرية التي أرسلها قطري بن
الفجاءة إلى سبرة بن الجعد الخارجي يدعوه فيها إلى
الخروج (٣٥١) :

جاء في هذه الرسالة : (٣٥٢)

لَشْتَانِ مَا بَيْنَ ابْنِ جَعْدٍ وَبَيْنَنَا
إِذَا نَحْنُ رَحْنَا فِي الْحَدِيدِ الْمَظَاهِرِ (٣٥٣)
نَجَاهِدُ فِرْسَانَ الْمَهْلَبِ كَلْنَا
صَبُورٌ عَلَى وَقَعِ السُّيُوفِ الْبَوَاتِرِ
أَبَا الْجَعْدِ ، أَيْنَ الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنُّهْيُ
وَمِيرَاثُ آبَاءِ كِرَامِ الْعُنَاصِرِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَوْتَ لَأَشْكُ نَازِلٌ
وَلَا يَدُّ مِنْ بَعَثِ الْأَلَى فِي الْمَقَابِرِ
فَرَا جَعُ أَبَا جَعْدٍ وَلَا تَكُ مَغْضِباً
عَلَى ظَلْمَةٍ أَعَشَتْ جَمِيعَ التَّوَاظِرِ

(٣٥١) مروج الذهب ١٣٨/٢ .

(٣٥٢) المصدر السابق وأدب السياسة ٤٢٣ وتاريخ الشعر العربي للكفراوي
١٥٢/٢ .

(٣٥٣) الحديد المظاهر : الدرع المزدوجة .

وتب توبة تُهدي إليك شهادة
فإنك ذو ذنوب، ولست بكافسر
وسير نحونا تلق الجهاد غيممة
تفذك ابتياعاً رابحاً غير خاسر
هي الغاية القصوى الرغيب ثوابها
إذا نال في الدنيا الغنى كل تاجر
فلما قرأ سيرة كتاب قطري بكى، وركب فرسه وأخذ
سلاحه، ولحق به .

ب- وقد اتصفت رسائل الخوارج بسعة الخيال : إذ كثر فيها
المجاز والتمثيل والتصوير والخيال كقول نجدة لنافع : إن عهدي بك
وأنت لليتيم كالأب الرحيم، والمضعيف كالأخ البرّ... أو .. فلما
أصبحت من الحق فصّه، وركبت مرّه، تجرد لك الشيطان ..

ج- ومن صفاتها : السجع غير المستكره في بعض مقاطعها،
مثال ذلك ما جاء في رسالة نجدة لنافع : لاتأخذك في الله لومة
لائم، ولا ترى معونة لظالم، استمالك الشيطان واستهواك، واستغواك
وأغواك .. الخ ..

د— وهم يستفتحون رسائلهم بالبسملة و.. أما بعد.. ثم يدخلون في صلب الموضوع.

ه— وكان مرسل الرسالة منهم يكتفي بقوله في أول الرسالة : من فلان إلى فلان، فيذكر اسمه واسم المرسل إليه دون أي زيادة أو تبجيل أو تملق فهم لم يكتبوا من يعترفون بتفوقهم عليهم، لقد كان غيرهم يكتب من فلان إلى أمير المؤمنين أو إلى مولانا أو غير ذلك مما لم يدخل في قاموس الخوارج الكتابي..

ومعروف أن تجويد الرسائل في العصر الأموي بلغ حداً كبيراً من العناية حتى لقد تخصص بها نفر من الكتاب وظفتهم الدولة وسمّتهم كتاباً للرسائل كعبد الحميد وغيره، أما الخوارج فكان قادتهم هم الكتاب وهم الأدباء.

أما الخوارج.. فيتصف بصفات الرسائل والخطب، من اعتماد على الإيجاز، وقوة الحجة، وبراعة المحاجة، وقلب حجة الخصم عليه وغير ذلك.

وما دنا في دائرة أدب الخوارج، فلا بد من الإشارة إلى الحركة الفكرية والثقافية عندهم، وتحويل القارئ إلى ما كتبناه آنفاً

في صفحات سابقة من هذا الكتاب عن وضعهم الفكري وحركة التأليف عندهم .

حتى إذ انتقلنا للحديث عن الشعر :

وجدنا أنه يشترك مع النثر في مجموعة من الصفات ، إذ إن المشارب واحدة ، والنوازع واحدة ، والأشخاص هم أنفسهم الشعراء والخطباء والكتاب ، وإذا انفرد الشعر بصفات لا توجد في النثر ، فإن ذلك ما تقتضيه طبيعة كل منهما كفنين مختلفين من فنون القول .

إن لشعر الخوارج من الميزات والخواص ما يجعله فريداً بين أنواع الشعر ، فهو كالخوارج أنفسهم نبتة إسلامية جديدة بأكثر صفاتها ، وقبل تفصيل هذه الصفات ، نشير إلى جملة من آراء بعض النقاد المحدثين في هذا الشعر :

قال الأستاذ أحمد الشايب^(٣٥٤) : « أمّا عن شعر الخوارج فالقول الفصل فيه : إنه كان أصدق صورة أدبية لمذهب ديني سياسي ، لا يشاركه في هذا الوصف شعر آخر . »

(٣٥٤) تاريخ الشعر السياسي ١٦٥ - ١٨٣ - ٣٠١ .

كما أشار في كتابه (الأسلوب) إلى أن الخوارج لم تفسدهم الحضارة، بل حافظوا على صفاء الطبع، وسلامة الخلق والجرأة والصراحة، وصدق الشعور، وقوة العقيدة، وإن سلامة الخلق والطبع هي الأساس الأول لقوة الشعر وجماله ووضوحه، وهذه هي الصفات المثالية لكل فن أدبي، والخوارج جيل إسلامي قرآني بخلقه وثقافته وأدبه ومنهجه السياسي، فكان شعرهم إسلامياً قوياً جديداً.

وجاء على لسان حنا فاخوري^(٣٥٥) قوله: «كان شعرهم شعر العقيدة التي تفنى فيها الشخصيات، وأسلوبه خطابياً احتجاجياً ثورياً. وامتاز شعرهم بالجدة لأنه ابتعد عن تقليد الأقدمين واتخاذ أسلوبهم في تركيب القصيدة، فكان موضوعه مذهباً حديثاً تدعّمه آراء وحجج إسلامية متخذة من القرآن والسنة، وكانت غايته الجهاد في سبيل العمل الصالح، وقد أجري على أسلوب هو مزيج من الجزالة والسلاسة والرقّة، إلا أن هذا الشعر لم يكن إلا مقطوعات وقصائد قصيرة».

(٣٥٥) تاريخ الشعر العربي ٢٦٧ - ٢٦٨.

وشبيه بهذا ما أشار إليه الدكتور عبد القادر القط (٣٥٦) من أن شعرهم يعكس حياتهم السياسية بجانبها الفكري والعسكري، ويمتاز فيه التأمل والزهد بالفداء والتضحية والاستشهاد في ميادين القتال، مع مسحة غالبة من الحزن الشجي لمصارع إخوانهم في كل حين وفي كل أرض.

كذلك فإن الدكتور أحمد الحوفي (٣٥٧) أتى بآراء قيمة في شعر الخوارج.

وملخص القول في شعرهم: إنه شعر جديد في معانيه وموضوعاته وغاياته، فهو جهاد في سبيل الحكم الأفضل، والنظام السليم من الفساد، جديد في خلق رجاله، وعواطفهم المهدبة الرقيقة، وهو مقطعات قصيرة لا قصائد طويلة، وهو تصوير حقيقي لواقعهم من صدق في العقيدة، وسرعة في الانفعال، وعفوية في القول، فصاحة بدوية، قوة واستشهاد، وحض على الثورة، إيجاز وقوة في اللفظ، وحرارة في العواطف، يتشابه الشعر

(٣٥٦) في الشعر الإسلامي والأموي: ٣٧٦.

(٣٥٧) أدب السياسة في العصر الأموي: ٢٢٠ — ٢٣٩.

والشعراء، وتقلّ الموضوعات، ويخلو من العصبية، ويبرز فيه الصدق والصراحة والوضوح.

وسأضع بعض ما سبق إجماله، في عناوين مستقلة وأتحدث عنه بشيء من التفصيل:

١ - إنه شعرٌ قليل

فلم يكثر الخوارج من نظم الشعر، وليس لشعرائهم دواوين مطبوعة تتصدر واجهات المكتبات، وحتى قصائدهم، فهي من نوع المقطعات لا المطولات، خواطر تعبر مخيلاتهم، فتنسجها مواهبهم أبياتاً ليست بالكثيرة، أو أراجيز اقتضتها المبارزات والمنازلات في ساحات الحروب.

وفي مجال المقارنة بين شعرائهم وشعراء الأحزاب الأخرى، لا بد من الأخذ بعين الاعتبار أنه ليس للخوارج (شعراء) متفرغون ينطقون باسمهم، وينصرون قضيتهم بألسنتهم وحدها، ليس عندهم من (يحترف) الشعر وينصرف له، فالشاعر هو القائد العسكري والزعيم الديني، هو المحارب والعايد، ليس لديهم زعماء وشعراء،

إلا ما قيل عن الطرماح — والطرماح ليس شاعراً خارجياً كما سنرى في القسم الثاني من هذه الدراسة (٣٥٨).

ومن أسباب قلة شعر الخوارج، أنهم قصرُوا موضوعاته على عقيدتهم الدينية والسياسية، فلا هجاء إلا نفثات الغضب التي كانت تصب على الخصم المبارز أثناء الحرب، ولا فخر إلا ما كان بأخلاق مقاتليهم وحسن بلائهم وعفتهم وزهدهم، ولا مدح على طريقة غيرهم تملقاً وارتزاقاً، ولا وصف لأيٍّ من الموصوفات المعروفة كالصحراء والطريق والناقة، ومشاهد الصيد ومجالس الانس، مما أغنى ديوان الشعر العربي وزاد من إنتاجه، كذلك لم يقفوا على أطلال ولا مهدوا لأغراضهم بمقدمات غزلية أو غير غزلية، كما أن رثاءهم كان قليلاً...

آ — فإذا ورد عندهم شيء من الغزل، فقد جاء غزلاً فريداً من نوعه، تقرب للحبيبة بحب الله وحب الموت في سبيل العقيدة، وقد جاء تباهاً بالبلاء الحسن والسير في طريق الشهادة.

شاعر في ساحة الوعي يود لو شاهدته الحبيبة، وهو يجود بنفسه، ويبذل حشاشته في سبيل الله، إذاً لزيد إعجابها به وتقربها منه.

(٣٥٨) أقصد بالقسم الثاني، كتاباً خاصاً عن الطرماح.

كان ذلك للقائد الشاعر الخارجي قطري بن الفجاءة - في
معركة دولاب - (٣٥٩)

لَعَمْرُكَ إِنِّي فِي الْحَيَاةِ لِرَاهِدٌ
وَفِي الْعَيْشِ مَا لَمْ أَلْقَ أُمَّ حَكِيمٍ
مِنَ الْخَفَرَاتِ أَلْبِيضَ لَمْ يَرِ مِثْلُهَا
شَفَاءٌ لِدِي بَثٌّ وَلَا يَسْقِيهِمْ
لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَلْطَمُ وَجْهَهَا
عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ جُدٌّ لَيْمٍ
وَلَوْ شَهِدْتَنِي يَوْمَ (دَوْلَابٍ) أَبْصَرْتُ
طَعَانَ فَتَى فِي الْحَرْبِ غَيْرِ ذَمِيمٍ
وَلَسَوْ شَهِدْتَنَا يَوْمَ ذَاكَ وَخَيْلُنَا
تُبِيحُ مِنَ الْكُفَّارِ كُلِّ حَرِيمٍ
رَأَتْ فِتْيَةً بَاعُوا إِلَالَةَ نَفُوسَهُمْ
بِحَنَاتِ عَدْنٍ عِنْدَهُ وَنَعِيمٍ

وأم حكيم هذه امرأة خارجية فائقة الجمال، فائقة

(٣٥٩) شعر الخوارج / ٤٤ / والكامل ١٢٣، وشرح النهج ١/٦٠٥.

الشجاعة، قيل: إنها كانت زوجة قطري، — وفي الأبيات ما يدل على ذلك — (لعمرك إني يوم أطم وجهها) وسواءً أكانت زوجته أم لم تكن، فقد كانت خارجيةً تثير الإعجاب بكل صفاتها تنازل فرسان الأعداء، والخوارج يفتنونها بالآباء والأمهات وتقول مرتجزة: (٣٦٠)

أحملُ رأساً قد سئمتُ حملةً وقد ملكتُ ذهنه وغسله
ألا فتىً يحملُ عني ثقله

والمرأة عند الخوارج لم تكن موضوع غزل، فهي ليست جاريةً ولا عشيقةً ممشوقةً القَد كحيلة العينين، تتزيّن للرجال، بل كانت الأمّ المثالية والزوجة الوفية، والمقاتلة التي يحسب لها الشجعان ألف حساب، كانت ترى أن رسالتها أسمى من أن تظفر بزواج، قالت أم حكيم السالفة الذكر وقد خطبها جماعة من أشراف الخوارج فردتهم: (٣٦١)

ألا إنَّ وجهاً حسنَ اللهُ خَلْقَهُ
لأجدرُّ أن يُلفى به الحسنُ جامعا

(٣٦٠) شرح هج البلاغة ١/٥١٨ وشعر الخوارج ٤١ والكامل ١٢٣.

(٣٦١) شعر الخوارج / ٤١.

وأكرم هذا الجرم عن أن ينالهُ
تورُّكٌ فحليلٌ همُّهُ أن يُجامعاً

وقد سبق أن ذكرنا بعض نساء الخوارج، كغزالة الشيبانية
التي هرب منها الحجاج، وعيَّره بذلك أسامة بن سفيان البجلي أو
عمران بن حطان: (٣٦٢)

أسدٌ عليٌّ وفي الحروب نعامةٌ
رَبْدَاءُ تنفُرُ من صفيير الصَّافِرِ
هَلَّا برزتَ إلى (غزالة) في الوغى
بل كان قلبك في جناحي طائر

ومن نسائهم (الفارعة) أخت القائد الخارجي الوليد بن
طريف الشيباني الذي خرج بالجزيرة السورية على الرشيد، فأرسل
إليه القائد العباسي يزيد بن يزيد الشيباني فقتله، وكانت الفارعة
شاعرة بارعة فرثته (٣٦٣)

لم يكن غزل الخوارج وصفاً لمفاتن المرأة، ولا تصويراً لحال
العاشق المتيم الذي جافاه النوم لفراق الحبيب، ولم يكن ترغيباً

(٣٦٢) البياد والتبيين ١/١٢٨.

(٣٦٣) البيان والتبيين ٣٤٢ وشرح النهج ١/٩١ وضحى الإسلام ٣/٣٤٦.

للمرأة بالمال والجاه والنسب الشريف، بل كان تقريباً لها بحب الله
وطاعته، والشجاعة وحسن البلاء في الحروب، يقول المعتق أحد
رجالهم (٣٦٤):

ليت الحرائر بالعراق شهيدتنا ورأيتنا بالسفح ذي الأجدال
لنكحن أهل الجد من فرساننا والضارين جماجم الأبطال

وإغناء لهذا الموضوع أورد رأياً للدكتور عبد القادر
القط (٣٦٥) في هذا المجال، جاء فيه، أن للمرأة عند الخوارج
وضعاً جديداً يختلف عن وضعها التقليدي، فهي ليست
موضوعاً للغزل العاطفي بل هي رفيق سلاح أو كفاح للشاعر،
تخوض معه المعارك أحياناً، وتبلي بلاءً لا يكاد يقل عن بلاء
الرجال، (فجمرة) زوجة عمران بن حطان، شدته نحو المذهب
الخارجي، فأصبح من أئمة، وهو إذ يتحدث عنها — على
جمالها — لا يصف محاسنها كما اعتاد الشعراء، بل يطري ما يعلم من
كريم خلقها فيقول (٣٦٦):

(٣٦٤) شرح النهج / ٥٢٣.

(٣٦٥) في الشعر الإسلامي والأموي ٣٧٨ — ٣٧٩.

(٣٦٦) في الشعر الإسلامي والأموي ٣٨ وشعر الخوارج / ١٧ / حيث للدكتور
إحسان عباس رأي مشابه.

يا جمر إني على ما كان من خلقي
مشن بخصلات صدقِ كلُّها فيك
اللَّهُ يعلمُ أني لم أقلُ كذباً
فيما علمت وأني لأزكّيك

غير أن للمرأة صورة أخرى في شعر الخوارج ، تشبه صورتها
في شعر غيرهم ممن تقدموهم ، كأن تحاول ثني زوجها عن الحرب
حفاظاً عليه ، أو تلومه لطول غيابه ، أو تعاتبه إذا لم يحضر لها هدية
بعد غياب طويل ، من أمثلة ذلك ما قاله زياد الأعسم عند
خروجه (٣٦٧) :

تعاتبني عرسي على أن أطيعها
وقبل سليمى ماعصيت الغوانيا
فكفي سليمى واتركي اللوم إنسي
أرى فتنة صماء تبدي المخازيا
فكيف قعودي والشرأة كما أرى
عزّين (٣٦٨) يلاقمون البلياً الدواهيأ؟

(٣٦٧) شعر الخوارج ٦٥ .

(٣٦٨) عزّين : جماعات .

وقال الآخر (٣٦٩) :

تعيرني بالحرب عرسي وما دَرَثَ
بأني لها في كلِّ ما أمرتْ ضدُّ
لحا الله قوماً يقعدون وعندهم
سيوفٌ ولم يُعصبْ بأيديهم قُدُّ (٣٧٠)

وقال ثالث (٣٧١) :

وسائليَ بالغيب عني ولو دَرَثَ
مقارعتي الأبطال طال نحيبها
إذا ما التقيتُها كنتُ أولَ فارسٍ
يجودُ بنفسِ أثقلتها ذنوبها

وما قاله يزيد بن حبناء، وقد كتبت إليه زوجته تطلب هدايا
وأطافاً (٣٧٢) :

دعي اللوم إن العيشَ ليس بدائمٍ
ولا تعسجلي باللومِ يا أمَّ عاصم

(٣٦٩) شعر الخوارج ١١٧.

(٣٧٠) القُدُّ: سير من جلد القيد.

(٣٧١) شعر الخوارج ١١٦.

(٣٧٢) شعر الخوارج ٤٦.

فإن عجلتُ منك الملامة فاسمعي
مقالةً معنيً بحقك عالم
ولا تعدلينا في الهدية إنَّما
تكون الهدايا من فضول المغانم
فليس بمهيدٍ من يكون نهاره
جلاداً، ويمسي ليلسه غير نائم

غير أن الصورة الحقيقية للمرأة الخارجية، هي ما أسلفنا من
أنها رفيقة سلاح وكفاح، لا غانية متبرجة، أو زوجة جازعة، وتلك
هي عواطف الغزل عندهم، وهذه هي طجتهم في هذا الفن، ثم إن
هذه هي دوافعهم إليه، وهذه هي المرأة التي يتطلعون إليها بغزلهم.

ب— أما رثاء الخوارج: فلم يكن آهاتٍ حزينٍ ولا دموعٍ أسى
عقيمة، بل كان — على قلته — حزن المؤمن الصابر الصامت المعتز
بالشهادة، المتشوق إلى الظفر بها، أو كان نوعاً من الفخر بمناقب
الفقيد، فخر المتطلع إلى ميته تكسبه حسن الأحداث في الدنيا
وجوار الله والإخوان في الآخرة، قال أحمد أمين^(٢٧٣) عن رثائهم:
« قد يرثون ويبكون، ولكنهم حتى في رثائهم وبكائهم أقوياء، يذرفون

(٢٧٣) ضحى الإسلام ٣/٢٤١ - ٢٤٢.

الدمع ليسفكوا الدم، ويكون الميت ليتشجع الحي، ويندبون
المفقود ليرسموا المثل الأعلى للموجود» فعندما قتل مرداس بن أدية
— أحد فرسان الخوارج وشعرائهم — صاح شاعرهم (٣٧٤) :

يا عين بكّي لمرداس وصحيتيه

يارب مرداس اجعلني كمرداس (٣٧٥)

وقد كان مرداس يتمنى أن يظفر بالميتة التي حصل عليها،
يخرج في سبيل الله فيقتل، إذ ما قيمة الحياة بعد أن يرى الإنسان
أصحابه صرعى في ساحات القتال، قال (٣٧٦) :

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى

ومن خاض في تلك الحروب المهالكا (٣٧٧)

أحبُّ بقاءً أو أرجي سلامة

وقد قتلوا زيد بن حصن ومالك

(٣٧٤) عمران بن حطان .

(٣٧٥) جاء البيت في شعر الخوارج ص ١٥ على الشكل التالي :

يا عينُ بكّي لمرداس ومصرعه يارب مرداس الحقنسي بمرداس

(٣٧٦) شعر الخوارج / ١٠ / وأدب السياسة / ٢٢٤ / .

(٣٧٧) عبد الله بن وهب الراسبي أول خلفاء الخوارج .

فيا ربِّ سلِّمْ نَيْتِي وبصيرتي

وهبْ لي التَّقَى حتى أُلَاقِي أولئِكَ

فلم يطل انتظاره حتى استجاب اللهُ له ورزقه الشهادة التي طلب، ثم رثاه الكثيرون : رثاه عمران بن حطان — أحد زعماء القعدة — (الذين لا يرون الخروج المسلح واجباً) رثى مرداساً — أبا بلال — هذا يمثل اللهجة التي سمعناها، حبٌّ للخروج، وطلبٌ للموت وزهدٌ في الدنيا^(٣٧٨) :

لقد زادَ الحياةَ إليَّ بُغْضاً وحباً للخروج أبو بلال
أحاذرُ أن أموتَ على فراشي وأرجو الموتَ تحتَ ذرا العوالي
ولو أنني علمتُ بأنَّ حتفي كحتفِ أبي بلالٍ لم أبال
فَمَنْ يَلِكُ هَمُّهُ الدُّنْيَا فإني لها، واللَّهِ رَبُّ البَيْتِ، قال

وعندما قتل القائد الخارجي انوليد بن طريف لدى خروجه على الرشيد في الجزيرة سنة ١٧٩ هـ وققت أخته (الفارعة) رافعةً صوتها بالثناء، على طريقة الخوارج لا على طريقة الخنساء، قالت في أخيها^(٣٧٩) :

(٣٧٨) شعر الخوارج ١٦.

(٣٧٩) البيان والتبيين ٣٤٢ وشرح النهج ١/٥٩١.

يَسْأَلُ نَهَاكْسَى رَسْمٌ قَبْرِ كَأَنَّهُ
 عَلِي جَبَلٍ فَوْقَ الْجِبَالِ مُنِيفٍ
 تَضْمَنَ مَجْدًا عَدَمِيًّا وَسُوْدَدًا
 وَهَمَّةً مَقْدَامٍ وَرَأْيَ حَصِيْفٍ (٣٨٠)
 فَتَى لَا يُسْحَبُ الزَّادُ إِلَّا مِنْ التُّقَى
 وَلَا الْمَالُ إِلَّا مِنْ قَسَى وَسِيُوفٍ
 وَلَا الدُّخْرُ إِلَّا كَلَّ جَرْدَاءَ صِلْدِمٍ
 مَعَاوِدَةً لِلْكَرِّ بَيْنَ صَفُوفٍ (٣٨١)
 حَلِيْفُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضِي بِهِ النَّدَى
 فَإِنْ مَاتَ لَا يَرْضَى النَّدَى بِحَلِيْفٍ
 وَمَا زَالَ — حَتَّى أَزْهَقَ الْمَوْتُ نَفْسَهُ —
 شَجًّا لَعْدُوًّا أَوْ لَجًّا لَضَعِيْفٍ
 فِيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكٍ مَوْرِقًا
 كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلِي ابْنَ طَرِيْفٍ

إلى أن تقول :

(٣٨٠) عدميًّا: تليدًا.

(٣٨١) جرداء صلدِم: صفة للفرس القوية.

فإن يك أرداه يزيدُ بنُ يزيدِ
فربّ زحوفٍ لُفها بزحوفِ
عليه سلام الله وقفاً فإنسي
أرى الموتَ وقاعاً بكلِّ شريفِ

ويزيد بن يزيد، هو القائد الذي وجهه الرشيد لقتال الوليد
ابن طريف (وكلاهما من شيبان). وقد سنحت الفرصة لإجراء
مقارنة حية بين شعراء الخوارج وشعراء غيرهم: فعندما رمى
الرشيد الوليد بن طريف بقائده يزيد بن يزيد الشيباني، كان شعراء
القصور يترقبون سائحة تعطيهم المال والقرب من السلطان، وقد
اقترن اسم مسلم بن الوليد (صريح الغواني) بهذه الواقعة فقال في
قصيدة طويلة مدح بها الرشيد وقائده يزيد بن يزيد مطلعها:

أجرت حبل خليع في الصُّبَا غَزِيلِ
وشمرت همُّ العَدَالِ في العَدَلِ

ووصف فيها حروب القائد العباسي مع الخوارج:
ويوسف البرم قد صبَّحتْ عَسْكَرُهُ
بعسكِرٍ يلفظ الأقدار ذي زجلٍ (٣٨٢)

(٣٨٢) الزجل: الجلبة والضجيج.

والمارق ابن طريف قد دلفت لسه
بعسكر للمنايا مسبل هطيل
لما رآك مجسداً في منيته
وأن دفعك لا يسطاغ بالحيل
شام النزال فأبرقت اللقواء له
مقدم الخطو فيه غير متكيل

والفرق الذي أقصده بين هذا النوع من الشعراء وشعرهم
وبين الخوارج وشعرهم، ليس بفنية الشعر وجماليته، بل بالمواقف
والانتهايات ..

ولنستمع إلى أبيات أخرى رثت فيها (الفارعة) أخاها الوليد
السالف الذكر، أخذتها من ضحى الإسلام لأحمد أمين
. ٣٤٧/١

ذكرت الوليد وأيامه	إذ الأرض من شخصه بلقع
فأقبلت أطلبه في السما	ع كما يبتغي أنفه الأجدع
لو أن السيوف التي حدها	يصيبك، تعلم ما تصنع
نبث عنك إذ جعلت هيبة	ونخوفاً — لصولك لا تقطع

وواضح أن رثاء هذه الأنحت لأخيها ليس فيه دموع الخنساء
على أخويها، بل فيه نغمة أخرى هي نغمة رثاء الخوارج .

وحتى الأمهات الخارجيات، لا يذرفن دموع الحزن على
أبنائهن . فهذه هي أم عمران بن الحارث الراسبي ترثي ابنها
(عمراناً)، وقد قتل في معركة دولا ب (٣٨٣) :

اللَّهُ أَيَّدَ عَمْرَاناً وَطَهَّرَهُ
وَكَانَ عَمْرَانٌ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحْرِ
يَدْعُوهُ سِرّاً وَإِعْلَاناً لِيَرْزُقَهُ

شهادةً بِيَدَيَّ مِلْحَادَةً غُدْرٍ (٣٨٤)
وَأَى صِحَابَتُهُ عَنِ حُرِّ مِلْحَمِيَّةٍ
وَشَدَّ عَمْرَانٌ كَالضَّرْغَامَةِ الْمَصِيرِ (٣٨٥)

ولا نعني بذلك أن رثاء الخوارج نخلا من الدموع كل أنواع
الدموع، إن لديهم بكاءً مسراً وتفجعاً وجدانياً يعتصر القلوب،
لكن حزنهم وبكاءهم مشفوعان بالعزاء الجميل، والرضى بقضاء الله

(٣٨٣) شعر الخوارج / ٤٠ / .

(٣٨٤) ملحادة: شديد الإلحاد، غدر: شديد الغدر .

(٣٨٥) المصير: الأسد الشديد .

والتطلع إلى الغد الذي يمسخ دموع الأمل بيد الأمل ، وأعظم عزاء
لدى هؤلاء الباكين أن من فقدوا أرضوا الله والواجب ، ومضوا إلى
جنة الخلد ، وقد قرت أعينهم بما أبلوا في سبيل الله ، لنستمع إلى هذا
البكاء الجميل ، من الشاعر الخارجي الجعد بن ضمام الذهلي يرثي
خوارج قتلوا في دقوقاء (٣٨٦) :

شبابٌ أطاعوا الله حتى أحبهم
وكلُّهُمُ شَارٍ يَخَافُ وَيَطْمَعُ
فلما تبسروا من دقوقا بمنزل
لميعادِ إخوانٍ تداغوا فأجمعوا
دعوا خصمَهُمُ بالمحكّماتِ فبينوا
ضلّالَتَهُمُ ، واللّه ذو العرشِ يسمَعُ
بنفسِي قتلِي في دقوقساء غودرت
وقد قُطِعَتْ منها رؤوسٌ وأذرعُ
لِتَبْكِ نساءُ المسلمينَ عليهمُ
وفي دونِ مالاقينَ مَبْكِي وَمَجْزَعُ

(٣٨٦) دقوقاء: مدينة بين أربيل وبغداد. شعر الخوارج / ٦١ / .

ومن بكاء الخوارج قول داود بن عقبة العبدي في الرثاء (٣٨٧) :
إلى الله أشكو فقد فتیان غارة
شهدتُهُم يوم النخيلة والنَّهْرِ
شهدتُهُم أسداً إذا الحربُ شمَّرتُ
مساميحُ بهمُ بالمهتدة البتيرِ
أولئك إخواني مُنيستُ بهلكِهِمُ
فلَهفي عليهم أن يُروا آخرَ الدهرِ

هذه الدموع القوية هي دموع الخوارج، وهذا البكاء الإيجابي هو بكائهم، وكل أمثلة الرثاء تبرز حقيقة ما ذكرنا من صفات رثائهم، قال حسان بن جعندة يرثي شوذباً وأصحابه (٣٨٨) :

يا عينُ أذري دموعاً منك تسجاما
وابكي صحابةً بسطامٍ بسطاماً
فلن تَرَيَّ أبداً ما عشتِ مثْلَهُمُ
أتقى وأكملُ في الأحلام أحلاماً

(٣٨٧) شعر الخوارج / ٦٤ / .

(٣٨٨) شعر الخوارج / ٦٩ / شوذب هو المسمى أيضاً بسطاماً، كان رعيماً الخوارج أيام عمر بن عبد العزيز .

فتخالسوا مُهَجَّاتِ أَنْفُسِهِمْ
وَعَدَاتِهِمْ بِقِسْوَاظٍ بِرٍ
وَأَسْنِيَةِ أَثْبَنَ فِي لُسْدِنِ
خَطِيئَةٍ بِأَكْفِهِمْ زَهْرٍ
تَحْتَ الْعَجَايِجِ وَفَوْقَهُمْ خَرَقٌ
يَخْفَقَنَّ مِنْ سَوْدٍ وَمِنْ حُمْرٍ

جـ. ولم نر في أشعارهم فخراً من نوع فخر العرب، فهم أبعد ما يكونون عن الافتخار بالأنساب وكثرة العدد والمال وشرف العشيرة ومنعتها، بل كل فخرهم: اعتزاز برسوخ العقيدة، وعمق الإسلام في قلوبهم، وحسن البلاء في الحروب، وانصرافهم للعبادة، والاستعداد للقاء الآخرة، يقول عمران بن حطان (٣٩٠):

فنحن بنو الإسلام واللَّهُ واحدٌ
وأولى عبادِ اللَّهِ بِاللَّهِ مَنْ شَكَرَ

ومثل ذلك قول عيسى بن عاتك الخطمي (٣٩١):
أبي الإسلام لأب لي سواه إذا فسحوا بيكسر أو تميم

(٣٩٠) شعر الخوارج / ٢٥ / .

(٣٩١) شعر الخوارج / ١٣ / .

كلا الحسين ينصر مدعيه ليحققه بذى النسب الصميم

وقد يستعملون في فخرهم بالجهاد نوعاً من الحجج التي يدمغون بها خصومهم، مثال ذلك ما قاله شاعرهم عيسى بن فاتك أو (عاتك) الخطي بعد مقتل عروة بن أدية، الذي قتله عبيد الله ابن زياد (غدرًا)، فغضب لقتله أخوه بلال بن أدية، وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلاً من الخوارج، (أو ستة وثلاثين رجلاً)، فبعث إليهم عبيد الله بن زياد ألفي رجل على رأسهم أسلم بن زرعة ابن حصين التميمي، فهزمهم الخوارج فقال عيسى بن عاتك (٣٩٢):

فَلَمَّا أَصْبَحُوا صَلَّوْا وَقَامُوا	إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم	فظل ذوو الجعائل يُقتلونا (٣٩٣)
ألفاً مؤمنين — فيما زعمتم —	وهزمهم بأسك أربعونا (٣٩٤)
كذبتهم ليس ذلك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك	على الفئة الكثيرة يُنصرونا

وقد تفرد الخوارج في الفخر بقلة العدد وقلة المال، وكان

(٣٩٢) شعر الخوارج / ١٤ / والطبري ١٧٥/٦.

(٣٩٣) ذوو الجعائل: جنود بني أمية المأجورون.

(٣٩٤) أسك: موقع بهمدان.

العرب قبلهم يفخرون بأنهم : الأكثرون حصي وأن جيشهم كجنح
الليل يزحف بالحصي .. إنهم يفخرون بقلعة مالديهم من مال
ورجال ، يقول عطية بن سمرة الليثي (٣٩٥) :

وحسبي من الدنيا دلاصٌ حصينةٌ
ومغفرها يوماً وصدراً قناة (٣٩٦)

وأجرد محبوك السراة مقلصٌ
شديداً أعاليه ، وعتر شراة
فابلغ منه حاجتي وبصيرتي
وأشفي نفسي من ولاية طغاة

ومثله قول زيد بن جندب الأزرق (٣٩٧) :

إني لأهونكُم في الأرض مضطرباً
مالي سوى فرسي والرمح من نَشَب
وشبيه بهذا قول عمرو القنا العنبري (٣٩٨)

(٣٩٥) شعر الخوارج / ٣٢ / .

(٣٩٦) دلاص : درع ملساء لينة ، المغفر : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

(٣٩٧) شعر الخوارج / ٣٥ / والبيان والتبيين / ٢٣ / ١ .

(٣٩٨) شعر الخوارج / ٣٨ / .

فحسبي من الدنيا دلاصٌ حصينةٌ
 وأجرُدٌ خورٌ العنانِ نجيبُ
 أجاهد أعدائي إذا ماتتابعوا
 وأدعى باسمي للهدى فأجيبُ
 معي كلُّ أوّاهِ برى الصّومِ جسمه
 ففي الجسم منه نهكةٌ وشحوبُ
 وإذا رأى كل الناس أن الفقر عارٌ وذلٌ ، فإن الخوارج لم يروه
 كذلك ، يقول يزيد بن حبناء (٣٩٩)
 ماشقوةُ المرء بالإقتار يقتـره
 ولا سعادتهُ يوماً بإكثارِ
 إن الشقيّ الذي في النارِ منزلهُ
 والفوزُ فوزُ الذي ينجو من النارِ
 ولا عجب أن يكون فخرهم بالشجاعة والثقى بيتَ
 قصيدهم ومحورَ دورانهم ، فقطري بن الفجاءة الشاعر الفارس يقول
 في مزج جميل بين الفخر والغزل (٤٠٠)

(٣٩٩) شعر الخوارج / ٣٨ / .

(٤٠٠) شعر الخوارج / ٤٤ / وتاريخ الشعر العربي / ١٥٠ / .

لَعَمْرُكَ إِنِّي فِي الْحَيَاةِ لِرَاهِدٌ
وَفِي الْعَيْشِ مَا لَمْ أَلْقَ أَمْ حَكِيمٌ
وَلَوْ شَهِدْتَنِي يَوْمَ دَوْلَابٍ أَبْصَرْتُ
طَعَانَ فَتَسَى فِي الْحَرْبِ غَيْرَ ذَمِيمٍ
وَلَوْ شَهِدْتَنَا يَوْمَ ذَاكَ وَخَيْلُنَا
تُبِيحُ مِنَ الْكُفَّارِ كُلِّ حَرِيمٍ
رَأَتْ فِتْيَةٌ بَاعُوا الْإِلَهَةَ نَفُوسَهُمْ
بِجَنَاتٍ عَدِيٍّ عِنْدَهُ وَنَعِيمٍ

وقال عتبان بن أصيلة الشيباني يفخر ببعض رجالهم (٤٠١):

فلا ضيرَ أنْ كَانَتْ قَرِيْبَةً عَدِيٌّ لَنَا	يَصِيْبُونَ مِنَّا مَرَّةً وَنَصِيْبُ
فإن يكْ مِنْهُمْ كَانَ مَرْوَانَ وَابْنَهُ	وَعَمْرُو وَمِنْهُمْ هَاشِمٌ وَحَبِيْبُ
فَمِنَّا سُوَيْدٌ وَالبَطِيْنُ وَقَعْنَبُ	وَمِنَّا أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ شَبِيْبُ
غَزَالَةُ ذَاتُ النَّدْرِ مِنَّا حَمِيْدَةٌ	لَهَا فِي سَهَامِ الْمُسْلِمِيْنَ نَصِيْبُ
وَمِنَّا سِنَانُ الْمَوْتِ وَابْنُ عَوْمِرٍ	وَمَرَّةٌ فَانظُرْ أَيَّ ذَاكَ تَعِيْبُ
فَوَارِسُنَا مِنْ يَلْقَهُمْ يَلْقَ حَتْفَهُ	وَمَنْ يَنْجُ مِنْهُمْ يَنْجُ وَهُوَ سَلِيْبُ

(٤٠١) شعر الخوارج / ٦٤ / .

ومن فخرهم قول البهلول بن بشر الشيباني (٤٠٢)

مَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى مَنِيَّتَهُ

فالموتُ أشهى إلى قلبي من العسلِ

فلا التَّقَدُّمُ في الهيجاءِ يُعجِّلُنِي

ولا الخدَّارُ ينجِّينِي مِنَ الأَجَلِ

وفي هذا ما يدل على فهم عميق للحياة والموت ، ونظرة إنسانية شاملة للأمر ، ومثل ذلك قول قطري بن الفجاءة (٤٠٣) :

أقول لها - وقد طارت شعاعاً

من الأبطال - : ويحك لن تُراعي

فإنك لو سألت بقاءً يوم

على الأجل الذي لك لن تُطاعي

فصبراً في مجال الموتِ صبراً

فما نيلُ الخلودِ بُمستطاع

وماللمسرِّ خيرٌ في حياةٍ

إذا ما عُددَ من سقط المتاع

(٤٠٢) شعر الخوارج / ٧٣ / .

(٤٠٣) شعر الخوارج / ٤٢ / وشرح النهج / ١ / ٤٠٠ / وشعر الحرب / ٥٩ :

وقال أحد الخوارج (٤٠٤) :

ومن يبخشَ أظفار المنايا فإنسا
لبسنا لهنَّ السَّابِغَاتِ مِنَ الصَّبْرِ
وإن كربة الموت عذبٌ مذاقُهُ
إذا ما مزجناه بطيبٍ من الذَّكْرِ

وأختتم ببعض أراجيزهم في الفخر، وأكثره مما كان مقاتلوهم
يترغمون به في مبارزاتهم. قال رجل أسود من الأزارقة (٤٠٥) :

نحنُ قمعناكم بشلِّ السَّرجِ وقد نكأنا القرَحَ بعدَ القرَحِ
وقال حوثة الأسدي (٤٠٦) :

أكرزُ على هذي الجموعِ حَوَثَرَهُ
فعن قليل ما تنالُ المغفرة

وقال عبدة بن هلال اليشكري وهو شاعر خطيب (٤٠٧) :

إني لَمُسَدِّكُ للشراةِ نارها ومانعٌ ممن أتاها دارها

(٤٠٤) شعر الخوارج / ١١٧ / .

(٤٠٥) شعر الخوارج / ١٠٥ / والكامل ١٩٥ وشرح النهج ١ / ٥٣٠ .

(٤٠٦) شعر الخوارج / ٨ / والكامل / ١٩٤ / وشرح النهج ١ / ٥٣٠ .

(٤٠٧) شعر الخوارج / ٥٤ / .

وغازل بالطَّعْنِ عنها عازها حتى أقرَّ بالقنا قرارها
وقال (٤٠٨)

أنا ابنُ خير قومه هلالٍ شيخٌ على ديسن أبي بلال
وذاك ديني آخرَ الليالي

وقال أحدهم (٤٠٩) :

قد علمتُ خيلك يا بن الصَّحَّصَحْ
بالزَّابيين والعيونُ تلمحُ
أنا إذا صبحَ بنا لانبسرحُ
إنَّ الحديدَ بالحديدِ يُفلسحُ
لن نبرحَ الموصلَ حتى نُفتَحُ

وارتجزت أم حكيم (٤١٠) :

أحملُ رأساً قد سئمتُ حملةً وقد مللتُ دهنةً وغسلتُهُ
ألا فتىً يحملُ عني ثقله

د — وإذا كان قد ورد في أشعارهم شيء من الهجاء، فليس ذلك

(٤٠٨) شعر الخوارج / ٥٣ /

(٤٠٩) شعر الخوارج ١١٤ .

(٤١٠) شعر الخوارج / ٤١ / وشرح النهج ١ / ٥١٨ .

خوضاً في الأعراض أو تفنناً في السب والإقذاع والإفحاش في القول، كالذي كان لدى شعراء المهجاء عند العرب، كذلك لم يكن هجاؤهم سخريةً وضحكاً وتصويراً كاريكاتورياً، فهم لا يتخذون من الشعر غاية فنية يعشون بالمعاني والصور والألفاظ لإثارة الضحك أو السخرية، أو لإبراز قدرة فنية معينة، بل لقد كان هجاؤهم تسفيهاً لآراء خصومهم وتكفيراً لروح التخاذل والارتداد عند بعضهم، كما كان نقداً للعيوب العامة من جبن وجشع ونفاق وتعلق للحكام، وهجوماً على الدولة ونقداً لسلوكها الظالم الكافر.

كتب قطري بن المعجاء إلى سمرة بن الجعد يلومه على مجالسة الحجاج (٤١١):

فراجع أبا جعدٍ ولاتك مُغضياً
على ظلمةٍ أعشت جميع التواظر
وثب توبةً تهدي إليك شهادةً
فإنك ذو ذئبٍ ولست بكافر

فاستجاب الرجل وترك الحجاج وكتب له (٤١٢):

(٤١١) ورد اسمه: سمرة، وسيرة، ومميرة. شعر الخوارج / ٤٧ / .

(٤١٢) شعر الخوارج / ٥٠ / .

فَمَنْ مَبْلَغُ الْحِجَابِ أَنْ سَمِيرَهُ
قَلَى كُلِّ دِينٍ غَيْرِ دِينِ الْخَوَارِجِ
رَأَى النَّاسَ إِلَّا مِنْ رَأْيِ مِثْلِ دِينِهِ
مَلَاعِينَ تَرَائِينَ قَصَدَ الْمَخَارِجِ

وقد اتهم الخوارج خصوصتهم بالكفر والإلحاد والغدر، قالت أم
عمران بن الحارث الراسبي في رثاء ابنها لما قتل (٤١٣):
اللَّهُ أَيَّدَ عَمْرَانًا وَطَهَّرَهُ

وَكَانَ عَمْرَانٌ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحْرِ
يَدْعُوهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا لِيَرْزُقَهُ
شَهَادَةٌ بِيَدِي مِلْحَادَةٌ غُدْرُ

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ قَطْرِي يَوْمَ دَوْلَابِ (٤١٤):
وَلَوْ شَهِدْتَنَا يَوْمَ ذَاكَ وَخَيْلُنَا

تَبِيحُ مِنَ الْكُفَّارِ كُلِّ حَرِيمِ (٤١٥)
رَأَتْ فِتْيَةً بَاعُوا إِلَهَةَ نَفُوسَهُمْ
بِجَنَّتَاتِ عَدْنٍ عِنْدَهُ وَنَعِيمِ

(٤١٣) شعر الخوارج / ٤٠ / .

(٤١٤) شعر الخوارج / ٤٤ / .

(٤١٥) يقصد بالكفار: مخالفهم من المسلمين .

ومن تهكمهم على أعدائهم ووصفهم لهم بالجبن والكذب ، قول
عيسى بن عاتك (٤١٦) :

يقول بصيرهم لما رآهم بأن القسوم ولسوا هاريننا
ألفا مؤمن فيما زعمتم ويزمهم بأسك أربعوننا
كذبتم ليس ذلك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنوننا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة يتصروننا

ومن الهجاء الذي لا يخلو من روح التندر والتهكم وصف أعداء
الخوارج بالجبن والفرار ، قول الحرث بن خالد الخزومي في فرار عبد
العزیز بن عبد الله القائد الأموي من وجه قطري بن الفجاءة ،
القائد الخارجي (٤١٧) :

فر عبد العزيز لما رأى الأبى طال في السفح نازلوا قطرياً
عاهد الله إن نجا من منايا ليعودن بعدها حرمياً
يسكن الحل والصفاح فغور يا مراراً ومرة نجدياً
حيث لا يشهد القتال ولا يس مع يوماً لكر خيل دوتياً

(٤١٦) شعر الخوارج / ١٤ / .

(٤١٧) الكامل ١٧٤ وشرح النهج ١/٥٢١ .

وقال معاذ بن جوين الطائي في عتاب الخوارج (٤١٨) :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئٍ
شرى نفسه لنفسه أن يترحلاً
أقسم بدار الخاطئين جهالةً
وكل امرئٍ منكم يُصادُّ يُقتلاً
فشذوا على القوم العداة فائماً
إقامتكم للذبح رأياً مُضلاً
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي
إذا ذكرتُ كانت أبراً وأعدلاً

وشبيه بهذا اللوم على القعود عن مجاهدة الأعداء، ما كتب به قطري بن الفجاءة إلى أبي خالد القناني (وكان من قعد الخوارج) (٤١٩)

أيا خالد يا انفر فلست بخالد
أنزعم أن الخارجي على الهدى
وما جعل الرحمنُ عذراً لقاعد
وأنت مقيمٌ بين لصٍّ وجاحدٍ

(٤١٨) شعر الخوارج / ٨ / وابن الأثير ٤٢٨/٣ .

(٤١٩) شعر الخوارج / ٤١ / وأدب السياسة ٢٢٥ .

وقال عيسى بن عاتك في ذم عبيد الله بن زياد (٤٢٠) :
أخاف عقاب الله إن متُّ راضياً

بحكم عبيد الله ذي الجور والغدر
وأحذر أن ألقى إلهي ولم أرع

ذوي البغي والإلحاد في جحفل مجر
ومن نقدهم للدولة وجورها وظلم ولائها قول مرداس بن أدية (٤٢١) :

وقد أظهر الجور الولاة وأجمعوا
على ظلم أهل الحق بالغدر والكفر

فقد ضيقوا الدنيا علينا برحبها
وقد تركونا لانقصر من الدعسر

وقول عمران بن حطان (٤٢٢) :

حتى متى لا نرى عدلاً نعيش به
ولا نرى لدعاة الحق أعوانا

ومن نقدهم للمجتمع وما فيه من عيوب كالتزلف والتعلق لكسب

(٤٢٠) شعر الخوارج / ١٢ / .

(٤٢١) شعر الخوارج / ١١ / .

(٤٢٢) شعر الخوارج / ٢٦ / .

عرض زائل من متاع الدنيا ، ما قاله عمران بن حطان للفرزدق وهو
ينشد الشعر للتكسب (٤٢٣) :

أيها المادح العباد لتعطى إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارح فضل المقسم العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد

وجدير بالتذكير) أن الخوارج كانوا يشعرون بوطأة المسؤولية
العامّة ، ولا يلقون بهذه المسؤولية على ولاة الأمور ، فمصالح الأمة
ومقدّرات العباد أمانة ثقيلة ، يريدون أن يتحمّلوا ما يستطيعون
منها ، وقد سبق وذكرنا أنهم تعاونوا مع عبد الله بن الزبير فلما ظننا منهم
أنه سيسير على طريق الحق والخير ، فلما يئسوا منه خرجوا عليه
وحاربوه ، كذلك فقد ناظروا عمر بن عبد العزيز وتوجهت إليه
أبصارهم التماساً لما يريدون من إصلاح عنده ، فلما يئسوا انصرفوا
بأماهم عنه ، وقد كتب له أحد شعرائهم رسالة شعرية يحاول فيها
شدّ آخر خيط للرجاء لدى هذا الخليفة ، ويحاول توجيهه وإرشاده ،
فإن لم يستجب ، وتبع سابقيه من الخلفاء ، فالخوارج على سيرتهم
الأولى ، والحكم لله والسيف بينهم وبينه .

كتب عمرو بن ذكينة الربيعي إلى عمر بن عبد العزيز لما
استخلف (٤٢٤) :

قل للمولى على الإسلام مؤتلفاً
وقد يرى أنه رث القسوى وإه
أزرى به معشراً غذوه مأكلة
بنخوة العز والإسراف والباه
إننا شرينا بدين الله أنفسنا
نبغي بذاك إليه أعظم الجاه
نهي الولاة بحد السيف عن سرف
كفى بذاك لهم من زاجر ناه
فإن قصدت سبيل الحق يا عمر
أخاك في الله أمثالي وأشباهي
وإن لحقت بقوم كنت واحدكم
في جور سيرتهم فالحكم لله

وقد يفتقد متبع شعر الخوارج تقدم للغنى ومظاهره،
واللهو والمجون والمفاسد الاجتماعية المترتبة على ذلك، ولم يكن ذلك

(٤٢٤) شعر الخوارج / ٦٩ / .

إلا لأن هذه الظواهر غير موجودة في المجتمع الخارجي ، وهو مجتمع انتفى فيه الغنى والخمر والترف ..

أما المجتمع الإسلامي الآخر الذي كان خاضعاً للدولة الحاكمة سائراً في ركاب الحكام ، فقد انتشرت فيه هذه الظواهر الشاذة ، وبلغت في بعض الأحيان حداً لم يستطع حتى الشعراء المتكسبون السكوت عليه . وقد رأينا أمثلة من نقد الخوارج لجند المهلب الذين حاربوا لصالح ابن الزبير ، وكان أولئك الجند يشتمون عبد الملك بن مروان ، ويتبرأون منه ، فإذا علموا بمقتل ابن الزبير ، انتقلت تبعيتهم وولائهم لمن كانوا يشتمون ، أي لعبد الملك ، وقد سمع عمران بن حطان ، وهو من قعد الخوارج ، في مرحلة تخفيه — بعض الجند يقولون : ومالنا لا نقاتل الخوارج ؟ أليست أعطياتنا دارة ؟ فقال يتهمكم بهذه الحال (٤٢٥) :

فلو بُعِثْتُ بِعِضِّ الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ

يَوْمُهُمْ أَوْ بَعْضُ مَنْ قَدْ تَنَصَّرَا

لَقَالُوا: رَضِينَا إِنْ أَقَمْتَ عَطَاءَنَا

وَأَجَرَيْتَ ذَاكَ الْفَرَضَ مِنْ بَرِّ كَسْكَرَا (٤٢٦)

(٤٢٥) شعر الخوارج / ٢٠ / .

(٤٢٦) الفرض : ما يجري للجندي المقاتل ، كسكر : اسم أرض بالعراق .

لقد أتيح لهذا الخارجي أن يسمع ويرى من عيوب المجتمع الإسلامي ما لم يتح لغيره من شعراء الخوارج، وذلك لاتصاله بالناس أكثر من غيره، إذ اعتنق المذهب الخارجي متأخراً بتأثير المرأة التي أحبها^(٤٢٧) وبذلك يكون قد قضى من حياته شطراً غير يسير بين عامة الناس، وقد كان من قعدة الخوارج الذين لا يرون الخروج المسلح، فتخفى من السلطة حيناً طويلاً..

لم يشك المجتمع الخارجي تفاوتاً اجتماعياً من أي نوع، بل عرف التعاطف والتراحم، وإذا دعا شعراؤه إلى الثورة على الظلم، فذلك خارج النطاق الخارجي، قال شاعرهم عمرو بن الحسن الإباضي الكوفي^(٤٢٨):

في فتية شرطوا نفوسهم	للمشرفية والقنا السمر
متراحمين ذوو يسارهم	يتعطفون على ذوي الفقر
وذوو خصاصتهم كأنهم	من صدق عفتهم ذوو وفقر
متجملين بطيب خيمهم	لا يهلعون لبوة الدهر ^(٤٢٩)
فكذلك مثيرهم ومقترهم	أكرم بمقترهم وبالمثري

(٤٢٧) شعر الخوارج... مقدمة ص ١٠.

(٤٢٨) شعر الخوارج / ٨٣ / .

(٤٢٩) الخيم: الطبيعة والسجية.

هـ— أما في الوصف، فالخوارج مقلِّسون مقصِّرون، لا يعنهم التقاط صور من الطبيعة، أو مشاهد من يوميات الحياة، يبدعون فيها ويبرزون جوانبها الفنية، ويظهرون من البراعة والتجويد في رسم الصور وتلوينها، ما يثير إعجاب القساريء، هذه— لاشك— أمور لا تعينهم في قليل أو كثير ما دامت لا تتصل بعقيدتهم والترويج لها. فهم لم يصفوا مشاهد البداوة من نخيل وليل وصيد ورحيل، على الرغم من أنهم عاشوها، كما أنهم لم يصفوا مشاهد الحضارة، من عمران وحدائق وقصور، إذ لم يتح لهم رؤية شيء منها، ذلك لأن حياتهم كانت ذات طبيعة رحلة وتنقل، يطاردهم الحكام في شعاب الجبال وأطراف البلاد، كما أن زمن العمران العربي والتحضر والاستقرار لم يكن قد جاء في أيام بزوغهم الأول— وهو زمان تألقهم السياسي والعسكري والأدبي—.

وإذا كان قد ورد في ثنايا أشعارهم شيء من وصف الخيل أو السلاح، فليس الوصف هو الهدف، وإنما يكون ذلك في معرض وصفهم لمعركة أو مبارزة، وهو لمحة لا تتجاوز البيت الواحد، أو الشطر من البيت، كقول أبي الوازع الراسبي (٤٣٠):

(٤٣٠) شعر الخوارج / ٣٤ / .

سأشري ولا أبغي سوى الله صاحباً
وأبيضَ كالمخراقِ غضب المضارب.

أو قول عطية بن سمرة الليثي (٤٣١)
وحسبي من الدنيا دلاصٌ حصينةٌ
ومغفرها يوماً وصدرٌ قناة
وأجردٌ مجسوكُ السراةِ مقلصٌ
شديدٌ أعاليه، وعشترُ شراة

وواضح أن الوصف ليس هو الهدف الذي رمى إليه
الشاعران من ذكر السيف والدرع والحصان في الأبيات السابقة.

وجلّ وصفهم ينصب على المبارزات المثيرة التي حفل بها
تاريخهم الحربي، وإقدام فرسانهم واستشهادهم في ساحات الوغى،
وتصوير تعبدهم وتهجدهم، وهذه بالتحديد موضوعات
وصفهم — على قلته — قال سيرة أو (سمرة بن الجعد) في وصف
أصحابه (٤٣٢):

(٤٣١) شعر الخوارج / ٣٢ / .

(٤٣٢) أدب السياسة / ٢٣٤ / ، وشعر الخوارج / ٥٠ / .

إلى عصبية أمّا النهار فإنَّهُمْ
همُّ الأسدُ أسدُ الغيل عند التّهايج
وأما إذا ما اللّيلُ جسنٌ فإنهم
قيامٌ كأنسوح النّساء النّواشج

وقال عبيدة بن هلال يصف أحد رجاله (٤٣٣) :

يهوي فترفعه الرّماح كأنه شيلو تنشب في مخالِب ضار
فتوى صريعاً والرّماح تنوشه إن الشّراة قصيرة الأعمار

وقال أحد الخوارج يصف أصحابه (٤٣٤) :

وهمُّ الأسودُ لدى العرين بسالمة
ومنّ الخشوع كأنَّهُمْ أحجارُ
يمضون قد كسروا الجفونَ إلى الوغى
متبسّمين وفيهم استسبشارُ
يردون حوماتِ الجِمامِ وإنما
تالّله عند نفوسِهِمْ لصرغارُ

(٤٣٣) شعر الخوارج: ٥٢ وشرح النهج: ١/٥٤٠.

(٤٣٤) شعر الخوارج / ١١٦ / .

ومن وصف زهدهم وتقاهم وأخلاقهم قول عمرو بن الحصين
العنبري (٤٣٥) :

مَتَأْتِبُونَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ
نَاهُونَ مِنْ لَأَقْسُوا عَنِ التُّكْرِ
صُمْتُ إِذَا حَضَرُوا مَجَالِسَهُمْ

من غير ماعني بهم يُسزري
ألا تجيئهم فإنيهم

رجف القلوب بحضرة الذكر
متأوهون كأنهم جمر غصا

للمسوت بين ضلوعهم يسري
تلقاهم إلا كأنهم

لخشوعهم صدروا عن الحشر (٤٣٦)
فهم كأنهم جوى مرض

أو مستهم طرف من السخر
لا ليلهم ليل فيلبسهم

فيه غواشي النوم بالسكر

(٤٣٥) شعر الخوارج / ٨٥ / وشرح النهج: ٦١٦/١ .

(٤٣٦) 'ألا': من أل يعل: أي أذا وحن ورفع صوته بالدعاء .

وقد وقفت على نص شعريٍّ واحد، ربما كان الهدف منه الوصف الخالص، لشاعر الخوارج الأكبر: عمران بن حطان، وهو شاعر مكثّر بالنسبة لشعراء الخوارج، متعدد الموضوعات الشعرية، لم يشارك في الحروب، وإن كان يتعاطف مع المحاربين، قال يصف رجلاً وفسراً، ويرى أن أم الرجل قد أنجبت بولادته (٤٣٧) :

قد أنجبتُهُ وأشَبَّتُهُ وأعجبَها
لو كان يُعجبُها الإنجاب والحبْلُ (٤٣٨)
ثقف حويذٌ مبینُ الكفِّ ناصعُهُ
لا طائشُ الكفِّ وقَّافٌ ولا كفلُ (٤٣٩)
لم تُلهِه إربةٌ عن رمي أسهمِهِ
وسيفُهُ لامصاباةٍ ولا عطلُ (٤٤٠)
عرى الركبِ التي قد كان يُعملها
واختار أجردَ صهَّالاً له خصلُ

(٤٣٧) شعر الخوارج / ٢٧ / .

(٤٣٨) أشبته: حاءت به كشبا السيف أي حده.

(٤٣٩) ثقف: حذق فهم، حويذ: شمر، كفل: لا يثبت على ظهر الدابة.

(٤٤٠) الإربة: الحاجة، صابى سيفه: أغمدته..

كأنه فلكة في كف فارسه (٤٤١)

إذا جرى وهو حامي العقب منسحل
يمشي بشكته في القوم مشترف

كأنه قارح بالدو مبتقل (٤٤٢)

يشي الحبال بجوز تم مخزمة
منه فلا سخف فيه ولا رهل (٤٤٣)

وحارك مثل شرح الكور مرتفع
وليس في صلبه صعف ولا عصل (٤٤٤)

طوغ القيادة وأي تقريبه حذم
أقب كالسيد لا رطل ولا سفل (٤٤٥)

حتى كأن بعريه ومخزمة
أشطان بثر متوح غربها سجل

(٤٤١) الفلكة: أعلى المغزل — مسحل: مسرع في سيرة.

(٤٤٢) الشكة: السلاح — الدو: الفلاة — مبتقل: يرمى البقل.

(٤٤٣) الجوز: الظهر.

(٤٤٤) الحارك: أعلى الكاهل — عصل: اعوجاج.

(٤٤٥) وأي: شديد — التقريب: نوع من السير — حذم: سهل في عدوه — أقب:

ضامر — السيد: الذئب (حيوان سريع العدو) — رطل: لئ رخو — سفل:

متخذ اللحم مهزول.

وفيما عدا هذا لم أعتز في شعر الخوارج على وصف قصد به مجرد الوصف، إلا ما كان من وصف الطرماح الذي ملأ ديوانه الكبير، لقد تفنن بتصوير مشاهد البادية وحيوانها وكل ما فيها، وكان همه في كل ذلك إظهار المقدرة الفنية واللغوية ومجازاة معاصريه وسابقيه من الشعراء المبرزين في هذا المضمار، كذي الرمة والأعشى والنابغة وامرئ القيس وعبيد بن الأبرص وغيرهم من شعراء الوصف البدوي الخالص، وهذا ما لم يفعله الخوارج ولم يرضوا عن فاعليه، وهو من الأسباب التي دعنتني لإخراج الطرماح من عالم الخوارج شعراً وعقيدة..

و— وكذا المدح: فيد الخوارج فيه قصيرة، ولا شأن لهم بتجويده وتنميق قصائده، لتقدمها بين يدي خليفة أو أمير، للتقرب أو التكسب فهم جميعاً أعداء الخلفاء والأمراء، وليس من طبعهم ولا من أخلاقهم أو سيرتهم أن يقف أحدهم، شاعراً كان أم غير شاعر، أمام ذي جاه أو سلطان أو مال يمدحه فينال جوائز، ويقبض ثمن شعره، ويكذب على نفسه، وليس للخوارج شعراء متفرغون، اتخذوا من الشعر حرفة، سخروها لمنافعهم الخاصة.

أما الوجه الثاني للمدح— مدح المحبة والإعجاب— فإذا

كان قد جاء في شعرهم شيء منه، فقد جاء إشادةً بأبطالهم،
وتمجيداً لشجاعتهم، واعتزازاً بتفاهم وورعهم، وهو بصفة عامة
يتناول الجماعة لا فرداً واحداً، يقول شاعرهم عمرو بن الحصين
العنبري (٤٤٦):

وخيَّارٌ مَنْ يَمْشِي عَلَى الْعَفْرِ	وَهُمْ مَسَاعِرٌ فِي الْوُغِيِّ رُجُحٌ
بِعَهْودِ لَا كَذِبٍ وَلَا غَدْرِ	حَتَّى وَفَوْا لِلَّهِ حَيْثُ لَقُوا
وَعِدَاتِهِمْ بِقَوَاضِي بُثْرِ	فَتَخَالَسُوا مُهَجَاتِ أَنْفُسِهِمْ
مَا بَيْنَ أَعْلَى الْبَيْتِ وَالْحَجَرِ	وَتَوَقَّدَتْ نِيرَانُ حَرْبِهِمْ
لَمْ يُغْمِضُوا جَفْنَاً عَلَى وَثْرِ	وَتَفَرَّجَتْ عَنْهُمْ كَأَنَّهُمْ

والنذر القليل من المدح الذي تخلل أشعارهم، كانت تختلط فيه
صور المدح والفخر والوصف والرثاء، يقول عيسى بن
عاتك (٤٤٧):

مَضَوْا قِتَالاً وَتَسْمِزِيقاً وَصَلْباً	تَسْحُومٌ عَلَيْهِمْ طَيْرٌ وَقَوْعٌ
إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَأَبْدَوْهُ	فَيَسْفِرُ عَنْهُمْ وَهُمْ رُكُوعٌ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمْ فَقَامُوا	وَأَهْلُ الْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هَجُوعٌ

(٤٤٦) شعر الخوارج: ٨٧ وشرح النهج ١/٦١٥.

(٤٤٧) شعر الخوارج: ١٢.

ومن هذا القبيل قول عمرو بن الحصين (٤٤٨)

متأوهين كأن في أجوافهم نارا تسعرها أكسف حواطب
تلقاهم فتراهم من راجع أو ساجد متضرع أو ناحب
ومبرئين من المعايب أحرزوا حصل المكارم أتقياء أطايب
متسربلي حلق الحديد كأنهم أسد على لحق البطون سلاهب

ز - ليس الشعر عندهم غاية بحسب ذاته: بل هو وسيلة
للتعبير عن آرائهم ومعتقداتهم، فليس فيهم شعراء نذروا أنفسهم
للشعر، أو وهبوا حياتهم له، ووقفوها عليه، بل هو خواطر تعبر
عن لحظات انفعال، لذلك لم يكن شعراؤهم مجودين منقحين
منصرفين إلى تقويم نتائجهم الشعري وتثقيفه، فخلا من التلوين
وبراعة التفنن اللفظي والمعنوي، ولم يكثر شعراؤهم بتصيد الصور
الجميلة، والمعاني البارعة، ولم يجتدوا في طلبها، فغلبت على شعرهم
البساطة والعفوية والمباشرة (فكراً وتعبيراً)، كما أنهم لم يجيشوا
بالمطولات من القصائد، بل جاء شعرهم مقطوعات جادت بها
القرائح عند الحاجة.

لذلك كله لا نستطيع أن نلتبس في شعر الخوارج من

(٤٤٨) شعر الخوارج: ٨٩ والأغاني ١٠٢/٢.

الظواهر الفنية ما نجده عند غيرهم من (الشعراء) ، إذ كان شعرهم في أغلبه نثات تلقائية قصيرة لا مجال فيها لكثير من (التفنن) أو الإبداع، على أنه — مع ذلك — يستعيز عن الموهبة — في كثير من الأحيان — بحرارة العاطفة ونفاذ الرأي، وإن اقترب أحياناً أخرى من النظم الذي يفتقد الموهبة الشعرية الحقة. وقد ذكر الدكتور عبد القادر القط^(٤٤٩) أننا قد نصادف عند بعضهم مقطوعات ذات نفحة شعرية واضحة، وسمات فنية من التشبيه والمجاز والتجسيم تقترب بالصورة الشعرية مما نعهده عند الموهوبين من شعراء ذلك العصر، كتلك المقطوعة من شعر قطري بن الفجاءة^(٤٥٠) :

يَارُبُّ ظَلِّ عَقْسَابٍ قَدْ وَقَيْتُ بِهَا
 مُهْرِي مِنَ الشَّمْسِ وَالْأَبْطَالِ تَجْتَلِدُ^(٤٥١)
 وَرَبُّ يَوْمِ حَمَى أَرَعَيْتُ عَقْوَتَهُ
 خَيْلِي اقْتَصَاراً، وَأَطْرَافُ الْقَنَا قَصْدُ^(٤٥٢)

(٤٤٩) في الشعر الإسلامي والأموي: ٣٧٧.

(٤٥٠) شعر الخوارج: ٤٢.

(٤٥١) العقاب: الراية.

(٤٥٢) العقوة: الساحة، قصد: مكسرة.

ويومٌ لهو لأهلِ الحَفْضِ، ظلَّ به
 لَهوي اصطِلاءً الوغى أو ناره تقدُ
 مشهراً موقفي، والحربُ كاشفةٌ
 عنها القناعُ، وبحرُ الموتِ يطَّردُ
 وربُّ هاجرةٍ تغلي مراجلُها
 مخرتُها بمطايا غارةٍ تخسُدُ (٤٥٣)
 تجتأبُ أوديةَ الأفزاعِ آمنةً
 كأنَّها أسدٌ تقتادُها أسدٌ (٤٥٤)
 فإن أمتٌ حثفَ نفسي لأمتٍ كمداً
 على الطَّعانِ، وقصرُ العاجزِ الكمدُ
 ولم أقل: لم أساقِ الموتَ شاربتهُ
 في كأسِهِ، والمنايسا شُرَّعٌ وُردُ
 ولنستمع إلى هذه البساطة المؤثرة، التي تتضمن الحكمة البالغة
 والوضوح وحسن التناول، قال عمران بن حطان (٤٥٥):
 يأسفُ المرءُ على ما فاتتهُ من لباتٍ إذا لم يقضها

(٤٥٣) تخد: تسرع.

(٤٥٤) الأفزاع: الخواف.

(٤٥٥) من ديوان المعاني ٣٥٧/٢ وشعر الخوارج: ١٩.

وتراه فرحاً مُسْتَبْشِراً بالتي أمضى كأن لم يمضها
عَجَباً من فرج النَّفْسِ بها بَعْدَ ما قد خرجت من قبضها
أنا عندي ذاق أحلام الكرى لقريب بعضها من بعضها

وشبيه بهذا النهج قوله مخاطباً الفرزدق وقد رآه ينشد الشعر بالمرید
والناس من حوله (٤٥٦) :

أيها المادحُ العبادُ لِيُعْطَى إِنَّ لِلَّهِ ما بأيدي العباد
فاسألِ اللّهَ ما طلبتَ إليهم وارحُ فضلَ المقسّمِ العواد
لا تقلُ في الجوادِ ما ليسَ فيه وتسمِّمُ البخيلَ باسمِ الجواد

ومن النصوص التي تتصف بالمباشرة والبساطة، ولكنها عامرة
بالصدق والإيمان والفهم البليغ لواقع الحياة، قول قطري بن
الفجاءة (٤٥٧) :

أقول لها — وقد طارت شعاعاً
مِنَ الأبطالِ — : وَيَحْكُ لَنْ تراعِي
فإنك لو سألتِ بقساءَ يومٍ
على الأجلِ الذي لكِ لم تُطاعِي

(٤٥٦) شعر الخوارج: ٢٠.

(٤٥٧) شعر الخوارج: ٤٢ وشرح النهج ٤٠٠/١ وشعر الحرب: ٤٩.

فصيراً في مجال الموتِ صبراً
فما نيلُ الخُلُودِ بمُسْتَطَاعِ
ولا ثوبُ البقاءِ بثوبِ عِزِّ
فُيْطَوَى عن أُنْحَى الخَنْجِ البراعِ (٤٥٨)
سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حَيٍّ
فداعينهُ لأفْسَلِ الأَرْضِ دَاعِ
ومن لا يعتبِطُ يسأَمُ ويهرَمُ
وئُسْلَمُهُ المنونُ إلى انقطاعِ (٤٥٩)
وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ
إذا ما عُدَّ من سقسِطِ المتعاعِ

إننا نسمع في هذه الأمثلة من شعرهم، بلاغة البساطة، وعمق الحكمة، وروعة السهولة والوضوح في التعبير، والبعد كل البعد عن التكلف والتعمر وطلب الغريب.

لقد كان هذا الشعر القليل وعاءً شفافاً صبوا فيه آراءهم ومعتقداتهم دون ما تطلع إلى شهرة أدبية، أو تفوق شعري، أو

(٤٥٨) أخو الخنج: الذليل، البراع: الجبان.

(٤٥٩) يعتبِط: يموت من غير علة.

مناقسة أحد على شيء ماديّ أو غير ماديّ ، ومع ذلك فقد لمعت بين أبيات هذا الشعر ، الفكرة الجميلة والجديدة عن غير قصد أو طلب من أصحابها ، جاء بها الصدق والعموية والواقعية ، من ذلك فكرة (موت الموت) عند عمران بن حطان قال (٤٦٠) :

لا يعجزُ الموتُ شيءٌ دونَ خالقِهِ
والموتُ فإنِ إذا ما نالَهُ الأجلُ
وكل كربٍ أمسَمَ الموتِ متّضِعٌ
للموتِ ، والموتُ فيما بعده جَلَلُ
ومن العجب حقاً أن يهتدي هذا البدوي الساذج إلى أن يميت الموت |

إن ماورد في شعرهم من جمال فني ، لم يكن نتيجة سعي أو جهد بذلوه للوقوع عليه ، مما يؤكد أن الشعر لم يكن هدفاً عندهم ..

ح — نخلو شعرهم من العصبية القبلية :
ومن أسباب قلة شعر الخوارج — بالنسبة لغيرهم — نخلوه

(٤٦٠) شعر الخوارج : ٢٨ .

من العصبية القبلية، وهي باب من الشعر واسع، أغنى دواوين الشعراء، وإذا كانت العصبية القبلية (القحطانية) تملأ ديوان الطرماح الشاعر الكبير الذي يعرفه الناس بشاعر الخوارج، فسوف نرى في القسم الثاني من هذه الدراسة تصحيحاً لهذا الخطأ الشائع (عن خارجية الطرماح).

ليس في شعر الخوارج أثر للعصبية القبلية أو الجنسية، فقد صهرهم الإسلام ومذهبهم الخارجي بشكل أخص في قالب واحد، وأحل العقيدة محل العصبية:

فنحن بنو الإسلام واللّه واحدٌ
وأولى عبادة اللّه باللّه من شكر (٤٦١)

وقد رأينا كيف سارع عددٌ كبير من الموالي والمستضعفين والعبيد، لاعتناق المذهب الخارجي، لما رأوا فيه من العدالة والمساواة، رأوا مجتمعاً خالياً من العبيد والأسياد، والفقراء والأغنياء، تنتفي فيه كل أشكال الطبقية، فلا أشراف ولا أغنياء، ولا عرب وعجم، وإن المتأمل لمبادئهم الديمقراطية، ونظرتهم إلى الخلافة بشكل خاص، يعرف مدى جماعتهم، وخلو مجتمعهم من

(٤٦١) البيت لسمران بن حطان.

الخاصة والعامّة ، ولا بدّ — والحالة هذه — أن يخلو شعرهم مما خلت منه حياتهم ، ومعروف أن شعرهم كان صورة صادقة عن حياتهم .

لقد كان بين شعرائهم بعض الموالى الذين تمرسوا بالعقيدة الخارجيّة كالشاعر الفارسي عمرو بن الحصين (مولى تميم) ، لكنه كان عربيّاً خارجياً في شعره ، لا أثر للعنصر ولا للجنس ولا للقومية الفارسية في كل ما قال أو فعل ، وإذا كان قد علق في فنه الشعري شيء غير خارجي ، فذلك لا يتعلق بمبادئ الخوارج وقيمهم الروحية وأخلاقهم العامّة ، بل ربما تعلق بالنواحي الفنيّة ، كالدفقة والاستقصاء ، وإطالة القصيدة وحسن تنسيقها ، وقد وقفنا له على قصيدتين تنفردان بين شعر الخوارج بما ذكرنا من صفات (الإطالة والدفقة والاستقصاء) وسأوردهما كما عثرت عليهما في آخر هذه الدراسة لما في ذلك من فائدة .

وعلى عكس ما ذكرنا من اندماج الموالى في الخوارج وصدق انتمائهم وذوبان شخصيتهم فيهم ، فإننا نرى شعراء الأحزاب الأخرى ، يُقدّمون انتماءهم إلى قبائلهم ودفاعهم عنها واعتزازهم بها ، على أي انتماء سياسي .

فالنزعة القرشية طاغية على شعر ابن قيس الرقيات ، شاعر

الزبيرية ، والانتماء التغلبي أوضح عند الأخطل من ولائه لبني أمية ،
وذلك لحفاوته بقومه والانتصار لهم ، يقدم ذلك على ولائه للعرش
الأموي ، كذلك فجرير والفرزدق شاعرا قبيلتهما قبل أن يكونا
شاعري بني أمية ، وحتى الكميت شاعر الشيعة المعروف ، كان
تعصبه للعدنانية ، ومنافحته عنها بالشعر ، مقدماً على شيعيته ، ومحاجته
لخصوم آل أبي طالب ، كان مستعداً لبذل ما دون روحه من أجل
الهاشميين ، كان جوابه لزيد بن علي حينما ثار على هشام بن عبد
الملك ، وقد طلب منه زيد أن يثور معه — كان جوابه (٤٦٢) :

تجوّد لكم نفسي بما دون وثية تظل لها الغربان حولي تحجل

أما شاعر الخوارج الفارسي عمرو بن الحصين فيقول في رثائه لقتلي
موقعة قديد (٤٦٣) :

يارب اسلكني سبيلهم ذا العرش ، واشدد بالتقى أزري

ومن درس التركيب الاجتماعي للخوارج — قمة وقاعدة — وجد أنهم
تجمّع غير متجانس القبائل :

(٤٦٢) أدب السياسة ٢٤٠ .

(٤٦٣) شعر الخوارج : ٨٤ .

عصائب من شتى يؤلف بينها
تقى الله نزالون عند التزاحف (٤٦٤)

ووجد أن الخارجي قد يلتقي بأبن قبيلته — إذا كان خصماً عقائدياً
له — فيقاتله ويقتله دون أن تتدخل العصبية القبلية بعواطفه
ومواقفه، وسبق أن ذكرنا أنه لما ثار ابن طريف (الشيبياني) على
الرشيد سنة ١٧٩ هـ رماه بأبن قبيلته يزيد بن مزيد (الشيبياني)
فقتله (٤٦٥)

نخلص للقول: إن الخوارج مبرؤون من العصبية القبلية أو
الجنسية في كل حالاتهم: في سياستهم وفي نظامهم الاجتماعي، ثم
في شعرهم، وإذا كان لابد من ذكر كلمة (عصبية) فإنها العصبية
الإسلامية الخارجية.

ط — ضياع قسم كبير منه:

كان لابد من ضياع أو تضييع قسم كبير من أدب الخوارج

(٤٦٤) البيت للطرماح.

(٤٦٥) البيان والتبيين: ٣٤٢/٢ وشرح النهج ٥٩١/١ وضحى الإسلام:

٣٤٥/٣ — ٣٤٦.

بعمامة، وشعرهم بشكل خاص، مادام هذا الأدب وذاك الشعر لا يخدمان الأنظمة القائمة آنذاك، ولا يتوقع أحد أن يُروى أو يُسجل شعر يسفّه آراء الخلفاء والأمراء ويكفرهم، وهم أهل العقد والحلّ في كل الأمور، هم الذين يحجرون نوعاً من الفكر والأدب، ويروجون لنوع آخر، وإذا كان قد تسرب من شعر الخوارج أو أدبهم شيء عبر ذلك الحصار المضروب عليه، فإن ذلك فوت الحرص — كما يسمونه — وليس الحكام وجددهم أعداء الخوارج، بل المؤرخون والمؤلفون والكتاب الذين كتبوا عنهم، كانوا أعداء لهم.

إن معظم ما وصلنا عنهم من أخبار أو أشعار كان عن أحوالهم في العصر الأموي، ولكن تسجيل ذلك وروايته لم يكن في العصر الأموي، بل كان في العصر العباسي، أما أخبارهم وأشعارهم في العصر العباسي فكانت قليلة وسبب ذلك فيما أرى:

١ — ضعف أمرهم في ذلك العصر، وضعف شعرهم تبعاً لذلك.

٢ — إن الذين كتبوا عنهم في العصر العباسي لم يكونوا يخافون

السلطان إقسام ما دامت كتابتهم تتعلق بخصوصهم
الأمويين، ولكن ذلك لم يكن مسموحاً إذا كان يتعلق

٠٣٣

وإذا أضفنا أنه لم يكن للخوارج مؤلفون منهم، أخذوا على
عاتقهم وضع تاريخهم وكتبوا بصدق وأمانة وواقعية مجمل أمورهم
وروا أشعارهم بجملتها، علمنا مدى احتمال فقدان القسم الأكبر
من تلك الأشعار، ما دامت روايتها منوطة بأعدائهم..

وعن قلة شعر الخوارج قال الدكتور إحسان عباس (٤٦٦):
«يتبين لنا من مراجعة شعر الخوارج أن الموضوعات
الشعرية التقليدية فيه، قد أصيبت بالاستحالة، فاستحال المدح
في سبيل الرزق ثناء على الشراة أنفسهم، واقتصر الرثاء على
الإخوان والأصدقاء الذين ضحوا بأنفسهم خدمة لعقيدتهم،
وأصبح الهجاء نقداً لروح التخاذل والارتداد، ولم يبق هنالك إلا
أثارة يسيرة من غزل وهجاء فردي، وإلا فخر موجه تحت راية
المبادئ السامية والرغبة في الاستشهاد».

(٤٦٦) مقدمة شعر الخوارج: ١٦.

وقال الدكتور عبد القادر القط في هذا الموضوع (٤٦٧)

«والحق أن هؤلاء الشعراء المقلين قد نبذوا سبيل كبار الشعراء في ذلك العصر، ورفضوا ما كانوا يرون من ارتزاقهم بالشعر وسيرهم في ركاب الخلفاء والأمراء والولاة والقواد والسراة. وأدانوا ذلك السلوك من موقفهم الديني الذي منه انطلقت آراؤهم وألوان سلوكهم،... فليس في حياة الخارجي مجال لذلك الغزل التقليدي الذي تفتتح به القصائد الطويلة— وهو على أية حال ينذر أن يكتب قصيدة طويلة— ولا مجال كذلك للوقوف على الأطلال، أو وصف الرحلة البعيدة إلى الممدوح، أو الحديث المفصل عن وقائع الجاهلية، وأنساب القبائل والآباء والأجداد، ومكانهم من الضعة والشرف، مادام الشاعر يرفض التفاخر بالأنساب، ويرى أن أكرم الناس عند الله أتقاهم»..

وأخيراً، فقد جمع الدكتور إحسان عباس، كل شعر الخوارج، وبذل جهداً مشكوراً، في التنقيب والاستقصاء، لاستخراجه من مظائنه، فكان ما جمعه من شعر صحيح النسبة،

(٤٦٧) في الشعر الإسلامي والأموي: ٣٧٨.

وغير صحيحها ، لا يزيد عن مئة وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، لأكثر من خمسة وستين شاعراً ، ومنها ثلاث مقطوعات للطرماح ، هي ماظن المؤلف أنها تنسب للشعر الخارجي ، وفيها كذلك شروح للمفردات الصعبة ، وتعليقات وغير ذلك .. الخ ..

٢ - أثر العقيدة في شعرهم

انصبَّت أشعار الخوارج في جملتها بقلب الدعوة الخارجية ، وما تشتمل عليه من التزام صارم بالإسلام ، وإبراز الجانب السياسي ، وقضية الديمقراطية السياسية والاجتماعية التي أرادوها لمدينتهم الفاضلة ، وبرز في شعرهم تفضيل ما يعتنقون من مبادئ ، وتأييد الجوانب الإيجابية فيها ، ووصف الرجال الذين يدينون بها وتخطئة خصومهم ، تشترك في ذلك جميع نصوصهم الشعرية حتى يمكن أن نقول : إن لشعرهم موضوعاً واحداً هو : العقيدة الخارجية ، فكل روافد هذا الشعر نصب في هذا النهر الكبير ، ولو تناولنا بالدراسة أي نص من أشعارهم دون اختيار ، أو قصد ، ومن غير توقف ، لنستشهد به على ما نقول ، لوجدناه واقعاً في موضع الاستشهاد ، فالطابع الخارجي واضح على كل ما قالوه من شعر .

قال معاذ بن جوين، وقد هم المغيرة بن شعبه بنفي الخوارج من الكوفة (٤٦٨)

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ
شرى نفسه لله أن يتسرحلا
أقمتهم بدار الخاطئين جهالة
وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشسذوا على القوم العداة فائمسا
إقامتكم للذبح رأيا مضلا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي
إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا

وقال أبو بلال مرداس بن أدية حين عزم على الخروج (٤٦٩):
إلهي هب لي زلفنة ووسيلة
إليك فإني قد سيمتت من الدهر

(٤٦٨) شعر الخوارج: ٨ وأدب السياسة: ٢٢٤ والطبري ١٠٧/٦ وابن الأثير
.٤٢٨/٣

(٤٦٩) شعر الخوارج: ١١.

وقد أظهرَ الجورَ السَّوْءَ وأجمعوا
 على ظلمِ أهلِ الحقِّ بالخدي والكفر
 وفيك إلهي إن أردتَ مغيِّـرٌ
 لكلِّ الذي يأتي إلينا بنو صَخْر
 فقد ضيَّقوا الدنيا علينا برحبها
 وقد تركونا لائقِرُّ من الذَّعْر
 فياربِّ لا تُسلمْ ولا تك للردى
 وأيِّدْهُمُ ياربِّ بالنَّصْرِ والصَّبْرِ
 ويسِّرْ لنا خيراً ولا تحمِئنا
 لقاءَ ذوي الإلحادِ في عَدَدِ دَثْرٍ (٤٧٠)

وقال عمران بن حطان عن الدنيا (٤٧١):
 أرى أشقياءَ النَّاسِ لا يسأمونها
 على أنَّهم فيها عراةٌ و جُرْعُ

(٤٧٠) الدثر: الكثير.

(٤٧١) شعر الخوارج: ١٧.

أراها وإن كانت تُحبُّ فإنَّها
سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَن قَلِيلٍ تَقَشُّعُ

وقال عطية بن سمرة الليثي (٤٧٢):

وَحَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا دِلَاصٌ حَصِينَةٌ
ومَغْفَرُهَا يَوْمًا وَصَدْرُ قَتَاةٍ

وَأَجْرُدُ مَجْبُوكِ السَّرَاةِ مَقْلَصٌ
شَدِيدٌ أَعَالِيهِ وَعَشْرُ شُرَاةٍ

فَابْلَغَ مِنْهُ حَاجَتِي وَبَصِيرَتِي
وَأَشْفِي نَفْسِي مِنْ وِلَاةِ طَغَاةٍ

وإذا كانت هذه هي صورة الخارجي الشجاع، فقد رسموا
صورة الخصم الجبان، قال عمران بن حطان يشمت بفرار
الحجاج من غزاة الخارجية وكان قد لج في طلبه (٤٧٣):

أَسَدٌ عَلِيٌّ فِي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ
رِيْدَاءُ تَجْفَلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

(٤٧٢) شعر الخوارج: ٣٢.

(٤٧٣) شعر الخوارج: ٢٥ والبيان والتبيين: ١٢٨.

هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةٍ فِي الْوَعْيِ
بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ

صَدَعَتْ غَزَالَةٌ قَلْبَهُ بِفَسْوَارِسٍ
تَرَكَتْ مَنَابِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

أَلِقِ السَّلَاحَ وَتُحِذْ وَشَاحِي مُعْصِرٍ
وَاعْمُدْ لِمَنْزِلَةِ الْجَبَانِ الْكَافِرِ (٤٧٤)

يا لها من منزلة مهينة ذليلة (منزلة الجبان الكافر).

لقد سخروا من خصومهم وسفهاوا آراءهم ، وأيدوا عقيدتهم
وحاملها ، قال عيسى بن عاتك في فرار ألفين من جند الأمويين أمام
أربعين من الخوارج (٤٧٥) :

فَلَمَّا أَصْبَحُوا صَلُّوا وَقَامُوا إِلَى الْجُرْدِ الْعَتَاقِ مُسْؤِمِينَا
فَلَمَّا اسْتَجْمَعُوا حَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَظَلَّ ذَوُو الْجَعَائِلِ يُقْتَلُونَا
يَقُولُ بِصِيرُهُمْ لَمَّا رَأَاهُمْ بَأَنَّ الْقَوْمَ وَلَّسُوا هَارِينَا

(٤٧٤) المعصر: الفتاة عند بلوغها عصر الشباب.

(٤٧٥) شعر الخوارج: ١٤ وشرح النهج ٥٩٦/١ ومن ديوان المعاني ٦٢٤/٢

والكامل للمبرد: ٨٥.

أَلْفَا مُؤْمِنٍ — فِيمَا زَعَمْتُمْ — وَيَهْزُمُهُمْ بِآسِكَ أَرْبَعُونَ
كَذِبْتُمْ لَيْسَ ذَلِكَ كَمَا زَعَمْتُمْ وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونَ
هُمُ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ غَيْرُ شَكِّ عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونَ

وطلب الموت وحب الشهادة من أَلصق الصور بالرجل الخارجي ،
يمثل ذلك البهلول في قوله (٤٧٦) :

مَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى مَنِيَّتَهُ

فالموتُ أشهى إلى قلبي من العسلِ

فَلَا التَّقْلُمُ فِي الْهَيْجَاءِ يُعْجَلُنِي

ولا الحُدَارُ يُنْجِنِي مِنَ الْأَجَلِ

ولا تكتمل صورة الخارجي إلا بعرض مشهد العابد الزاهد المتجلي
بأكمل الصفات (٤٧٧)

مَتَأَهَّبُونَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ نَاهُونَ مَنْ لَاقُوا عَنِ التُّكْرِ
صَمْتُ إِذَا حَضَرُوا بِمَجَالِسِهِمْ مِنْ غَيْرِ مَاعَسِيٍّ بِهِمْ يَزْرِي
مَتَأَوَّهُونَ كَأَنَّ جَمْرَ غَضًّا لِلْمَوْتِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ يَسْرِي

(٤٧٦) شعر الخوارج : ٧٣ .

(٤٧٧) عمرو بن الحصين — شعر الخوارج : ٨٤ — وشرح النهج ٦١٦/٠ .

لا ليلهم ليل فيلبسهم فيه غواشي النوم بالسُّكرِ
إلا كرى خلساً وآونة حذر العقابِ فهم على دُغرِ

وكذا شعر الخوارج كله، تتردد فيه أصداء العقيدة
الخارجية، ينبع منها ويصب فيها.

٣ — الطابع الإسلامي: (في التعبير والتفكير)

إنهم يصدرون في كل أفعالهم، عن عقيدة إسلامية
خالصة، صافية من الشوائب، خالية من الفلسفات والتأويلات
والتعقيدات، فكر واضح وعقيدة ظاهرة، تتفجر من ألسنتهم دونما
عناء أو تكلف، وكما أنهم يصدرون عن مثل هذه العقيدة، فهم
يعبرون عن ذلك بمثل الصفاء والصدق السابقين الذكر، وبلغه
علقت فيها عبارات القرآن الكريم والحديث الشريف، وتمثلت فيها
روح الإسلام وصفاءه ونقاؤه، وسبب ذلك كله أن القرآن أكبر
مصدر لثقافتهم، — إن لم نقل هو مصدرها الوحيد — فهم حفظة
القرآن والمتصلون به، ليس لديهم كتب أخرى، ولا ثقافات متنوعة
تلون شعرهم، فهم مدينون له بدينهم أولاً وبلغتهم وشعرهم ثانياً.
يقول عيسى بن عاتك^(٤٧٨):

(٤٧٨) شعر الخوارج: ١٣.

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا فخرُوا بيكسر أو تميم
ويقول عن الخوارج (٤٧٩) :

همُ الفئة القليلة دون شكِّ على الفئة الكثيرة يُنصروننا
وهذا مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت
فئةً كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ (٤٨٠) وقد عرفنا من
دراسة مذهبهم أنهم يدينون بما جاء به الإسلام من مساواة،
فلا تفاضل بالأحساب والأنساب، وإنما التفاضل بالتقوى
والصلاح، فقد تعمق الإسلام في نفوسهم حتى سلَّ منها دعاوى
الجاهلية كلها من عزة النسب والمال والجاه، وأحلَّ محلَّها مقاييس
جديدة، هي مقاييس الإسلام، لقد أسقطوا من حساباتهم مقولة :
الأئمة من قريش : لمنافاتها لروح الإسلام ومساواته وعدالته، يقول
شاعرهم عمران بن حطان (٤٨١) :

ونحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عبادِ الله بالله من شكر
من معنى الآية الكريمة : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٤٨٢)

(٤٧٩) شعر الخوارج : ١٤ .

(٤٨٠) سورة البقرة / ٢٤٩ .

(٤٨١) شعر الخوارج : ٢٥ .

(٤٨٢) الحجرات الآية / ١٣ .

كذلك فإن وضوح شعرهم وبساطته هما أثران إسلاميان ،
إذ إنهما ناتجان عن وضوح عقيدتهم وبساطتها .

وبذلك يكون شعرهم نتاجاً إسلامياً بروحه وأساليبه
وأغراضه وألفاظه .

تمثل الخوارج تعاليم الإسلام في شتى النواحي ، وأخذوا
أنفسهم بما طلب من تضحية في سبيل المبادئ السامية ، واستهانة
بالموت ورغبة بالآخرة ، ولكنهم بالغوا فيما مارسوا من عبادات
ومعتقدات ، إذ تجاوزوا ما طلب الإسلام وما فرض ، إلى ما لم يطلب
وما لم يفرض ، وألزموا أنفسهم بما لم يلزمهم به الدين ، فكان
الخارجي أكثر من مسلم عادي يمارس الشعائر المفروضة ..

لم يطلب الإسلام من المسلم أن يقضي ليله تهجداً وتعبداً ،
ونهاره جهاداً وقتالاً في سبيل الله ، لم يطالب أتباعه أن يكونوا
شعث الشعور ، غير الوجوه أكلت الأرض جباههم وأيديهم من
طول السجود ، حتى كأنهم صدروا عن الحشر كما قال شاعرهم
عمرو بن الحصين في وصفهم (٤٨٣) :

تلقاهمُ إلا فتحسبُهُمُ لخشوعِهِم صدرُوا عن الحشر

(٤٨٣) شعر الخوارج : ٨٤ .

بل على العكس من ذلك تماماً، فقد حض الإسلام على الأخذ
 بنصيب أوفر من زينة الحياة الدنيا والتمتع بطيباتها، وهذا ما لم يفعله
 الخوارج، بل حرّموه على أنفسهم طوعاً واختياراً، فظهر ذلك في
 شعرهم تشدداً وغلواً وتضييقاً، لم يطالبهم الإسلام أن يكونوا كما قال
 عمرو بن الحصين (٤٨٤) :

متأوهون كأن جمرَ غضاً للخوف بين ضلوعهم يسري
 تلقاهم إلا فتحسبهم لخشوعهم صدروا عن الحشر
 لآليلهم ليل فتلبسهم فيه غواشي النوم بالسكر
 آلا تبيهم فإنهم رجف القلوب بحضرة الذكر

أو كما قال الأصم الضبي، قيس بن عبد الله (٤٨٥) :

قوم إذا ذكروا بالله أو ذكروا
 خروا من الخوف للأذقان والركب

إنهم يراقبون الله في كل حركاتهم ويخافونه خوفاً شديداً، قال
 الحسن بن عمرو الإباضي (٤٨٦) :

(٤٨٤) شعر الخوارج: ٨٥ وشرح النهج ١/٦١٦.

(٤٨٥) شعر الخوارج: ٥٦.

(٤٨٦) شعر الخوارج: ٩١.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل:
خلوت، ولكن قل: عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولأن ما يخفى عليه يغيب

٤ — العروبة الخالصة

فقد كان شعر الخوارج نتاجاً عربياً صرفاً، لم تتمازج فيه الثقافات، إذ لم يكن عصر تمازج الثقافات والاختلاط الفكري والاجتماعي قد بدأ عند نشأة الخوارج الأولى (قبيل منتصف القرن الأول الهجري)، فلم يكن العرب قد اختلطوا بغيرهم من الأمم آنذاك، ولم يكن عهد الموالى والشعبوية، والنفوذ الفكري والسياسي للأعاجم قد شق طريقه إلى أرض الدولة العربية، لذا حافظ الخوارج على نقاء اللغة، وعروبة الأسلوب، وصفاء الديباجة، وعندما جاء عصر الاختلاط والتمازج الثقافي والتأثر الحضاري، كانوا قد كونوا شخصيتهم الأدبية، وتبلورت أساليبهم، ومن جهة أخرى لم يُتَحَ للخوارج — بحكم وضعهم المعارض — أن يستقروا في المدن والعواصم الثقافية، حتى يعيشوا الحركة الفكرية ويتأثروا بها، بل كانوا مطاردين ملاحقين في الأقاليم من أطراف المملكة

الإسلامية، فلا سبيل للتأثر الذي عم الأدب العربي في الحواضر،
وما دامت أنماط حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية والمعاشية لم
تتغير، فلا بد أن يبقى شعرهم محافظاً على طابعه العربي الخالص
تبعاً لذلك.

صحيح إن قسماً من الموالي قد اعتنقوا المذهب الخارجي،
واستهوتهم مبادئه الديمقراطية وعدالته، وأصبح بعضهم من شعراء
الخوارج كغيرهم من العرب، لكن الحركة الخارجية العربية
استوعبتهم فنياً كما استوعبتهم فكراً وعقائدياً، وصهرتهم في قالبها
الخارجي، واحتوتهم فكانوا خوارج تماماً. وربما كان أكبر شعراء
الخوارج مولياً فارسياً وهو: عمرو بن الحصين، كان مولياً لبني
تميم، اعتنق المذهب الخارجي وأبلى فيه قولاً وعملاً، كان ابن
الحصين هذا شاعراً مميّزاً: امتاز بطول النفس واكتمال عناصر
القصيدة، والدقة والاستقصاء، والإحاطة بجوانب الموضوع
وجزئياته، كما لم يفعله شاعر عربي من الخوارج، وأسلوبه مع ذلك
جزل فيه صفاء لغوي رائع، وقد اختلف شعره عن شعر عامة
الخوارج، بالإطالة والعناية ببناء القصيدة وبراعة القصص مما قد
يكون له علاقة بأصله الفارسي، أما من حيث عروبة شعره فهو
عربي خارجي لا غبار عليه: له قصيدتان طويلتان قياساً بشعر

الخوارج : قال الأولى يوم قديد سنة ١٣٠ هـ وقال الثانية في رثاء أبي حمزة الخارجي وعبد الله بن يحيى الكندي — طالب الحق — وكلنا القصيدتين من صميم المذهب الخارجي .

ولا أعتقد أن المحافظة على هيكل القصيدة العربية في الجاهلية ، والتقيد بطريقتها والأخذ بخشونة الألفاظ والصور ، لا أعتقد أن ذلك من أساسيات العروبة في الشعر ، فالخوارج مزجوا العروبة بالإسلام ، فرّق شعرهم ولأنّ وخرج على العمود مع المحافظة على الصفاء العربي والأصالة العربية .

٥ — جماعية شعرهم ، وتشابه الشعر والشعراء

الخوارج — كما هو معروف — ديموقراطيون جمهوريون في نظريتهم السياسية وممارساتهم الحياتية ، جماعيون في حرمهم وسلمهم وجميع أمورهم الأخرى ، لذلك فإن أدبهم جاء جماعياً . ينطق باسمهم جميعاً ويعبر عن آرائهم ومشاعرهم كجماعة ، فلا نلمح فردية الشاعر العربي المعتز بذاته ، ولا نرى (الأنا) العربية تتردد في أشعارهم ، وشاعرهم لا يتحدث بضمير المفرد ، غائباً كان أم متكلماً أم مخاطباً ، بل نسمع : هم .. نحن .. أنتم .. الخ .. هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة يُنصروننا

و ونحن بنو الإسلام واللَّهُ واحدٌ وأولى عبادِ اللَّهِ باللَّهِ من شكرٍ

و في فتيةٍ شرطوا نفوسَهُمُ متراحين ذور يسارهمُ وذوو خصاصتهم كأنَّهُمُ مُتجملين بطيبِ خيمهمُ
و للمشرفية والقنا السُّمسرِ يتعطفون على ذوي الفقرِ من صدقِ عفتهم ذور وفيرٍ لا يهلعون لنبوة الدهرِ

و تالله ألقى الدهرَ مثلهمُ أوفى بدميتهم إذا عقدوا متأهبون لكلِّ صالحيةٍ إلا تجيئهمُ فإنَّهُمُ متأوهون كأنَّ جمرَ غضاً تلقاهمُ إلا كأنَّهُمُ فهمُ كأنَّ بهم جوى مرضٍ
و حتى أكون رهينةَ القبرِ وأعفَّ عند العسرِ واليسرِ ناهون من لاقوا عن النكرِ رجف القلوبِ بحضرةِ الذكرِ للموتِ بين ضلوعهم يسري لخشوعهم صدروا عن الحشرِ أو مسَّهُم طرف من السحرِ

و ومن يخشى أظفار المنايا فإننا لبسنا هن السابغات من الصبرِ

وإن كربة الموت عذب مذاقه إذا ما مزجناه بطيبة الذكر (٤٨٧)

إلى آخر هذه النغمات المتشابهة الناطقة بضمائر الجمع.

ومن الغريب أن يأتي الغزل جماعياً في أشعارهم، وهو كما نعلم عاطفة فردية لا تصح الشراكة فيها يقول قطري بن الفجاءة (٤٨٨) :

فلو شهدتنا يومَ ذاك وخيلنا
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم
وثبيح من الكفار كل حريم
بجنات عدن عنده ونعيم
وقول الآخر :

ليت الحرائر بالعراق شهدنا
فنكحن أهل الجدد من فرساننا
ورأيتنا بالسفح ذي الأجبال
والضارين جماجم الأبطال

ومما يأتي تحت عنوان الجماعية والتشابه قول القائل في الخوارج (٤٨٩) :

للسه در الشرة إنهم
يرجعون الحنين أونة
إذا الكرى مأل بالطللى أرقوا
وإن علا ساعة بهم شهقوا

(٤٨٧) شعر الخوارج: ١١٧.

(٤٨٨) شعر الخوارج: ٤٥.

(٤٨٩) الأبيات للطرماح.

خوفاً تبيث القلوب واجفةً تكادُ عنها الصدورُ تنغلقُ
ولا عجب أن يكون شعرهم متشابهاً في أسلوبه وموضوعه
ومعانيه وصوره، مادامت مصادر ثقافتهم واحدة (القرآن الكريم
والحديث الشريف وأدب العرب ولغتهم) ويصدرون في شعرهم عن
فكر واحد وعقيدة واحدة وعاطفة واحدة، ويرمون إلى غرض
واحد.

لهذا فقد نسبت أشعار بعضهم إلى بعض، واختلف
القدماء في نسبة القصيدة الواحدة، دون أن يكون لأي شاعر منهم
شخصية شعرية مميزة ينفرد بها، أو يتاح لأي منهم أن يدخل في
شعره لونا من الثقافة لم يتح لغيره، فإذا كتبنا الأبيات التالية دون
أن نسمي قائلها، فإنه يصبح لنا أن ننسبها إلى أكثر من شاعر من
غير إخلال بالصفات الفردية لأحد منهم:

أقول لها وقد طارث شعاعاً	من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حي	فداعيه لأهل الأرض داع
وماللمرء خيراً في حياة	إذا ما عُد من سبغ المتاع

لا أعتقد أنه يضير قطري بن الفجاءة إذا نسبنا هذه الأبيات إلى مرداس بن أدية مثلاً، أو إلى عبيدة بن هلال اليشكري، أو حتى لو قلنا: قال أحد الخوارج، مادام ليس لديهم مذاهب فنية يتنمي إليها شاعر دون آخر، وما دامت أساليبهم في التعبير واحدة وعواطفهم واحدة، وموضوعهم الشعري واحد.

٦ — البداوة

تبدو كلمة (بداوة) مرادفة لكلمة (عروبة) التي سبق الحديث عنها، وبالإضافة إلى ما بين الكلمتين من قرب في المعنى، واشتراك في المدلول، فإن البداوة تحمل معاني أخرى اتصف بها شعر الخوارج، بل انفرد بها عن غيره، منها: سرعة الانفعال والتأثر التي انعكست على حياتهم، وظهرت في سلوكهم وشعرهم، ومنها قلة المشاهدات وبساطتها، ومنها الصفاء في الأفكار والتعابير، ومنها الإيجاز وقوة اللفظ، ومنها أصالة اللغة وسلامتها، وخلوها من أمراض الحضارة وعيوب الاختلاط التي ألت بشعر غيرهم..

والمقصود ببداوة الخوارج وبداوة شعرهم، بداوة الإسلام، لا بداوة الجاهلية فقد ظهرت في أشعارهم الميزات السالفة الذكر للبداوة، وانتفت منها عيوب بداوة الجاهلية: من خشونة في التعبير

وصعوبة في الكلمات، وأخذ بالروح الجاهلية، واعتاد
للموضوعات الجافية، كوصف الوحش والفلاة، ومشاهد الصيد
والرحيل، والغزو والاعتداء على الحقوق والحرمان، مما لا ينسجم
بحال من الأحوال مع أخلاق الخوارج وأدبهم.

وبعبارة واحدة فقد أخذ الخوارج من البداوة ما يلائم خلقهم
وطريقتهم في نظم الشعر، ونبذوا كل ما عدا ذلك.

ولا يصعب على من يقرأ شعر الخوارج أن يقف على صحة
ما ذهبنا إليه، من أن بداوة الخوارج هي بداوة إسلامية، لها
مضمونها الخارجي. هذه أبيات كتبها قطري بن الفجاءة إلى سميرة
ابن الجعد حين أصبح جليساً للحجاج^(٤٩٠):

لَشْتَانِ مَا بَيْنَ ابْنِ جَعْدٍ وَبَيْنَنَا

إِذَا نَحْنُ رَحْنَا فِي الْحَدِيدِ الْمَظَاهِرِ^(٤٩١)

تُجَالِدُ فَرَسَانَ الْمَهْلَبِ، كُنْنَا

صَبُورٌ عَلَى وَقْعِ السُّيُوفِ الْبَوَاتِرِ

(٤٩٠) شعر الخوارج: ٤٧، ورد اسم الشاعر (سميرة) في شعر الخوارج، و (سميرة)
في غزو.

(٤٩١) الحديد المظاهر: الدرع المضاعف.

ألم تر أن الموت لاشكُّ نازلٌ
 ولا بدُّ من بعثِ الألى في المقابرِ
 حفاةً عراةً والتسرابُ لديهمُ
 فمن بين ذي ربحٍ وآخرٍ خاسرٍ
 فإنَّ الذي قد نلتَ يفنى وإنما
 حياتك في الدنيا كوقعة طائرٍ
 فراجع أبا جعدٍ ولاتك مغضياً
 على ظلمةٍ أعشتَ جميع النواظرِ
 وتب توبةً تهدي إليك شهادةً
 فإنك ذو ذنبٍ ولست بكافرٍ
 وسرٌ نحونا تلقى الجهادَ غنيمَةً
 تُفدك ابتياعاً رابحاً غير خاسرٍ
 هي الغاية القصوى الرغيبُ ثوابها
 إذا نال في الدنيا الغنى كلُّ تاجرٍ

وشبيه بهذا الطابع ما أجاب به ابن الجعد لما قرأ كتاب قطري :
 ركب فرسه وأخذ سلاحه ولحق بقطري ونحلف رسالة فيها (٤٩٢) :

(٤٩٢) شعر الخوارج : ٤٧ .

فمَنْ مُبْلَغُ الْحِجَابِ أَنْ سَمِيرَهُ
 قَلَى كُلِّ دِينٍ غَيْرِ دِينِ الْخَوَارِجِ
 رَأَى النَّاسَ إِلَّا مَنْ رَأَى مِثْلَ دِينِهِ
 مَلَاعِينَ تَرَائِينَ قَصَدَ الْمَخَارِجِ
 فَأَقْبَلْتُ نَحْوَ اللَّهِ بِاللَّهِ وَاتَّقَا
 وَمَا كَرِهْتِي غَيْرُ الْإِلَهِ بِفَارِجِ
 إِلَى عَصَبِيَّةٍ أَمَّا النَّهَارُ فَإِنَّهُمْ
 أَهْمُ الْأَسَدُ أَسَدُ الْغَيْلِ عِنْدَ الشَّهَابِجِ
 وَأَمَّا إِذَا مَا اللَّيْلُ جُنَّ فَإِنَّهُمْ
 قِيَامٌ بِأَنْوَاحِ السَّنَاءِ النَّوَاشِجِ
 وَمَنْ بَدَاوَةَ شَعْرِ الْخَوَارِجِ مَا كَتَبَهُ يَزِيدُ بْنُ حَبْنَاءَ إِلَى زَوْجَتِهِ ، وَقَدْ
 طَلَبَتْ مِنْهُ هَدَايَاً وَالطَّافَاً (٤٩٣) :

دَعَى اللُّؤْمَ إِنْ الْعَيْشَ لَيْسَ بِدَائِمِ
 وَلَا تَعَسَّجَلِي بِاللُّؤْمِ يَا أُمَّ عَاصِمِ
 فَإِنْ عَجَلْتِ مِنْكِ الْمَلَامَةُ فَاسْمَعِي
 مَقَالَةَ مَعْنِي بِحَقِّكَ عَالِمِ

(٤٩٣) شعر الخوارج: ٣٦.

ولا تُعذَلِينَا فِي الْهَدْيَةِ إِنَّمَا
 تَكُونُ الْهَدَايَا مِنْ فَضُولِ الْغَنَائِمِ
 فَلَيْسَ بِمُهْدٍ مَنْ يَكْسُونُ نَهَارَهُ
 جَلَاداً، وَيَمْسِي لَيْلَهُ غَيْرَ نَائِمٍ
 يَرِيدُ ثَوَابَ اللَّهِ يَوْمًا بِطَعْنَةٍ
 غَمُوسٍ كَشْدِقِ الْعَنْبَرِيِّ ابْنِ سَالِمٍ (٤٩٤)
 أَسِيْتُ وَسِرْبَالِي دَلَاصٌ حَصِينَةٌ
 وَمَغْفَرُهَا وَالسَيْفُ فَوْقَ الْحِيَازِمِ (٤٩٥)
 حَلَفْتُ بِرَبِّ الْوَاقِفِينَ عَشِيَّةً
 لَدَى عَرَفَاتٍ حَلْفَةً غَيْرَ آثِمٍ
 لَقَدْ كَانَ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ لَقِيَتْهُمْ
 بِسَابُورٍ شَغْلٌ عَنِ بَزُوزِ اللَّطَائِمِ (٤٩٦)
 تَوَقَّدُ فِي أَيْدِيهِمْ زَاغِبِيَّةٌ
 وَمَرْهَفَةٌ تَضْرِي شُؤُونَ الْجَمَاجِمِ (٤٩٧)

(٤٩٤) طعنة غموس: واسعة، والعنبري بن سالم: أحد رجالهم اشتهر بسعة شذقيه.
 (٤٩٥) الحيازم: جمع حيزوم وهو الصدر.
 (٤٩٦) اللطائم جمع لطيمة، وهي القافلة، والبزوز جمع بز: الثياب والبضائع.
 (٤٩٧) الزاغبية: الرماح المنسوبة إلى زاغب، وهي رماح إذا هزت تدافعت كلها كأن
 أربها يجري في مقدمها.

ترى الخيل تُردى بالتجافيف بينهم
بفرسانها، مرّ النسور القشاعم (٤٩٨)

وغير خافٍ ما في هذه الأبيات، والأبيات التي سبقتها من طابع بدوي، ذلك الطابع الذي يحمله سائر شعر الجوارح.

٧ - القوة

إن ما يميز الشخصية الخارجية ذلك السلوك المتطرف في التعامل، فهم يغالون بالزام أنفسهم بما يرونه واجباً عليهم من سلوك وعمل، وهم مغالون في تحديهم لخصومهم في الحرب والسلم، فإذا أحضر أحدهم لمقابلة أمير أو خليفة كان يبالغ في التحدي ويكيل الإهانات والافتراءات، فيتهمهم بالكفر والمروق من الدين، وأخبارهم مع خلفاء بني أمية وولاتهم كثيرة في هذا الموضوع: جاء في البيان والتبيين للجاحظ (٤٩٩) أن الحجاج قال لامرأة خارجية: **والله لأعدنكم عدداً ولأحصدنكم حصداً**. فقالت: أنت تحصد والله يزرع، فانظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق. وفي

(٤٩٨) تردى: تهب، التجافيف: ما يجلل به الفرس بما يقيه الجراح.

(٤٩٩) البيان والتبيين ٢/٣٧٠.

المصدر نفسه (٥٠٠) جواب قطري بن الفجاءة على كتاب أرسله له الحجاج بن يوسف الثقفي يقول الجواب :

من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف : سلام علي الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله، ويرهبون نومه . فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظلع به أهل السُّفال، وهدى به من الضلالة، ونصر به عند استخفافك بحقه .

كُتِبَتْ إِلَيَّ تَذَكُّرُ أُنَى أَعْرَابِيٍّ جَلَفَ أُمِّيُّ اسْتَطَعَمَ الْكُسْرَى
وَأَشْتَفِي بِالثَّمَرَةِ، وَلِعَمْرِي يَا بَنَ أُمِّ الْحِجَّاجِ إِنَّكَ لَمُتِّيَّةٌ فِي جِبَلْتِكَ
مُطَّلَعِيٍّ^(٥٠١) فِي طَرِيقَتِكَ، وَإِوٍ فِي وَثِيقَتِكَ، لَا تَعْرِفُ اللَّهَ،
وَلَا تَجْزَعُ مِنْ خَطِيئَتِكَ، يَسْتَسْتِ وَأَسْتِيَأْسْتِ مِنْ رَبِّكَ : فَالشَّيْطَانُ
قَرِينُكَ لَا تَجَاذِبُهُ وَثَاقُكَ، وَلَا تَنَازِعُهُ خَنَاقُكَ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ
شَاءَ لَأَبْرَزَ لِي صَفْحَتَكَ وَأَوْضَحَ لِي صَلْعَتَكَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ
قَطْرِيٌّ بِيَدِهِ لَعَرَفْتُ أَنَّ مَقَارِعَةَ الْأَبْطَالِ، لَيْسَتْ كَتَصْدِيرِ الْمَقَالِ،
مَعَ أَنِّي أَرْجُو أَنْ يَدْحَضَ اللَّهُ حَجَّتَكَ، وَأَنْ يَمْنَحَنِي مُهَجَّتَكَ .

وإذا كانت القوة دليل عمل اعتمدوه طوال حياتهم وفي كل

(٥٠٠) البيان والتبيين ٢/٣٦٧ .

(٥٠١) شديد، متكبر، مظلم .

أعمالهم، فلا بد أن يكون شعرهم شعر القوة، ظهر ذلك منذ أيامهم الأولى ومنذ قال قائلهم أول بيت من الشعر أو الرجز، كان ذلك في النهروان عندما واقفهم عليّ هناك في تلك الموقعة المشهورة، حمل رجل منهم على عسكره وأخذ يرتجز (٥٠٢):

أقتلهم ولا أرى عليّا ولو بدا أوجرثسه الخطيّا

وخرج إليه علي فقتله، فلما خالطه السيف صاح: يا حبذا
الروحة إلى الجنة. ومن أرجاز ذلك اليوم: (٥٠٣)

أضربهم ولو رأى أبا حسن ضربته بالسيف حتى يطمئن

لقد تجلت القوة في كل موضوعات شعرهم، وحسبنا أن ندل على مواطن القوة في الموضوعات التي تعارف النقد وتاريخ الأدب على أن القوة غير مطلوبة فيها، بل إنها منافية لطبيعتها مرفوضة بها، كالرثاء والغزل، فمن مواقف القوة في الرثاء قول أيوب ابن خولي يرثي من قتل من أصحاب شوذب (٥٠٤):

(٥٠٢) قائله شريح بن أوفى - شعر الخوارج: ١٠٣.

(٥٠٣) نفس الشاعر ونفس المصدر / ١٠٣ / والكامل: ١٢٨.

(٥٠٤) شعر الخوارج: ٧٠ وابن الأثير ٥ / ٣٨٩.

تركنا تميماً في الغبار مُلحَباً
 تبكّي عليه عرسه وقرائبسه^(٥٠٥)
 وأقبل من حرانٍ يحملُ رايتهُ
 يغالسب أمرَ الله، والله غالبه
 فإن يك خليّ هديّة اليوم قد مضى
 فأني بآلاء الفتى أنا نادبسه
 فياهدب للهيجا وياهدب للندى
 وياهدب للخصم الألدّ يُحارِبسه
 وياهدب كم من ملحمٍ قد أجبته
 وقد أسلمته للرياح جوابسه^(٥٠٦)
 وكان أبو شيانٍ خيرَ مقاتلٍ
 يرجي، ويخشى بأسه من يحارِبسه
 ففسازَ ولاقى الله بالخيرِ كلّه
 وخذمه بالسيف في الله ضارِبسه^(٥٠٧)

(٥٠٥) تميم بن الحباب : أحد القواد الذين نديهم يزيد بن عبد الملك لحرب شوذب ،
 ملحياً : مقطوعاً .

(٥٠٦) الملحم : الذي أسر .

(٥٠٧) خذمه : قطعه .

تزوّد من دنياهُ درعاً ومغفراً
وعضباً حساماً لم تخنهُ مضارئهُ
وأجرّدَ محبوبك السراة كأنه
إذا انقضَّ وافي الرّيش حججٌ مخالبةٌ (٥٠٨)

ومن ذلك قول الجعد بن ضمام الذهلي يرثي صالح بن
مسرّح (٥٠٩) :

أيا عين فابكي صالحاً إن صالحاً
شرى نفسه لله يبغى بها الخلد
وقد كانَ ذا رأيٍ مبینٍ ورأفةٍ
صفوحاً عن العوراءِ يدفعها عمداً
وقد كانَ في الحربِ العوانِ يشبها
ويُسعرها بالخيلِ محبوبكهُ جُرّداً

ومن أمثلة القوة في الغزل، — إذا سلّمنا أنّ لدى الخوارج
غزلاً — ما كتبه الشاعر الخارجي، يزيد بن حبناء لزوجته، وقد
كتبت إليه تطلب منه هدايا (٥٠٩) :

(٥٠٨) وافي الريش: كثوره، حجج مخالبه: معقولة.

(٥٠٩) شعر الخوارج: ٣٦ وشرح النهج ١/٥٤٠.

دَعِيَ السُّومَ إِنَّ العَيْشَ لَيْسَ بِدَائِمٍ
 وَلَا تُعْجَلِي بِالسُّومِ يَا أُمَّ عَاصِمِ
 وَلَا تُعْذِلِينَا فِي الهَدِيَّةِ إِنَّمَا
 تَكُونُ الهَدَايَا مِنْ فَضُولِ الغَنَائِمِ
 فَلَيْسَ بِمُهَيِّدٍ مِنْ يَكُونُ نَهَارُهُ
 جَلَاداً وَيَسْمِي لَيْلَهُ غَيْرَ نَائِمِ
 يَرِيدُ ثَوَابَ اللَّهِ يَوْمًا بِطَعْنَةٍ
 غَمُوسٍ كَشَدِيقِ العَنْبَرِيِّ بْنِ سَالِمِ
 أَبِي ثُ وَسْرِيَالِي دَلَاصٌ حَصِينَةٌ
 وَمَغْفَرُهَا وَالسَّيْفُ فَوْقَ الحَيَاظِمِ

ومن قول قطري بن الفجاءة في أم حكيم (٥١٠) :

وَلَوْ شَهِدْتَنِي يَوْمَ دَوْلَابٍ أَبْصَرْتُ
 طَعَانَ فَتَى فِي الحَرْبِ غَيْرِ ذَمِيمِ
 غَدَاةَ طَفَّتْ عِلْمَاءَ بَكْرُ بْنُ وَائِلِ
 وَالْأَفْهَامِ مِنْ جَمِيْرٍ وَسَلِيمِ (٥١١)

(٥١٠) شعر الخوارج ٤٤ وشرح النهج ١/٦٠٥.

(٥١١) علماء: على الماء.

ومآل الحجازيون نحو بلادهم
وعجنا صدور الخيل نحو تميم
فلم أر يوماً كان أكثر مقصاً
يمج دماً من فائظ وكليم (٥١٢)
فلسو شهدتنا يوم ذاك وخیلنا
تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم
بجنات عدن عنده وتعيم

وإذا كانت القوة تطبع شعر الرثاء والعزل بطابعها، فطبيعي
أن تكون أكثر ظهوراً في الموضوعات الأخرى، كموضوع الحرب
والدفاع عن العقيدة وأمثالها وهي جل شعر الخوارج.. إنهم يطلبون
الموت في كل مناسبة، ويتباهون بالتسابق نحو الشهادة: (٥١٣)
من كان يكره أن يلقى منيته

فالموت أشهى إلى قلبي من العسل

ومثله (٥١٤):

(٥١٢) المقص: الطعن بالرماح. فائظ: ميت.

(٥١٣) شعر الخوارج: ٧٣.

(٥١٤) شعر الخوارج: ١١٦.

إذا ما التقينا كنتُ أولَ فارسٍ يجودُ بنفسِ أثقلتها عيوبُها
ومنه (٥١٥)

وهم الأسودُ لدى العرينِ بسالسةً
ومن الخشوعِ كأنَّهُمُ أخبأُ
يَمْضُونَ قد كسروا الجفونَ إلى الوغى
متبسّمين وفيهم استبشارُ
فكأنما أعداؤهم أحبّأهم
فرحاً إذا تحطّر القنا الخطارُ
يردون حوماتِ الحمامِ وإنها
واللهِ عندَ نفوسهم لصيفارُ
قدرٌ يُخلفنسي ويمضيهنمُ به
يا لهفَ كيف يفوتنسي المقدارُ

ومن قول عبدة بن هلال اليشكري (٥١٦)

ومسومٌ للموتِ يركبُ دُرْعَهُ . بين القواضبِ والقنا الخطارِ
يدنو وترفعهُ الرماحُ كأنه
فقوى صريعاً والرماحُ تنوشهُ . إن الشراةَ قصيرةُ الأعمارِ
شيلو تنشبُ في مغالبِ ضارِ

(٥١٥) شعر الخوارج: ١١٦.

(٥١٦) شعر الخوارج: ٥٢. وشرح النهج: ٥٨٠/١.

وقال أحد الخوارج يصف صيحة شبيب (٥١٧) :
إن صاح يوماً حسيب الصخر منحدرًا
والرياح عاصفةً والموج يلتطم

وقال قطري (٥١٨) :
يارب ظل عقاب قد وقيت بها
مُهري من الشمس والأبطال تجلبد
ورب يوم حمى أرعيت عقوتة
خيلي اقتصاراً، وأطراف القنا قصد
مشهراً موقفي والحرب كاشفة
عنها القناع، وبحر الموت يطرد
ورب هاجرة تغلي مراجلها
مخرتها بمطاييسا غارة تخد
نجات أودية الأفسزاع آمنة
كأنها أسد تقتادها أسد
فإن أمت حتف نفسي لأمت كمداً
على الطعان، وقصر العاجز الكمد

(٥١٧) شعر الخوارج: ١٠٩ والبيان والتبيين: ١٢٨.

(٥١٨) شعر الخوارج: ٤٢.

ولم أقل لم أساق الموت شاربه
في كأسه، والمنايس شرع ورد

ومنه أقوال الخوارج في معارك ساسي وسليبي
وسولاف (٥١٩):

بسلي وسليبي مصارع فتيسة
و: كرام وعقري من كمييت ومن ورد

بسلي وسليبي جماجم فتية
و: كرام وصرعى لم توسد خلودها

فإن تك قتل يوم سلى تتابعث
فكم غادرت أسيفنا من قماقم
غداة نكسر المشرفة فيهم
و: بسولاف يوم المازق المتلاحم

وكم من قتيبي تنقر الطير عينه
بسولاف غرته المنى والجمائل (٥٢٠)

(٥١٩) شعر الخوارج: ١٠٦ - ١٠٧.

(٥٢٠) الجمائل: الأعطيات التي يأخذها الجندي أجراً..

و:
وكائنَ تَرَكْنَا يَوْمَ سُولَافٍ مِنْهُمْ
أسارى وقتلى في الجحيمِ مَصِيرُهَا
ويظهر الخوض على الثورة والخروج في شعرهم، كأحد أهم
أركان هذا الشعر، وكذلك الدعوة الدائمة إلى الجهاد وإحقاق
الحق وتأكيد ما لديهم من قيم ومثل بحذو السيف، يقول الشاعر
الخارجي معاذ بن جوين الطائي (٥٢١):
ألا أيها الشارون قد حانَ لامرئٍ
شرى نفسه لله أن يتسرحَ سَلا
أقمتهم بدارِ الخاطئينَ جهالةً
وكسلُ امرئٍ منكم يُصادُ ليقتلَا
فشدوا على القومِ العداةَ فإنما
إقامتكم للدَّبْحِ رأياً مضللاً
ألا فاقصدوا يا قومُ للغايةِ التي
إذا ذُكرتْ كانتْ أبرَّ وأعدلاً
ومثل ذلك ما كتبه قطري بن الفجاءة المازني إلى أبي خالد
القناني — وكان من القعدة — (٥٢٢)

(٥٢١) شعر الخوارج: ٨.

(٥٢٢) شعر الخوارج: ٤١.

أبا خالدٍ يا انفراً فلست بخالدٍ وما جعلَ الرحمنُ عنراً لقاعدٍ
أترعمُ أن الخارجيَّ على الهدى وأنتَ مقيمٌ بين لصٍّ وجاحدٍ

وإذا كانت القوة واضحةً في كل موضوعات شعرهم، فلا نريد القول: بأن إظهار القوة في الموضوعات الشعرية التي يستحسن فيها إظهار الضعف والدموع — كالرثاء والغزل — ميزة فنية تستحق الثناء، ولكننا نقرر واقعاً ونرصد حقيقة قد تجد ما يسوغها في عالم الخوارج القائم على القوة، ففي رثائهم صبر المؤمنين الأقوياء، وفيه التصميم على متابعة النضال، وفيه التأكيد على الثأر والانتقام. وفي الغزل التباهي أمام المحبوبة بالقوة والشجاعة ومنازلة الفرسان، وحب الشهادة، والتقرب من الحبيبة بالتقرب من الله، ولعن بدا ذلك غريباً بعض الشيء، فهو غير منافٍ لتقاليد الغزل والرثاء في كثير من الوجوه.

٨ — الواقعية

من واقعهم البسيط المحدود، وما تحت أيديهم وأبصارهم من مشاهد، استقوا صورهم الشعرية، وعناوين قصائدهم، فمصادر إلهامهم: الطبيعة القاسية، والعقيدة الصارمة، والثقافة القرآنية الخالصة، وهناك الحروب الدائمة، لا يستطيعون أن يمنحوا بخيالهم

خارج هذه الدوائر، فهي أفقهم المحيط بهم. وما دام الخوارج ليسوا شعراء محترفين، فليس من مهمهم تصيّد الصور وابتداع الأنحيلة، وتجويد الأداة الشعرية وتطويرها، فهي مهمة لديهم بقدر ما تؤدي من غرض خارجي لافني، لذا فقد حبسوا خيالهم في حدود واقعهم المادي والذهني، فجاءت صورهم تعبيراً عن هذا الواقع، فيها صدق الواقع وجماله، وفيها واقعية العواطف ونبيلها، كما أن فيها أيضاً تجهم الواقع وقسوته، وشدة وطأته على الحياة والأحياء، لا يكاد الخارجي يفلت منها، إلا بإطالته على عالم الآخرة ذلك العالم الأثير عنده، والذي هو البديل لكل ما يعانيه في دنياه من قسوة وظلم وقهر.

فإذا وصفوا مقاتلاً أو متعبداً — وهذا مجال خيالهم — جاؤوا بصدق الواقع المادي والعاطفي، فكانت تشبيهاً ومجازاً منهم من صلب عالمهم المختار، معبرة عما يريدون، فمقاتلهم:

يهوي فترفعه الرماح كأثفه
شلسو تنشب في محالب ضار

وعبادهم:

متأوهون كأن جمر غضاً للموت بين ضلوعهم يسري

تلقاهم ألا كأنهم الخشوع عنهم صدروا عن الحشر

وعلى الرغم من أن صورة (الصادر عن الحشر) ليست في
متناولهم المادي، فإنها تشغل أذهانهم، وتسيطر على خيالهم، حتى
كأنها ماثلة أمام أعينهم ومن هنا جاء جمالها وقوة تأثيرها ..

ومن الصدق الواقعي، بساطة خيال شاعرهم، إنه يتمنى
أن يشبه الله بطعنة واسعة عميقة، كشدق العنبري بن سالم (وهو
خارجي من الأزارقة) كان يُسمى (الأشدق) لسعة شدقه:
يريدُ ثوابَ الله يوماً بطعنة

غموس كشدق العنبري بن سالم

فصورهم الشعرية وأخيلتهم، لا تتعدى واقعهم الملموس
والقريب منهم. لقد صوروا الحرب كما هي، أو كما وردت في شعر
غيرهم، وتصويرهم لها مختلف عن تصوير غيرهم، بأنهم شاهدوها
ومارسوها ولم يقل قائل منهم كلمة تتعلق بها إلا وقد عاشها بكل
أبعادها، بينما صور الكثيرون الحرب على السماع بها، وهذه ميزة
للخوارج، تعطي شعرهم صدق الواقع وعاطفة الممارسة والمعاناة.
قال عمرو بن الحصين العنبري في وصف الحرب (٥٢٣):

(٥٢٣) شعر الخوارج: ٨٤ وشرح النهج ١/٦١٦.

والمصطلح بالحرب يُسرُّها	بغارها في فتية سُسرِ
يجتاحها بأفل ذي شطب	عَضْبِ المضاربِ قاطع البثرِ
لا شيء يلقاه أسراً له	من طَعْنَةٍ في ثَعْرَةِ النحرِ
نجلاء منيرة تجيشُ بما	كانت عواصي جَوْفه تجري
خواض غمرة كل متلفة	في الله تحت العثير الكدرِ
ترآك ذي النخوات مختضباً	بنجيعه بالطعنة الشزرِ

إنهم يُعنون بصدق التصوير، أكثر من عنايتهم بالتجويد والإتقان والتنقيح، ولا يبالون بإظهار القصيدة بأحسن حالة ممكنة، مادامت هذه القصيدة ليست هدفاً بذاتها.

وكأن شعرهم واقعي بصورة وأخيلته، كذلك فهو واقعي بموضوعاته وعواطفه: فلم يتجاوزوا من حيث الموضوع، عقيدتهم الخارجية وما يترتب عليها من تمسك بها ودفاع عنها وحض على الجهاد في سبيل تحقيقها، أي أن موضوع العقيدة الخارجية بوجهيها النظري والعملية كان الموضوع الشعري الوحيد عندهم. أما عواطفهم فليست من النوع الشاذ ولا المبالغ فيه، وإنما هي الحقائق التي يدينون بها فتظهر شعراً وقوراً يطفح بنبل الصدق ودفء الحقيقة. وهم واقعيون أيضاً في اختيار أساليبهم الشعرية،

وانتقاء ألفاظهم من قاموس الواقع اللغوي للعرب والمسلمين ، لم يخرجوا عن هذا في قليل أو كثير .

وأريد أن أشير إلى أن عالم الآخرة ، على ما فيه من المجهول والغيب ، وعلى الرغم من انشغالهم الدائم به ، وتشوقهم للوصول إليه ، لم يثر في أشعارهم تصوراً غامضاً أو خيالياً ، ولا شكلاً لديهم أفقاً مجهولاً حارت فيه خيالاتهم ، بل هو عالم أليف معروف ، إنه عالم الجنة والنار كما جاء في القرآن الكريم ، إنه عالم البعث والنشور الذي تمثلوا صورته وكأنهم يعرفونها :

تلقاهمُ ألا كأنهمُ تخشوعهمُ صدروا عن الحشرِ

هذا الحضور القوي لعالم الآخرة في أذهانهم ، جعله واقعاً يُعاش وحقيقة ملموسة ، لا تثير تساؤلاً ولا تستدعي استغراباً ، إنهم يعرفونها بكل ثقة وتأكيد ، يقول قطري بن الفجاءة (٥٢٤) :

ألم تر أن الموت — لا شك — نازل

ولا بد من بعث الألى في المقابر

حفاة عراة والتسراب لديهم

فمن بين ذي ربح وآخر خاسر

(٥٢٤) شعر الخوارج : ٤٧ .

وحتى الذين يرحلون إلى عالم الآخرة، فإنهم يعرفون إلى أين هم ذاهبون، وكذلك الشعراء الذين يرثونهم يصورون طريقهم ومصيرهم بكل واقعية قرآنية، قال الأصم الضبي في رثاء الخوارج الذين قتلوا عند الجوسق (مكان بظاهر الكوفة) (٥٢٥)

إني أديـنُ بما دانَ الشُّرأةُ به

يومَ التَّخَيْلَةِ عندَ الجوسقِ الحَرِبِ

النافرِسَنَ على منهاجِ أولِهِم

مِنَ الخوارجِ، قبلَ الشكِّ والرَّيبِ

قسوماً إذا ذُكِّروا باللهِ أو ذكِّسروا

نحروا من الخوفِ للأذقانِ والرَّكِبِ

ساروا إلى اللهِ حتى أنزلوا غُرفاً

مِنَ الأرائكِ، في بيتٍ من الذهبِ

ومثل هذه الرؤية الواضحة لواقع الآخرة، رثى جسان بن

جعدة شوذباً وأصحابه (٥٢٦):

حتى مَضُوا لِلَّذِي كانوا له خَرَجُوا

فأورثونا مناراتٍ وأعلاماً

(٥٢٥) شعر الخوارج: ٥٦.

(٥٢٦) شعر الخوارج: ٧٠.

إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أَنْزَلُوا غُرْفًا
مِنَ الْجَنَانِ، وَنَالُوا ثُمَّ خَدَّامَنَا

٩ — حرارة العاطفة

إن المتبع لسيرة الخوارج. سيعرف دونما عناء مدى
انسجامهم مع أنفسهم وصدق سلوكهم، وسيرى التطابق
الكامل بين ما يطرحون من مبادئ وشعارات وبين طريقتهم في
السعي لتحقيق تلك المبادئ والشعارات، فهم يمتازون بأنهم
طرحوا شعار: وحدة الغايات والوسائل، فالأهداف النبيلة يجب
الوصول إليها بأنبيل الطرق وأكرمها، ومن ثم فإن التلازم بين شعرهم
وعقيدتهم سمة مميزة لهم لا يخطئها من يعرفهم.

لقد كان شعر الخوارج جزءاً من أخلاقهم، لما ذكرنا من
وحدة القول والعمل عندهم، ومن التلازم بين الشعر والعقيدة،
فشعرهم بجماله موظف في خدمة العقيدة، لقد كان تعبيراً صادقاً
عنهم في كل المجالات.

إن كل مكونات صدق العاطفة متوفرة لديهم، فهم
لا يتملقون أحداً لمكسب مادي إذ ليس للمدح عندهم وجود،

ذلك لما يتطلبه هذا الفن من الكذب للحصول على أغلى ثمن ممكن من الممدوح، ولم يكتفوا بالامتناع عنه، بل طالبوا غيرهم بتجنبه، وطالبوهم بالتعفف والاستغناء بالله عن الناس، قال عمران بن حطان يخاطب الفرزدق، وقد رآه يتسكسب بالشعر في المرید (٥٢٧) :

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادَ لِيُعْطَى إِنَّ لِلَّهِ مَا بَأَيْسَدِي الْعِبَادِ
فَاسْأَلِ اللَّهَ مَا طَلِبْتَ إِلَيْهِمْ وَأَرْجُ فَضْلَ الْمُقَسَّمِ الْعَوَادِ
لَا تَقُلْ فِي السَّجْوَادِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَتَسْمُ الْبَخِيلَ بِاسْمِ الْجَوَادِ
والخوارج يتجنبون في شعرهم المبالغات المخلة بالصدق والعفوية، والمنافية لحقائق الكون ونواميسه.

ثم إن البساطة والسهولة والعفوية، كانت مما يميز شعرهم، وهذه بدورها مؤشرات هامة على صدق العاطفة ونبليتها.

إن حرارة الإيمان والاستهانة بالموت في سبيل العقيدة، كانت تطبع الشعر بحرارة العاطفة وصدقها، مما يدعو إلى إدخال شعر الخوارج بأجمعه في صميم الأدب الملتزم.

كذلك فإن وحدة الموضوع، ووحدة الهدف، وحتى

(٥٢٧) شعر الخوارج: ٢٠ وتاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب: ١٧٦.

وحدة الدافع، كلها جعلت عواطف الخوارج حارة صادقة صدق الواقع الخارجي، إنهم ينبعون من منبع واحد، ويصبون في مصب واحد، ومن مؤشرات صدق العاطفة عندهم، ذلك التكرار لبعض الأفكار والكلمات والعبارات والإلحاح عليها، مما يؤكد أنها تعيش في أعماقهم وتحاول الخروج بنفحات الشعر.

وألح على نبل الدافع عندهم، فهم لم يمدحوا أحداً، ولم يتقربوا من أحد، ولم ينظروا إلى ما في يد أحد مهما بلغ شأنه، ولأي سبب من الأسباب، لم ينافقوا أحداً، ولو كان ذلك يتعلق بموت أو حياة.

ثم إن قوة التأثير التي يمتاز بها شعرهم، وقربه من النفس وأخذها بمجامعها، هي مقاييس داخلية لصدقه.

الخوارج أعداء المدوحين، فهم يستنكرون المدح أصلاً، ورؤوسهم جميعاً مطلوبة، وشعرهم كله تأييد لمبادئهم، ودحض لآراء خصومهم، إن أعداءهم كانوا يخشون على أنفسهم من تأثير أقوالهم وشدة حرارتها وبلاغتها، قال عبيد الله بن زياد (٥٢٨) «لَكَلَامٌ

(٥٢٨) الكامل للمبرد: ٨٢ - الرياح: نوع من القصب الفارسي سريع الاشتعال.

هؤلاء أسرع إلى القلوب، من النار إلى اليراع». وقال عبد الملك ابن مروان عن رجل من الخوارج زين له مذهبه بلسان طلق، وألفاظ بيّنة، ومعانٍ قريبة: «لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأنا أولى بالجهاد منهم» وأمر عبد الملك بحبسه، وقال: «لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي، ما حبستك، ثم قال: من شككني وَوَهَّمَنِي حتى مالت بي عصمة الله، فغير بعيد أن يستهوي من بعدي»^(٥٢٩) كيف استطاع هؤلاء أن يبلغوا من شدة التأثير ما بلغوا، مما أدهش العدو والصديق؟. لاشك أنهم نالوا ذلك بما شحنوا به أقوالهم من إيمان عميق، وصبروا في أشعارهم من قيم ومثل، وقد ضربوا المثل بذلك بين شعراء الأحزاب الأخرى، ممن عاصروهم، فالكميت — شاعر الشيعة — اضطر مدح الأمويين، وفعل مثله ابن قيس الرقيات، شاعر الزبيريين، إذ مدح عبد الملك بن مروان، أما الخوارج فما كان هذا وليس له أن يكون.

لقد ساومهم حكام بني أمية على أقل من المدح، على وقف الثورة المسلحة، والسكوت والعيش الآمن، فكان جوابهم الرفض

(٥٢٩) الكامل للمبرد: ٦٨.

القاطع، وكفروا القعدة منهم — الذين لا يرون حمل السلاح
واجباً — كانوا إذا هددهم أعداؤهم بالموت — وهم في قصورهم —
سَخَرُوا من الموت وأصروا على مواقفهم .

فمن صادق الأقوال والأفعال : موقف خطيبهم وشاعرهم
عبدة بن هلال اليشكري ، يوم حاصره وقومه سفيان بن الأبرد
الكلبي ، وتمكّن منهم ، ونادى وخطب بهم قائلاً : من قتل صاحبه
ثم جاءنا فهو آمن ، فكان جواب عبدة (٥٣٠)

لَعْمَرِي لَقَدْ قَامَ الْأَصْمُ بِخَطْبَةٍ
لِذِي الشُّكِّ مِنْهَا فِي الصُّدُورِ غَلِيلُ
لَعْمَرِي لَمَنْ أُعْطِيَتْ سَفِيَانٌ بِيَعْتِي
وَفَارَقْتُ دِينِي ، إِنِّي لَجَهْلُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا تُرَى بِجِيَادِنَا
تَسَاوُكٌ هَزْلٌ مُحْهِنٌ قَلِيلٌ (٥٣١)
تَعَاوَرَهَا الْقَذَافُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
بِقَوْمَسَ حَتَّى صَعِبُهُنَّ ذُلُولٌ (٥٣٢)

(٥٣٠) شعر الخوارج : ٥٢ . والكامل وشرح النهج .

(٥٣١) تساوك : يحك بعض عظامها بعضاً .

(٥٣٢) تعاورها : تداوها . القذاف : رماة السهام .

فإن يك أفناها الحصارُ فرِّمًا
تشحَّطَ فيما بينهنَّ قتيلاً
فقد كذَّنَ مما ان يقذَنَ مِنَ الوجى
لهنَّ بأبوابِ القبابِ صهيلُ (٥٣٣)

وغني عن الشرح ما في هذا الموقف من صلابة، لقد هزلت الخيول ونفدت المؤونة وضافت الحال إلى الحد الذي وصفه الشاعر، والقوم — مع ذلك — صامدون لاتلين لهم قناة، ولا يفكرون بالاستسلام، وهم يعرفون أن الموت ينتظرهم، وقد أتاحت لهم فرصة الحياة والنجاة، ولكنها فرصة ذليلة لم يقبلوها.

من هذا الموقف أريد أن أنبه إلى موقف عام للخوارج، ذكره ولهاوزن المؤرخ الألماني الشهير، في كتابه (الخوارج والشيعة) (٥٣٤). خلاصة هذا الموقف: إن الخوارج منذ بداية ضراعهم العسكري مع الأمويين، أدركوا ووعوا أن المعطيات القائمة من عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية، لا يمكن أن تؤدي بهم إلى النجاح في التغلب على خصمهم وتغليب الحق الذي ينادون

(٥٣٣) الوجى: الإعياء لمرض أو جرح.

(٥٣٤) الخوارج والشيعة: ٣٦ — ٣٧.

به ، ومع ذلك فلا يمكنهم أن يدعنوا لهذا الباطل الذي يُحملون عليه ، أو يقبلوا أن يكونوا رعايا في دولة يعتقدون بكفر أئمتها والقائمين على أمرها ، فاختراروا الحل الثالث عن علم ووعي وإدراك وسابق تصميم ، ذلك الحل هو الموت في سبيل العقيدة ، فهم إذاً يسيرون إلى الموت وهم يعلمون ، وهم الأموات الأحياء ، وإن للموت معهم لشأناً أي شأن . وشعر الخوارج نابع من هذا المنبع الكبير ويتغذى مما ذكرنا من روافد ..

لنستمع إلى هذه النعمة المؤمنة القانعة بواقع الحياة ، وقدر السماء ، يذكر قطري نفسه (٥٣٥) :

أقول لها وقد طارت شعاعاً	من الأبطال : ويحك لن تُراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمُستطاع
سبيل الموت غاية كل حر	فداعيه لأهل الأرض داع
وماللمرء خيراً في حياة	إذا ما عُدَّ من سقيط المتاع

لم يكتفِ الخوارج بالتحلي بالصدق والتمسك بالعقيدة ، بل تعدوا ذلك لمطالبة أصدقائهم وأعدائهم بالأخذ بهذه الأخلاق ، وقد

(٥٣٥) شعر الخوارج : ٤٢ وشرح النهج ١/٤٠٠ .

شهر ذلك عنهم، وتناقله الناس عبر العصور، قال أبو نواس في
الخمرة (٥٣٦) :

فكأنِّي وما أحسنُ منها قَعِدِي يَزِينُ (التحكيم)
كَلَّ عَنْ حَمَلِهِ السِّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ بِ فَاَوْصَى الْمَطِيقَ أَلَّا يُقِيمَا

فهذه شهادة من أبي نواس بشدة تمسكهم (بالتحكيم)
الذي هو أحد أركان مذهبهم، والدعوة إلى (الخروج) وهو أساس
المذهب إلا عند القعدة.

وفي مجال الاستشهاد على حرارة العواطف وصدقها عند
الخوارج، لا أرى أننا بحاجة للتفتيش عن نص بعينه، بل يمكن
تناول ما تقع عليه اليد من أدبهم ليكون الشاهد المنشود، قال
الرهين المرادي (٥٣٧)

يَانْفُسُ قَدْ طَالَ فِي الدُّنْيَا مَرَاوَعَتِي
لَا تَأْمَنَنَّ لَصْرِيفِ الدَّهْرِ تَنْغِيصَا
إِنِّي لِبَائِعُ مَا يَفْنَى لِبَاقِيَّةِ
إِنْ لَمْ يُعْقِنِي رَجَاءُ الْعَيْشِ تَرْيِصَا

(٥٣٦) البيان والتبيين : ٣٤٦ .

(٥٣٧) الكامل للمبرد : ٩٤ . وشعر الخوارج : ٣٢ . وشرح النهج : ٦٠٣/١ .

وأسألُ اللهَ ببيعِ النفسِ محتسباً
 حتى ألاقِيَ في الفردوسِ حرقوصاً (٥٣٨)
 وابنَ المنيعِ ومرداساً وإخوتَهُ
 إذ فارقوا زهرةَ الدنيا مخاميصاً (٥٣٩)
 تخالَّ صفَّهُمُ في كلِّ معتركٍ
 للموتِ سوراً مِنَ البنيانِ مرصوصاً
 وقال مرداس بن أدية في الخروج بعد مقتل عبد الله بن
 وهب الراسبي (٥٤٠):

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى
 ومن خاضَ في تلك الحروب الممالك
 أحبُّ بقاءً أو أرجى سلاماً
 وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكاً
 فيارب سلِّم نيتي وبصيرتي
 وهب لي التقى حتى ألقى أولئك

(٥٣٨) حرقوص بن زهير السعدي.

(٥٣٩) المخاميص: الضامر والبطون.

(٥٤٠) شعر الخوارج: ١٠.

أي صدق يفوق هذا الصدق (٥٤١) :
 ياعينُ بكِّي لمرداسٍ ومَصْرَعِيهِ
 ياربُّ مرداس الحقنسي بمرداس
 تركنسي هائماً أبكسي لمرزأة
 في منزلٍ موحشٍ من بعد إينساس
 أنكرتُ بعدكٍ ممَّن كنتُ أعرفهُ
 ما الناسُ بعدكُ يامرداسُ بالناس (٥٤٢)

وإذا أشرنا أخيراً، إلى أن أسلوب الإنشاء، وما فيه من نداء
 وأمرٍ ونهيٍ وتساؤلٍ، يغلب على شعرهم، فإننا بذلك نقدم دليلاً
 آخر على احتدام عواطفهم وتوقدها، فإكثارهم من هذه الفنون
 الخطابية، يقلل للصيغ الخبرية تدخلها في إفساح المجال لشطحات
 الخيال، والاستغراق في البعد عن الواقع وحقائقه القائمة..

١٠ - الجدة

شعر الخوارج نبتة إسلامية خالصة، لم يعلق به من

(٥٤١) شعر الخوارج: ١٥ والكامل: ٨٨.

(٥٤٢) يروي هذا البيت على الشكل التالي:

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفهُ ما الناسُ بعدك يامرداس بالناس

خصائص الشعر الجاهلي ما يجعله تابعاً له، أو امتداداً لبعض أنواعه، كذلك لم يتأثر بما عاصره من شعر أموي أو عباسي، وهو بذلك يشكل جزيرة منعزلة في بحر الشعر العربي، كيف احتل هذه المنزلة أو كيف تفرد بهذه الصفة؟ الحقيقة أن الخوارج أنفسهم كانوا يعيشون في عزلة تامة عما يحيط بهم العالم، فلهم عالمهم الخاص بهم، ولهم شعرهم المتفرد بما ذكرنا من صفات. فهو من حيث الموضوعات، نخلو من الموروث تماماً، فليس فيه وقوف على الأطلال، ولا تغنُّ بالعصبيات القبلية، ولا تفاخر بالأحساب والأيام، وليس فيه خمر ولا هو ولا صيد ولا وصف للغزوات أو الأسفار، وليس فيه مدح أو هجاء على طريقة سابقهم أو معاصريه.

أ- لقد خلا من كل ما أثر من مضامين الشعر المعروفة، واتجه نحو ذلك الموضوع الواحد، ذلك الجديد، وهو نصره العقيدة والالتزام بالقضية الخارجية.

ب- ربما كان الخوارج أول جماعة عربية تلتزم بأجمعها موضوعاً شعرياً واحداً، لا تحيد عنه، ولا يجيد عنه أحد شعرائها، لقد رأينا في تاريخ الشعر العربي أفراداً يلتزمون موضوعاً واحداً، كالحنساء في الرثاء، وعمر بن أبي ربيعة في الغزل، وأمثالهما، ولكننا لم نر جماعة

أو حزباً سياسياً بأكمله يفعل ذلك غير الخوارج، فشعراء كل الأحزاب، خاضوا في كل موضوعات الشعر المعروفة في أيامهم. لقد كان تجديد الخوارج (من حيث المضمون) يسير في اتجاهين متعاكسين: الأول: تجديد سلبي — إذا صح التعبير — تمثّل بهجرهم لكل مضامين الجاهلية وقيمها، وموضوعات شعرها التي سبق ذكرها، والثاني: توجه إيجابي نحو الالتزام بالموضوع الواحد موضوع العقيدة الخارجية، يدور في فلكها لا يتعداه إلى غيره...

ج — تجديد آخر جاء به الخوارج وتفردوا به، وهو أن شعراءهم هم زعمائهم وقادتهم السياسيون والعسكريون والدينيون، وليسوا نفرأ من المتسولين على أبواب ملوك اليمن والعراق والشام يهيمون في كل واد، ويقولون ما لا يفعلون، وإن كل من أوردنا لهم نصوصاً نستشهد بها، إنما هم زعماء وقادة للخوارج: قطري بن الفجاءة، عمران بن حطان، نافع بن الأزرق، عبيدة بن هلال، وغيرهم...

د — إن الحض على الثورة لتغيير النظام الاجتماعي القائم، والتطاول على ولاة الأمر بالتسفيه والتكفير، إنما هو موضوع جديد في أدب العرب..

هـ — إن نعمة الزهد التي سمعناها منهم كانت أول نعمة من نوعها عند العرب والمسلمين ، لقد جاء التزهد في الإسلام متأخراً ، وجاء التصوف متأخراً ، وكان الزهاد والمتصوفون يمثلون الهروب من الحياة ومسئولياتها ، ويقومون بدور فردي يخدمون فيه ذواتهم للنجاة بأرواحهم هم من العذاب ، أما زهد الخوارج فقد كان — إضافة إلى ظهوره المبكر — إيجابياً ، كان سعياً وراء خير الجماعة وإصلاح المجتمع وخدمة الحياة الدنيا والآخرة ، كان زهداً قوياً ، أو كان زهد القوة ، فالمتعبد المتعبد ، يمتشق السيف ليخوض غمرات الموت في سبيل الوصول إلى حق اعتقد بصحته ، لقد عبر أدباء الخوارج عن زهدهم هذا بالشعر والنثر ، قال أبو حمزة الخارجي في خطبته المشهورة يصف أصحابه^(٥٤٣) : « أنضاء عبادة وأطلاق سهر ، ينظرُ الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرُّ أحدُهُم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرُّ بآية من ذكر النار ، شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت ،

(٥٤٣) البيان والتبيين ١٢١/٢ — ١٢٢ والعقد الفريد ١٤٨/٤ .

والرماح قد أشرعت، والسيوف قد انثضبت، وبرقت الكتيبة،
وزعدت بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى
الشاب منهم قدماً، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه،
وتخضبت بالدماء نحاسين وجهه .

و— لقد ظهر زهدهم في الشعر أكثر من ظهوره في النثر، وكان
في أكثره يمثل ما وصفناه بالزهد الإيجابي (الزهد في سبيل الخير
والمصلحة العامة) حيث تتجلى فعالية الزهاد وقدرتهم، وإقبالهم على
الموت في سبيل الحياة، وتقديعهم القدوة الصالحة، قال عمران بن
حطان في رثاء عروة بن أدية^(٥٤٤) :

لقد زاد الحياة إلسي بغضاً وحباً للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرا العوالي
فمن يك هممة الدنيا فإني لها، والله رب البيت قال

إن زهدهم يدفعهم للموت في المعارك، بينما يموت الزاهدون
في صوامعهم ومعابدهم ..

ويقول عمران بن حطان أيضاً في الزهد الخالص من

(٥٤٤) شعر الخوارج: ١٦ .

الدنيا (٥٤٥) :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها
على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت تُحبُّ فإنها
غمامةٌ صيف عن قليل تُفشعُ
ويقول :

حتى متى تُسقى النفوسُ بكأسها
ربّ المنسُونِ وأنتَ لهُ تَرْتَعُ
أفقدُ رضىً بأن تُعللَ بالمنى
وإلى المنية كل يوم تُدفعُ
أحلامُ نومٍ أو كظلمٌ زائلٍ
إن اللبيبَ بمثلها لا يُخسَدُ
فتزودنَّ ليومٍ فقيرك دائبساً
واجمع لِنَفْسِكَ لِغَيْرِكَ تجمَعُ

«وعمران بن حطان يمثل حقيقة الزهد الخارجى، لأن الصراع في نفسه أقوى منه في نفوس الشعراء الآخرين، ولأن النزعة

(٥٤٥) شعر الخوارج: ١٧.

الإنسانية في شعره ليست تياراً سطحياً، بل هي تيار عميق لا بد
لرؤيته من التغلغل في أعماق نفسه» (٥٤٦).

ومن الزهد المقترن بالإقدام، وطلب الموت بكل شجاعة
دوئماً أسف على الحياة الدنيا، قول الحويرث الراسبي (٥٤٧):
أقول لِنَفْسِي فِي الْخَلَاءِ أَلْوَمُّهَا:

هَبَّتْ دَعِينِي قَدْ مَلَّتْ مِنْ الْعُمُرِ
وَمِنْ عَيْشَةٍ لَا خَيْرَ فِيهَا دَنِيسَةٍ
مَذْمُومَةٌ عِنْدَ الْكِرَامِ ذَوِي الصَّبْرِ
سَارَكُبُ حَوَاءِ الْأُمُورِ لَعَلَّنِي

أَلَا قِي الَّذِي لَأَقِي الْمَحْرَقُ فِي الْقَصْرِ (٥٤٨)

وقال حسان بن جعدة في الزهد (٥٤٩):

بَنَوْا مَقَاصِرَ فِي الدُّنْيَا لِتَخْلَدَهُمْ

فَمَنْ لَهُمْ بِخُلُودٍ فِي الْمَقَاصِيرِ؟

(٥٤٦) مقدمة شعر الخوارج للدكتور إحسان عباس ص / ١٠ / .

(٥٤٧) شعر الخوارج: ٦٠ .

(٥٤٨) حواء: يرى الدكتور إحسان عباس أنها (حوبات) جمع حوة وهي الهم
والحاجة والجهد.

(٥٤٩) شعر الخوارج: ٧٠ .

هياتٍ لن يخلدوا فيها ولو حرصوا
حتى تروع أناساً نفخة الصور
قد كان قبلهم قومٌ فما خلسدوا
وأصبحوا يسنّ مقتولٍ ومقبسور

إن ما أوردنا من شواهد شعرية في تضاعيف هذه الدراسة،
وكثيراً مما لم نورد، يلح على فكرة (الموت)، فالخوارج يطلبون
الموت بشكل مختلف عما عرفنا عند غيرهم، مختلف في الدافع،
وفي الأسلوب، إنهم يكثرون من طلبه، ويرون فيه الحل لكل
مشكلاتهم الدنيوية والدينية. إنهم يسارعون إلى الموت، لا هرباً من
مسؤوليات الحياة وتبعاتها، فهم أقوياء قادرين على تحمل كل المشاق
الدنيوية، لا ينهزمون أمامها، فهم يطلبون الموت لأنهم وجدوا فيه
تحقيقاً لجملة من الأهداف:

١ — يحقق لهم الانتصار على ما يتهددهم من حياة الذل،
والقبول بما لا يطيقون مما يحاول الحكام فرضه عليهم إذا
ظفروا بهم.

٢ — يحقق لهم إيجاد بديل رائع عن النصر المستحيل الذي

يسعون إليه ويقتنعون باستحائته ، فلا بد أن يتوج بالموت
الذي هو أعلى درجات الانتصار .
٣ — يحقق لهم اختصار الطريق إلى الله .

فطعم الموت مختلف عندهم تماماً . يرى الدكتور إحسان
عباس^(٥٥٠) ان الموت يحقق للخوارج اللحاق بالله، واللحاق
بالإخوان ، وأنه هو الدين الحقيقي عندهم ، ويرى كذلك أن
الشاعر الخارجي في صراع مع الزمن ، وسبيله للانتصار عليه هو
الموت ، وهذا الرأي يصيب صلب الحقيقة بالنسبة لموقف الخوارج
من الموت ، إذ يؤكد أن (غاية الموت) هي التي تكيف الحياة عند
الخوارج وتوجه الشعر والأدب بعامة .

وتظهر في تطلعهم النوعي إلى الموت نغمة أخرى هي نغمة
تأنيب النفس ولومها ، على التقصير بالواجبات والتفريط بحق
الإخوان ، وقد أشار إلى هذا التلوم النفسي الدكتور إحسان عباس
في مقدمة شعر الخوارج^(٥٥١) ، ويظهر ذلك التلوم في كثير من
أشعارهم حسرةً وندماً وتبرماً بطول العمر وتأخر الأجل :

(٥٥٠) مقدمة شعر الخوارج ص ٧ .

(٥٥١) مقدمة شعر الخوارج : ٧ .

أقول لنفسي في الخلاء ألومها:

هبلت دعيني قد مللت من العمر

ومقال أحد شعرائهم^(٥٥٢) :

ولقد مضوا وأنا الحبيب إليهم وهم لدي أحبة أبرار
قدر يخلفني ويمضيهنم به يالهف كيف يفوتني المقدار

وقال آخر^(٥٥٣) :

إخوان صدق أرجيهم وأخذلهم
أشكو إلى الله خذلاني لأنصاري

وهذا زياد الأعسم يستبطن الموت^(٥٥٤) :

أقيم على الدنيا كما أرى
زوالاً لها أو أحسب العيش باقياً

وكذلك قطري بن الفجاءة^(٥٥٥) :

(٥٥٢) شعر الخوارج: ١١٦.

(٥٥٣) شعر الخوارج: ٧٨.

(٥٥٤) شعر الخوارج: ٦٦.

(٥٥٥) شعر الخوارج: ٤٣.

إلى كم تغاريني السيوف ولا أرى
مغاراتها تدعو إليّ حمامياً (٥٥٦)

أقارعُ عن دارِ الخلودِ ولا أرى
بقاءً على حالٍ لمن ليس باقياً
ولو قرَّبَ الموتُ القراعُ لقد أنى
لموتي أن يدنو لطولِ قراعي

ويعجب حيطان الأعسر من تجاهل الموت له، على الرغم
من تعرضه وتصديه له (٥٥٧):

بليثٌ وأبلاني الجهادُ وساقني
إلى الموتِ إخوانٌ لنا وأقاربُ
شريتُ فلم أقتلُ، ونازلت ولم أصبُ
كذاك صروفُ الدهرِ فينا عجائبُ

وبعد هذا الاستطراد غير البعيد عن الموضوع، نعود
لنرصد بعض جوانب التجديد الأخرى في المضمون الشعري عند
الخوارج.

(٥٥٦) تغاريني: تلاحقني وتلح في طلبي.

(٥٥٧) شعر الخوارج: ٥٦.

ز — في مجال ابتكار المعاني الشعرية واختراعها، فعلى الرغم من أنهم غير معنيين بمحاولات الابتكار والغوص على المعاني، فقد أصابوا بعض هذه المعاني الشعرية المشهورة والخالدة، وذهبوا بفضل السبق في ابتداعها، ثم تداووا الشعراء من بعدهم، فغيروا وبدلوا وتصرفوا ماشاءت لهم أهواؤهم، من غير أن يشير النقد العربي القديم أو الحديث، أو تاريخ الأدب إلى شيء من هذا، بل تجاهله كما تجاهل كل الجوانب الإيجابية عند الخوارج؛ وليس لنا في عجالة كهذه أن نخوض في موضوع طويل وشائك كهذا الموضوع، فهو يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها، ولكن من المطلوب تأكيد هذه الحقيقة ببعض الأمثلة، لقد ذكرنا معنى (فناء الموت) الذي ذكره عمران بن حطان في قوله (٥٥٨):

لا يعجزُ الموتُ شيءٌ دونَ خالقِهِ

والموتُ فإنِ إذا ما نالَهُ الأجلُ

فالمتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس يقول (٥٥٩):

تسمرُستُ بالآفاتِ حتَّى تركتُها

تقول: أمات الموت، أم ذعير الدُغسر؟

(٥٥٨) شعر الخوارج: ٢٨.

(٥٥٩) ديوان المتنبي ٢٥٣/٢.

وهناك المعنى الشعري الرائع (وصلُ السِّلَاحُ بِالْحُطَا)،
لقد أعجب القدماء كثيراً بهذا المعنى، جاء في ديوان المعاني لأبي
هلال العسكري^(٥٦٠) «رأى بعض العرب سيفاً فقال: ما أجوده
لولا قصر فيه، فقال صاحبه: نصله بخطوة، فقال الرجل: تلك
الخطوة أشد من مشيتي إلى الصين».

وعمران بن حطان هو القائل في هذا المعنى^(٥٦١):
إذا قصرْتُ أسيافنا كانَ وصلُّها

حُطَانِنا إلى أعدائِننا فنضاربُ

لقد كان عمران من غير شك من المبكرين في تناول هذا
المعنى، ثم تبعه الكثيرون في تناوله، فمن القدماء أبو تمام إذ
يقول^(٥٦٢):

خطوُ ترى الصارمَ الهنديَّ منتصراً

به من المارنِ الخطيِّ منتصفاً

ومن المحدثين بدوي الجبل في قوله^(٥٦٣):

(٥٦٠) من ديوان المعاني ١/١٥٨.

(٥٦١) شعر الخوارج: ٢٦.

(٥٦٢) ديوان أبي تمام ٢/٣٦٨. ومن ديوان المعاني ١/١٥٩.

(٥٦٣) ديوان بدوي الجبل: ١١٥.

إِذَا انْقَصَفَتْ أَسْنَتُنَا وَصَلْنَا بِأَيْدِينَا الْأَيْسَّةَ وَالصَّفَاخَا

ح— ومن جديد الخوارج، ذلك الالتزام الصارم الذي أخذ شعراؤهم به أنفسهم، مما لم يكن لغيرهم من شعراء الإسلام، ولا شعراء الجاهلية من قبله، فعلى صعيد الأحزاب السياسية الإسلامية، لم يلتزم كل شعراء الحزب بكل مبادئه، وعلى صعيد القبيلة لم يأخذ كل شعرائها أنفسهم بالدفاع عن قيمها ومصالحها وما يتعلق بها، بل خاضوا بكل الفنون الشعرية الأخرى، وكانوا في سباق مع غيرهم من شعراء القبائل، حتى لقد خرج بعض شعراء القبيلة عن كل ما تعده أساس قوتها وسمعتها وشرفها، والصعاليك هم أولئك الشعراء المعنيون. وكذلك فقد تعدى شعراء الأحزاب الإسلامية الأخرى موضوع عقيدة الحزب ومبادئه، إلى كثير من الأغراض المباشرة لما هو مطلوب منهم كشعراء ملتزمين بقضايا حزبهم ومنطلقاته النظرية، وصلت في كثير من الأحيان إلى مدح أعداء حزبهم.

وإذا عدنا إلى شعراء الإسلام الأوائل أنفسهم، كحسان وكعب والحطيئة وأمثالهم، وجدنا أن دواوينهم ليست كلها دفاعاً عن الإسلام، فهم لم يندروا كل أشعارهم لوجه الدين الجديد، بل

كانت قلوبهم تخفق بكثير من ذكريات الجاهلية ومغرباتها، حتى
لكأنهم يبديون وقد أكرهوا على بعض ما قالوه دفاعاً عن الإسلام،
وإن المخضرمين منهم كانوا في جاهليتهم أشعر منهم في إسلامهم.

طـ فاذا تجاوزنا مضمون شعر الخوارج وما رأينا فيه من جديد،
إلى الشكل الفني لهذا الشعر، وجدنا أن تجديدهم فيه كان ثورة
على القصيدة القديمة: فهيكلك قصيدتهم، وترتيب أبوابها، وبناء
أفكارها، لم يعد يسير على العمود القديم، بل خرج شعراؤهم على
بناء القصيدة الجاهلية فلم يقدموا لأغراضهم بالوقوف على الأطلال
أو النسيب، أو وصف الراحلة والطريق، بل هجروا كل ذلك،
وباشروا غرضهم دون مقدمات من أي نوع.

يـ لقد نبذ شعراء الخوارج أساليب الجاهليين الخشنة،
وتعايرهم الجافية التي لا تروق السمع، وجاؤوا بالرفيق السهل
الواضح، فكان شعرهم مستحباً قريباً إلى النفوس في معانيه
وألفاظه.

كـ وشعر الخوارج مقطوعات قصيرة لا معلقات طويلة تتحقق
في هذه المقطوعات القصيرة، الوحدة الفنية إلى حد بعيد،

فالصور متشابهة ، والنغمة الحماسية واللهجة الخطابية ، تسودان القصيدة كلها .

لـ ... والقصيدة الخارجية ذات موضوع واحد، وليس فيها تعدد للموضوعات ، كما هي الحال في القصيدة الجاهلية .

مـ ... وأختم ببعض الأقوال القيمة للأستاذ أحمد الشايب في تجديد شعراء الخوارج يقول^(٥٦٤) : «إنه شعر جديد في موضوعه ، جديد في معانيه ، جديد في غاياته ، جديد في خلق رجاله وعواطفهم القوية المهدبة الرقيقة ، هذه الجودة أبعده عن تقليد القدامى أو المعاصرين في الديباجة الغزلية والتخييل وتعدد الفنون في القصيدة الواحدة ، الموضوع واحد، والمعاني من واد واحد والصور متشابهة حماسية ، لم يفرغوا للصنعة والافتتان ، وليس لديهم قصائد طويلة إلا قصيدة لعمر بن الحصين في يوم قديد ، وأخرى في رثاء أبي حمزة الخارجي ، وعبد الله يحيى طالب الحق ، وكلتاها في صميم المذهب الخارجي» وقال في معرض المقارنة بين شعرائهم والفحول من شعراء غيرهم^(٥٦٥) : «الخوارج مهذبون ثقافة ورعون

(٥٦٤) تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب ص ١٧١ .

(٥٦٥) تاريخ الشعر السياسي / ١٨١ - ١٨٤ .

جمهوريون مجددون ، يحتقرون المال والحياة ، ذوو مثل عالية أساسها الروح الإسلامي ، يفنون في سبيله ، ويشورون على النظام الخارج على الدين ، أما الفحول فيشورون على النظام الإسلامي ، ويتحللون من الشعائر الدينية ، وينزعون إلى الحرية البدوية ، رافعين عقائدهم بكل الشهوات والنزعات الاجتماعية ، والأحقاد العصبية .

١١ - وحدة الموضوع

شعر الخوارج يدور في فلك واحد ، ويأتي برمته تحت عنوان واحد ، والكلام في هذا الموضوع كلام معاد ، فقد مر في تضاعيف هذه الدراسة ما يؤكد هذه الحقيقة ، وكل حديث عنها لا يعدو أن يكون تكراراً لما قلناه في فقرات سابقة ، وربما كان ذلك من طبيعة الموضوع ، فإن تشابه شعر الخوارج يجعل الحديث عن مختلف جوانبه وخواصه حديثاً متشابهاً .

إن شعرهم ينصب في بوتقة واحدة هي بوتقة عقيدتهم ، لا يخرج عنها ولا يتعد عن مدارها في قليل أو كثير ، ولا عجب في ذلك ، فالغايات واحدة ، والدوافع واحدة ، والثقافة التي يصدر عنها واحدة ، وحتى في الموضوعات التي لا يخطر على بال أحد أنها تمت للعقيدة بصلة ، كالغزل والفخر والرثاء والهجاء ، فإنها لا تختلف عن

غيرها، إنها من صلب العقيدة الخارجية تحمل روحها ومبادئها
وثورتها، دفاع عن العقيدة، ودفع لخصومها، واعتزاز بها ومباهاة
بالجهاد والموت في سبيلها، وتسفيه للأنظمة القائمة، وتقديم
البرهان على لا شرعيتها.

لقد هجروا كل الموضوعات القديمة، ونبدوا الأغراض
الدينيوية: من مدح وعصبيات ومجون، فليس لديهم مجالس هو
وقيان، بل نمط شعري إسلامي خارجي قلباً وقالباً، مضاف إليه
بعض الحكم العامة، والمعاني الإنسانية الخالدة.

وفي خاتمة شعر الخوارج وما ذكرنا له من صفات، نرى أن
ندون أطول قصيدتين عثرنا عليهما في ذلك الشعر، وقد سبق
وأشرنا إلى أن شعرهم كان مقطوعات لامطولات، هاتان
القصيدتان للشاعر عمرو بن الحصين العنبري، الأولى رثاء للزعيم
الخارجي أبي حمزة وغيره من الشراة، أخذناها من الأغاني^(٥٦٦)
وشرح النهج^(٥٦٧) وشعر الخوارج^(٥٦٨). والثانية لنفس الشاعر

(٥٦٦) الأغاني ٢٠/١١١.

(٥٦٧) شرح النهج ١/٤٦١ وطبعة دار الفكر ١/٦١٧.

(٥٦٨) شعر الخوارج: ٨٤.

يذكر فيها معركة قديد وأمر مكة أخذناها من الأغاني^(٥٦٩) وشعر
الخوارج^(٥٧٠).

ولابد من بعض الاختلافات بين رواية وأخرى في المراجع
السابقة الذكر.

القصيدة الأولى لعمر بن الحصين أوردها شارح نهج
البلاغة، وقال عنها: «إنها من مختار شعر العرب» تمثل جملة من
صفات شعرهم وصفات رجالهم:

هَبَّتْ قُبَيْلٌ تَبْلُجُ الْفَجْرِ	هَنْدٌ تَقُولُ وَدَمْعُهَا يَجْرِي
إِذْ أَبْصَرْتُ عَيْنِي مَدَامِعَهَا	يَنْهَلُ وَاكْفُهَا عَلَى النَّحْرِ
أَنْتَى اعْتَرَاكَ وَكُنْتَ عَهْدِي لَا	سَرَبَ الدَّمْعِ، وَكُنْتَ ذَا صَبْرِ
أَقْدَى بَعِينِكَ مَا يَفَارِقُهَا	أَمْ عَائِرٌ أَمْ مَالَهَا تَذْرِي؟ ^(٥٧١)
أَمْ ذَكَرٌ إِخْوَانٍ فَجَعَتْ بِهِم	سَلَكُوا سَبِيلَهُمْ عَلَى نَخْبِر؟
فَأَجَبْتُهَا: بَلْ ذَكَرٌ مَصْرِعِهِمْ	لَا غَيْسَرُهُ عَبْرَاتُهَا تُمْرِي
يَارِبِّ أَسْلِكُنِي سَبِيلَهُمْ	ذَا الْعَرْشِ وَاشْدُدْ بِالثَّقَى أَرْزِي

(٥٦٩) الأغاني ٢٠/١٢٠.

(٥٧٠) شعر الخوارج: ٨٨.

(٥٧١) العائر: الذي في عينه عوار أي قذى، كل ما أوجع العين وآذاها.

في فِتْيَةٍ صَبَرُوا نَفُوسَهُمْ
 تَاللَّهِ أَلْقَى الدَّهْرَ مِثْلَهُمْ
 أَوْفَى بَدْمَتِهِمْ إِذَا عَقَدُوا
 مَتَاهِبُونَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ
 صُمْتُ إِذَا حَضَرُوا مَجَالِسَهُمْ
 إِلَّا تَجِيبُهُمْ فَإِنَّهُمْ
 مَتَاهِبُونَ كَأَنَّ جَمْرَ غَضَاً
 تَلْقَاهُمْ إِلَّا كَانَتْهُمْ
 فَهْمٌ كَأَنَّ بِهِمْ جَوَى مَرَضٍ
 لَا لَيْلُهُمْ لَيْلٌ فَيَلْبَسُهُمْ
 إِلَّا كَرِيٌّ خَلْساً وَأَوْنَسَةً
 كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ قَدْ فُجِعَتْ بِهِ
 مَتَاهِباً يَتَلَسُّو قَوَارِعَ مِنْ
 نَصَبٍ تَجِيئُ بِنَاتٍ مُهَجَّتِهِ
 ظَمَانٌ وَقِدَّةٌ كَسَلٌ هَاجِرَةٌ
 تَرَكَ مَا تَهْوَى النُّفُوسُ إِذَا

للمشرفية والقنا السمر
 حتى أكون رهينة القبر
 وأعف عند العسر واليسر
 ناهون من لا قوا عن التكر
 من غير ماعى بهم يزري
 رجف القلوب بحضرة الذكر
 للموت بين ضلوعهم يسري
 لحشوعهم صدروا عن الحشر
 أو مسهم طرف من السحر
 فيه غواشي النوم بالسكر
 حذر العقاب فهم على دغر
 قوام ليته إلى الفجر
 آي الكتاب مفرح الصدر^(٥٧٢)
 م الخوف جيش مشاشة القدر^(٥٧٣)
 تراك لذتسه على قدر
 رغب النفوس دعا إلى المزري

(٥٧٢) مفرح الصدر: مثقل الصدر كالذي عليه هم من دين.

(٥٧٣) نصب: متعب أو مريض، مشاشة القدر: جوقها.

ومبراً من كل سيئة
 والمصطلي بالحرب يسعها
 يجتاحها بأقل ذي شطط
 لا شيء يلقاه أسراً له
 نجلاء منيرة تبيض بما
 كخيلك المختار أرك به
 خواض غمرة كل متلفة
 تراك ذي النخوات مختضباً
 وابن الحصين وهل له شبة
 بشهامية لم تحن أضلعه
 طلق اللسان بكل محكمة
 لم ينفكك في جوفه حزن
 ترقى وآونة يخفضها
 ومخالطي بلج ومخالصتي

عف الهوى ذا مرة شزير
 بغبارها في فية سغير
 عضب المضارب قاطع البتر
 من طعنة في ثغرة النحس
 كانت عواصي حوفه تجري (٥٧٤)
 من معتد في اللهو مسري (٥٧٥)
 في الله تحت العثير الكدر
 بنجيعه بالطعنة الشزير
 في العرف أتى كان والنكير (٥٧٦)
 لذوي أخوته على غابر
 زاب صدع العظيم ذي الكسر
 تغلي حرارته وتشتري
 بتنفس الصعداء والزفير
 سم العدو وجابر الكسر (٥٧٧)

(٥٧٤) منيرة: واسعة.

(٥٧٥) هو أبو حمزة بن عوف الأزدي من أهل البصرة.

(٥٧٦) هو علي بن حصين العبدي.

(٥٧٧) مخالطي: صديقي. مخالصتي: من استخلصته من الأصدقاء. بلج بن

عقبة: أحد قواد أبي حمزة، قتل بوادي القرى.

نكلُ الخصوم إذا هم شغبوا
 والخائض العمرات يخطر في
 بمشطب أو غير ذي شطب
 وأخيك أبرهة الهجان أخى الـ
 بمرشاة فرغ تئج دماً
 والضارب الأحدود ليس لها
 وولي حكيمهم فجعت به
 قوال محكمية وذو فهم
 ومسيب فاذكر وصيته
 فكلاهما قد كان محتسباً
 في محبتين ولم أسمهم
 وهم مساعر في الوغي رجع
 حتى وقوا لله حيث لقوا
 فتحالسا مهجات أنفسهم

وسداد ثلثة عورة الثغر (٥٧٨)
 وسط الأعدى أيما خطر
 هام العدى بذبابه يفري
 حرب العوان وموقد الجمر (٥٧٩)
 تئج الغوي سلاقة الخمر (٥٨٠)
 أحد يئنهنها عن السحر (٥٨١)
 عمرو فواكدي على عمرو
 عف الهوى متببت الأمر
 لا تنس إما كنت ذا ذكر
 لله ذا تقسوى. وذا بر
 كانوا يدي وهم أولو نصري
 وخيار من يمشي على العفر
 بعهود لا كذب ولا غدر
 وعداتهم بقسواضب بسر

(٥٧٨) نكل الخصوم: ياكلون عنه ويحيدون عن طريقه.

(٥٧٩) أبرهة بن الصباح، قتل بالأبطح.

(٥٨٠) المرشاة: الطعنة ترش دماً، فرغ: واسعة، تئج: تصب.

(٥٨١) الأحدود: الضربة التي تحدد، السحر: الرثة.

وَأَسْنِيَّةٌ أُثْبِتْنَ فِي لُدُنٍ خَطِيئَةٍ بِأَكْفِهِمْ زُهْرٍ
 تَحْتَ الْعَجَاجِ وَفَوْقَهُمْ خَرَقٌ يَخْفَقْنَ مِنْ سَوْدٍ وَمِنْ حُمْرٍ
 فَتَوَقَّضَتْ نِيرَانُ حَرْبِهِمْ مَا بَيْنَ أَعْلَى الْبَيْتِ وَالْحَجَرِ
 وَتَفَرَّجَتْ عَنْهُمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يُغْمَضُوا عَيْنًا عَلَى وَتِرٍ
 صَرَغَى فِخَاوِيَّةٌ بِيوْثُهُمْ وَخَوَامِعٌ بِجَسْمِهِمْ تَفْرِي (٥٨٢)

القصيدة الثانية لعمرو بن الحصين العنبري يذكر فيها وقعة

قديد وأمر مكة:

مَا بَسَالَ هَمِّكَ لَيْسَ عَنكَ بِعَازِبٍ
 يَمْرِي سَوَابِقَ دَمْعِكَ الْمُتَسَاكِبِ
 وَتَبِيْتُ تَكْتَلِيءُ النُّجُومِ بِمُقْلَةٍ
 غَبْرِي تَسْرُ بِكَسَلٍ نَجْمٍ دَائِبِ
 حَذَرَ الْمَنِيَةِ أَنْ تَجِيءَ بِدَاهِيَةٍ
 لَمْ أَقْضِ مِنْ تَبَسُّعِ الشُّرَاةِ مَا رَبِي
 فَأَقْوَدَ فِيهِمْ لِلْعَدَى شَنْجَ النَّسَا
 عِبِلَ الشَّوَى أَشْرَانَ ضَمْرَ الْحَالِبِ (٥٨٣)

(٥٨٢) الخوامع: الضباغ.

(٥٨٣) شنج النساء: منقبض العرق، يعني أنه غير مترهل. عبل الشوى: ممثليء الأطراف. أشران: شديد المراح. ضمير: ضامر.

متحدثراً كالسيد أخلص لونه
 ماء الحسيك مع الجلال اللاتب (٥٨٤)
 أرمي به من جمع قومي معشراً
 بوراً أولي جبرية ومعايب (٥٨٥)
 في فتية صبر ألفهم به
 لف القداح يد المفيض الضارب (٥٨٦)
 فدور نحن وهم وفيما بيننا
 كأس المنون تقول: هل من شارب؟
 لنظّل نسقيهم ونشرب من قنا
 سمر ومرهفة السنصول قواضب
 بينا كذلك نحن جالت طعنة
 نجلاء بين رهائب وتسرائب (٥٨٧)
 جوفاء منهرة مري تأمورها
 ظبتنا سنان كالشهاب الشاقب (٥٨٨)

(٥٨٤) الجلال: الجبل الذي يغطي ظهر الفرس. السيد: الدتب. اللاتب: اللاصق.

(٥٨٥) بور: لاخير فيهم. أولي جبرية: أي جبارون ظالمون.

(٥٨٦) القداح: سهام الميسر، المبيض: الذي يرمي بها.

(٥٨٧) الرهائب: عظام مشرفة على البطن. الترائب: أعالي الصدر.

(٥٨٨) منهرة: واسعة. مري: استدر. التامور: الدم.

أهوي لها شق الشمال كأنسي
 حفص لقي تحت العجاج العاصب (٥٨٩)
 يارب أوجبها ولا تتعلقن
 نفسي المنون لدى أكف قرائب (٥٩٠)
 كم من أولي مقية صحبتهم شروا
 فخذلثهم ولبس فعل الصاحب
 متأوهين كأن في أجوافهم
 ناراً تسعرها أكف حواطب
 تلقاهم فتراهم من راكع
 أو ساجد متضرع أو ناحب
 يتلوه قوارع تمسري عبراتهم
 فيجودها مري المري الحالب (٥٩١)
 سير الجائفة الأمور أطبئة
 للصدع ذي النبا الجليل مراتب (٥٩٢)

(٥٨٩) الحفص: قاع البيت. اللقي: الشيء المهمل. العاصب: المنعقد.

(٥٩٠) أوجبها: جعلها واجباً وحقاً.

(٥٩١) تمسري: تستدر. المري: الناقة الكثيرة اللبن.

(٥٩٢) سير: يسرون غور الأمور. الجائفة: ما يبلغ الجوف من طعنة وغيرها.

مراتب: أي يرأبون الصدع.

وَمُبْرئينَ مِنَ الْمَعَايِبِ أَخْرَجُوا
 حَصَلَ الْمَكَارِمِ اتَّقِيَاءَ أَطْيَابِ
 عَرَوْا صَوَارِمَ لِلْجِلَادِ وَيَسَاشَرُوا
 حَدَّ الظُّبَاةِ بِأَنْفِ وَحَوَاجِبِ
 نَاطُوا أُمُورَهُمْ بِأَمْرِ آخِرٍ لَهُمْ
 قَرَمَى بِهِمْ قَحَمَ الطَّرِيقِ اللَّاحِبِ (٥٩٣)
 مَتَسَرَّبَى حَلَقَ الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ
 أُسَدٌ عَلَى لِحَى الْبَطُونِ سَلَاهِبِ (٥٩٤)
 قِيدَتْ مِنْ أَعْلَى حَضْرَمَوْتَ فَلَمْ تَزَلْ
 تَنْفِي عِدَاهَا جَانِباً عَنْ جَانِبِ
 تَحْمِي أَعْتَنَهَا وَتَحْوِي نَهَبَهَا.
 لِلَّهِ أَكْرَمُ فَتِيَةٍ وَأَشْيَابِ
 حَتَّى وَرَدْنَ حِيَاضَ مَكَّةَ قَطْبِيّاً
 يَحْكِيْنَ وَارِدَةَ الْعِمَامِ الْقَارِبِ (٥٩٥)

(٥٩٣) ركب قحمة الطريق: أي مما صعب منها على السالك. اللأحب: الواضح.

(٥٩٤) لحق البطون: ضمرت حتى لحقت بطونها بظهورها، سلاهب: جمع سلهبة

وهي الفرس الطويلة.

(٥٩٥) قطبياً: مجتمعات. القارب: الذي يطلب الماء.

ما إن أئبِنَ على أخِي جَبْرِئِيَّةِ
إِلَّا تَرَكْنَهُمْ كَأَمْسِ السِّدَاهِبِ
فِي كُلِّ مَعْتَرِكٍ لَهَا مِنْ هَامِهِمْ
فَلَقَّ وَأَيْدٍ عُلِّقَتْ بِمَنَاكِبِ
سَائِلٍ يَسْأَلُ قَدِيدَ عَن وَقَعَاتِهَا
تُخْبِرُكَ عَن وَقَعَاتِهَا بِعَجَائِبِ

لقد أثبتنا هاتين القصيدتين لتفردهما بالطول ، بالنسبة لشعر الخوارج ، فلم نقف لهم على قصيدة أخرى تتجاوز ستة عشر بيتاً ، إلا قصيدة « الفارعة » في رثاء أخيها الوليد بن طريف الذي خرج على العرشيد ، فأرسل إليه القائد يزيد بن يزيد الشيباني فقتله سنة ١٧٩ هـ في الجزيرة السورية .

بلغت القصيدة ثمانية عشر بيتاً وهي (٥٩٦)

بِئْسَ نُهَاكِي رَسْمُ قَبْرِ كَأَنَّهُ
عَلَى جَبَلٍ فَوْقَ الْجَبَالِ مُنِيفِ

(٥٩٦) البيان والتبيين: ٣٤٢ . وشرح نهج البلاغة ١/٥٩١ ، وضحي الإسلام
٣٤٦/٣ .

تَضَمَّنَ مَجْدًا عُدًّا مُلَيًّا وَسُودَدًا
وهِمَّةً مَقْدَامٍ وَرَأْيَ حَصِيفِ (٥٩٧)
فِيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مَوْرِقَسًا
كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ
فَتَى لَا يُحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ التُّقَى
وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَا وَسِيُوفِ
وَلَا الذَّخَرَ إِلَّا كُلَّ جِرْدَاءٍ صَلِيمِ
مُعَاوِدَةٍ لِلْكَرِّ بَيْنَ صُفُوفِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ هُنَاكَ وَلَمْ تَقُمْ
مَقَامًا عَلَى الْأَعْدَاءِ غَيْرَ خَفِيفِ
وَلَمْ تَسْتَلِمْ يَوْمًا لِيُورِدِ كَرِيهَةَ
بَيْنَ السَّرْدِ فِي خَضْرَاءِ ذَاتِ رَفِيفِ (٥٩٨)
وَلَمْ تَسْعَ يَوْمَ الْحَرْبِ وَالْحَرْبُ لَاقِحٌ
وَسُمُرُ الْقَنَا يَنْكُرُنَهَا بِأُسُوفِ (٥٩٩)

(٥٩٧) عُدًّا: قديمًا، ضخمًا.

(٥٩٨) السرد: اسم جامع للدروع.

(٥٩٩) ينكر: يظعن بالريح أو بما هو حاد الرأس.

حَلِيفُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضَى بِهِ النَّدَى
 فَإِنْ مَاتَ لَا يَرْضَى النَّدَى بِحَلِيفِ
 فَقَدْ نَاكَ فِقْدَانُ الشَّبَابِ وَلَيْتَنَا
 فَدَيْنَاكَ مِنْ فِتْيَانِنَا بِأَلْسُوفِ
 وَمَا زَالَ حَتَّى أَزْهَقَ الْمَوْتُ نَفْسَهُ
 شَجَسًا لِعَسْدُوٍّ أَوْ لَجَأَ لِضَعِيفِ
 أَلَا يَا قَوْمِي لِلنَّسَوَائِبِ وَالسَّرْدَى
 وَلِلأَرْضِ هَمٌّ بَعْدَهُ بِرَجَسُوفِ
 أَلَا يَا قَوْمِي لِلنَّسَوَائِبِ وَالسَّرْدَى
 وَدَهْرٍ مُلْحٌ بِالْكِسْرَامِ عَنِيفِ
 وَلِلْبَدْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَوَاكِبِ إِذْ هَوَى
 وَلِلشَّمْسِ لَمَّا أَرْمَعَتْ بِكُسُوفِ
 وَلِللَّيْلِ كَلَّ اللَّيْلِ إِذْ يَحْمَلُونَهُ
 إِلَى حُفْرَةِ مَلْحُودَةٍ وَسَقِيفِ
 أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْجُشَا حَيْثُ أَضْمَرْتُ
 فَتَى كَانَ لِلْمَعْرُوفِ غَيْرَ عَيُْوفِ (٦٠٠)

(٦٠٠) الجشا والجشى: جمع جنوة وهي القبر.

فإن يك أرداهُ يزيدُ بنُ مزيدٍ
فربُّ زحوفٍ لَّفَهَا بزحوفٍ
عَلَيْهِ سَلامُ اللَّهِ وَقُفْأاً فَإِنِّي
أرى الموتَ وَقَاعاً بِكُلِّ شريفٍ
ثم تأتي مطولاتُ الطرمّاح، وهي كثيرة، تتجاوز بعضها مئة
البيت، ولنا مع الطرمّاح شأن خاص فيما يتعلق بخارجيته وشعره،
وذلك في كتاب مستقل يصدر بعد هذا الكتاب بعون الله.

المراجع

- الإباضية في موكب التاريخ
علي معمر — دار الثقافة —
بيروت ١٩٦١ .
- أدباء العرب :
بطرس البستاني — دار صادر —
بيروت ١٩٦٢ .
الدكتورة سهير القلماوي .
- أدب الخوارج في العصر
الأموي :
— أدب السياسة في العصر
الأموي :
— أساس البلاغة :
— إسلام بلا مذاهب :
— الأسلوب :
— أسماء المغتالين من الأشراف في
الجاهلية والإسلام :
- الدكتور أحمد محمد الحوفي .
الزمخشري .
الدكتور مصطفى الشكعة .
أحمد الشايب .
تحقيق عبد السلام هارون .

- أعيان الشيعة :
— الأغاني :
— الإمام علي بن أبي طالب
- الأمالي :
— أنساب الأشراف
— أهم الفرق الإسلامية
- بغية الوعاة
— البيان والتبيين
- تاج العروس في شرح جواهر
القاموس :
— تاريخ الأدب العربي
- تاريخ الأدب العربي
— تاريخ الأدب العربي
— تاريخ آداب اللغة العربية
- محسن الأمين .
أبو الفرج الأصفهاني .
عبد الفتاح عبد المقصود — دار
الفرقان — بيروت .
أبو علي القالي .
البلاذري .
الدكتور السبير نصري نادر —
المطبعة الكاثوليكية — بيروت .
السيوطي .
أبو عثمان الجاحظ — تحقيق عبد
السلام هارون — مكتبة الخانجي
بمصر ١٩٦٠ .
الزبيدي .
كارل بركلمان — ترجمة عبد الحلیم
النجار .
الدكتور شوقي ضيف .
الدكتور عمر فروخ .
جرجسي زيدان — دار مكتبة
الحياة — بيروت .

- تاريخ الأمم والملوك . الطبري .
- تاريخ الجزائر العام . الجيلالي .
- تاريخ الحضارة العامة . مجموعة صدرت بإشراف كروزيه — ترجمة داغس — منشورات عويدات — بيروت .
- تاريخ الخلفاء . السيوطي — تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد .
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . الدكتور حسن ابراهيم حسن — مطبعة النهضة المصرية .
- تاريخ الشعر السياسي . أحمد الشايب — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٢ .
- تاريخ الشعر العربي . الدكتور عمر فروخ .
- تاريخ الشعر العربي . الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي .
- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي : الدكتور علي حسن الخربوطلي .
- تاريخ العرب والإسلام . د . سهيل زكار — دار الفكر .
- تاريخ الفكر العربي . الدكتور عمر فروخ .
- تاريخ الفلسفة الإسلامية في القارة الإفريقية : الدكتور يحيى هويدي .

- تعريف القدماء بأبي العلاء
الدار القومية للطباعة والنشر —
القاهرة ١٩٦٥ .
- جمهرة النسب
ابن الكلبي — تحقيق محمود
فردوس العظم .
- حديث الأربعماء
الدكتور طه حسين .
- الحركات الباطنية في الإسلام
مصطفى غالب — دار الكتاب
العربي .
- حرب الجمل وحروب صفين
السيد محسن الأمين — دار الفكر
للجميع .
- الحياة الأدبية في البصرة إلى
نهاية القرن الثاني
الجامعة .
- حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية
القرن الثاني للهجرة
الدكتور يوسف خليف — وزارة
الثقافة المصرية : ١٩٦٨ .
- الحياة العربية في الشعر
الجاهلي :
الدكتور أحمد محمد الحوفي .
- الحيوان :
أبو عثمان الجاحظ .
- خزائن الأدب :
البغداددي .

- الخوارج في العصر الأموي
 — الخوارج والشيعة
 — الخوارج في الإسلام
 — دراسة في مصادر الأدب
 — الدولة العربية وسقوطها
 — ديوان أبي تمام
 — ديوان البحتري
 — ديوان السيد الحميري
 — ديوان صريع الغواني
 — ديوان الطرماح
 — ديوان الفرزدق
- الدكتور نايف محمود معروف —
 دار الطليعة بيروت .
 يوليوس فلهوزن — ترجمة الدكتور
 عبد الرحمن بدوي .
 عمر أبو السنصر — بيروت
 . ١٩٤٩
 الدكتور طاهر مكسي — دار
 المعارف بمصر ١٩٦٨ .
 يوليوس فلهوزن — ترجمة الدكتور :
 يوسف العشي .
 شرح الخطيب التبريزي .
 المطبعة الأدبية — بيروت
 . ١٩١١
 تحقيق شاكر هادي شكر —
 مكتبة الحياة — بيروت .
 تحقيق الدكتور عزة حسن — وزارة
 الثقافة السورية — ١٩٦٨ .
 دار صادر .

- ديوان المتنبي
- شرح البرقوقى — دار الكتاب العربي .
- ديوان الخوارج
- الذكتور محمود معروف — دار المسيرة — بيروت .
- التبزي .
- شرح حماسة أبي تمام
- شرح نهج البلاغة
- شعر الخوارج :
- الذكتور إحسان عباس دار الثقافة بيروت — ١٩٢٣ .
- يوسف خليل .
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي :
- شعر الحرب في أدب العرب
- الشعر والشعراء
- الذكتور زكي المحاسني .
- ابن قتيبة — دار الثقافة — بيروت ١٩٦٤ .
- الصناعتين
- أبو هلال العسكري : مطبعة محمد علي صبيح .
- ضحى الإسلام
- أحمد أمين — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ .
- طبقات الشعراء
- ابن المعتز .
- طبقات فحول الشعراء
- ابن سلام الجمحي — تحقيق محمود محمد شاكر .

- عبقریات العقاد
— العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي
— العقد الفريد
— علي وحقوق الإنسان
— العمدة في صناعة الشعر ونقده
— عمرو بن العاص .
— عيون الأخبار
— الفتنة الكبرى — عليّ وبنوه
— فتوح البلدان :
— فجر الإسلام
— الفرق بين الفرق
— فن الخطابة وتطوره عند العرب :
- دار الكتاب العربي — بيروت .
إحسان النص دار اليقظة العربية :
١٩٦٣ .
ابن عبد ربه الأندلسي .
جورج جرداق — دار الفكر العربي — بيروت .
ابن رشيقي القيرواني .
عباس العقاد — دار الكتاب العربي — بيروت .
ابن قتيبة .
الدكتور طه حسين دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .
للبلاذري .
أحمد أمين — مكتبة النهضة المصرية : ١٩٦١ .
البغدادي .
إيليا حاوي — دار الثقافة — بيروت .

د . شوقي ضيف .
الدكتور شوقي ضيف .
الدكتور جودة السركاني — دار
المعارف بمصر .
الدكتور عبد القادر القط دار
النهضة العربية — بيروت ١٩٧٩ .
محمد الدين الفيروزآبادي .
عارف تامر — دار الكتاب —
بيروت .
المبرد .
ابن الأثير — دار صادر — بيروت
١٩٦٥ .
أحمد توفيق المدني — دار
الكتاب — البلدة — الجزائر —
١٩٦٣ .
محمد أبو الفضائل — مكتب نشر
الثقافة الإسلامية — القاهرة .
ابن منظور .

— الفن ومذاهبه في الشعر
— الفن ومذاهبه في النثر
— في الأدب الأندلسي
— في الشعر الإسلامي والأموي
— القاموس المحيط
— القرآن الكريم
— القرامطة .
— الكامل .
— الكامل في التاريخ
— كتاب الجزالة
— كشف أسرار الباطنية وأخبار
القرامطة
لسان العرب

- المجلد / ١٧ .
- المسعودي: تحقيق يوسف داغر
دار الأندلس — بيروت ١٩٦٥ .
الدكتور محمد حجاب — مكتبة
نهضة مصر بالفجالة — ١٩٦٦ .
لقبال موسى — مطبعة البعث
قسطنطينة — الجزائر — ١٩٦٩ .
الأشعري — تحقيق: محمد محي
الدين عبد الحميد — مكتبة
النهضة المصرية .
زهدي جار الله .
ياقوت الحموي الرومي .
المرزباني .
ياقوت الحموي الرومي .
عمر رضا كحالة .
ابن هشام .
محمد شريف سليم — القاهرة —
دار التقدم — ١٩٢٤ .
- مجلة المجمع العلمي العربي
بدمشق
— مروج الذهب
— مظاهر الشعوبية في الأدب
العربي
— المغرب الإسلامي
— مقالات إسلاميين
— المعتزلة
— معجم الأدباء
— معجم الشعراء
— معجم البلدان
— معجم قبائل العرب
— مغني اللبيب
— ملخص تاريخ الخوارج منذ
ظهورهم، إلى أن شئت المهلب
شملهم

الشهرستاني — تحقيق: محمد
سيد كيلاني مطبعة مصطفى
البياتي الحلبي بمصر — ١٩٦١ .
أبو هلال العسكري — تحقيق
وتقديم: أحمد سليمان معروف —
وزارة الثقافة السورية — ١٩٨٤ .

شرح الشيخ محمد عبده .
النوري .
ابن الأثير .

شرح محمد محمود الرافعي .
القاضي الجرجاني — مطبعة محمد
علي صبيح .

القاضي ابن خلكان .
نصر بن مزاحم المنقري — تحقيق
هارون .

الخطيب علي بن الحسين
الهاشمي — طهران — مطبعة
الحيدري .

— الملل والنحل

— من ديوان المعالي

— نهج البلاغة

— نهاية الأرب في فنون الأدب

— النهاية في غريب الحديث

والأثر

— هاشميات الكميت

— الوساطة بين المتبني

وخصومه

— وفيات الأعيان

— وقعة صفين

— وقعة النهروان والخوارج

— يتيمة الدهر .

— اليمين واليسار في الإسلام

أبو منصور الثعالبي

أحمد عباس صالح — المؤسسة

العربية للدراسات والنشر —

بيروت ١٩٧٢ .

الفهرس

٩	مقدمة
١٧	من هم الخوارج ؟
٢١	نشأتهم الأولى
٣١	صفتن والخروج الأكبر
٥١	بعد النهروان
٥٧	مقتل الإمام علي
٨١	بعد علي
٩٩	صفات الخوارج
١١٩	نظريتهم السياسية
١٢٩	عقيدتهم الدينية
١٤٩	جوانب أخرى
٢١٩	أدب الخوارج
٢٥٣	١- إله شعر قليل

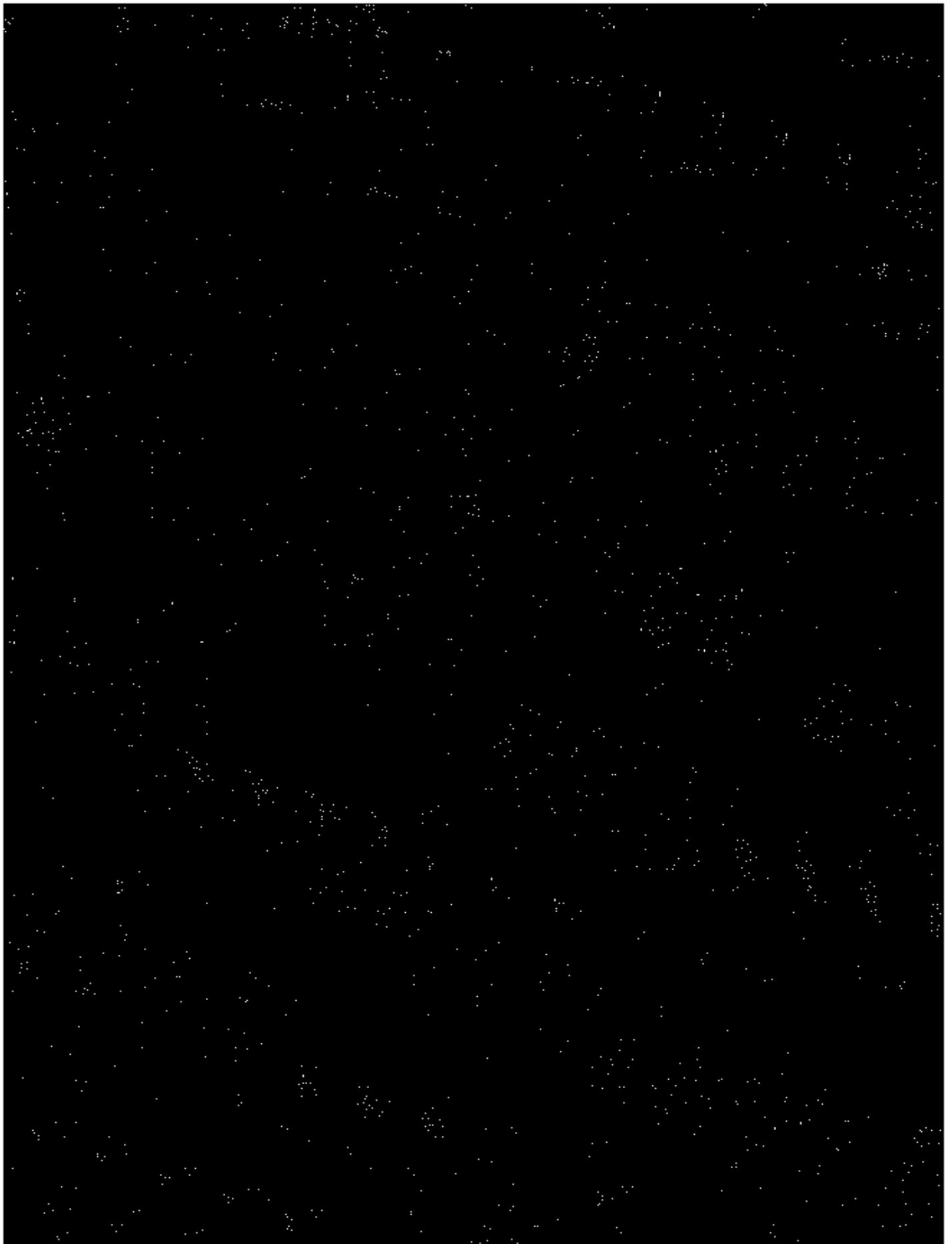
٣٠٩	٢- أثر العقيدة في شعرهم
٣١٥	٣- الطابع الإسلامي (في التعبير والتفكير)
٣١٩	٤- العروبة الخالصة
٣٢١	٥- جماعية شعرية، وتشابه الشعر والشعراء
٣٢٥	٦- البداوة
٣٣٠	٧- القسوة
٣٤١	٨- الواقعية
٣٤٧	٩- حرارة العاطفة
٣٥٦	١٠- الجودة
٣٧٢	١١- وحدة الموضوع
٣٨٧	المراجع

قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأديهم / أحمد سليمان
معروف، ط. ١. — دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨. — ٤٠٠ ص. ٤
١٨ سم.

١ — ٤٠٩ ر ٨١١ م ع ر ق ٢ — العنوان ٣ — معروف
مكتبة الأسد

رقم الإيداع — ١٩٨٨/٩/١٠٢٣

رقم الاصدار ٣٧٤



To: www.al-mostafa.com